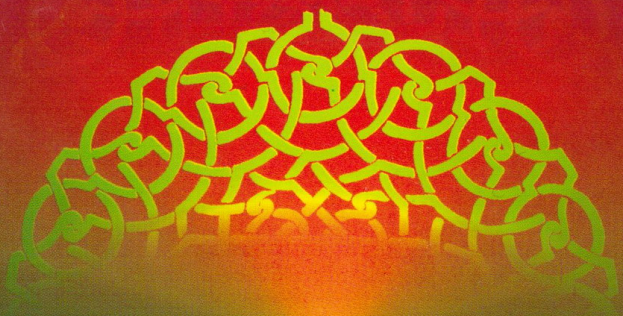
أنوار الوجود

حسين حريري



دار الهادي
للطباعة والنشر والتوزيع

أنوار الوجود

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩م



دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف: ٥٥٠٤٨٧/٠١ - ٨٩٦٣٢٩/٠٣ - فاكس: ٨٢١٢٠٣

ص.ب: ٢٨٦/٢٥ غبيري - بيروت - لبنان

أنـوار الوجـود

حسين حريري

دار الهادي
للطباعة والنشر والتوزيع



الاهداء

إلى إخواني المسلمين في الشرق الإسلامي

إلى أصدقائي الغربيين في الغرب العلماني

أهدي هذا الكتاب

المؤلف

ـ أين الحقيقة ـ

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، والصلاة والسلام على أنبيائه ورسله المهديين. المبعوثين رحمة للعالمين. وعلى عباده العاملين بالخير والإحسان إلى يوم الدين. أما بعد، السؤال عن الحقيقة سؤال لا زال يطرحه الإنسان قديماً وحديثاً. ومنذ أن وجد على هذه الأرض إلى يومنا الحاضر حيث تعددت الآراء وتشتتت الأفكار بظهور التعددية والديمقراطية والصراع الفكري بين الحضارات. ونحن أيضاً كمسلمين يجب علينا أن نطرح نفس السؤال كي لا نكون مسلمين عاطفياً أو وراثياً... فالإنسان اليقظ الخارج من حالة الغفلة لا يمكن له أن يشعر بالراحة والأمن والسعادة ما لم يحصل على أجوبة مقنعة يرتاح لها ضميره وعقله. فمن نحن يا ترى وما الحكمة من وجودنا. من أين أتينا وإلى أين سنذهب. وما هو مصير الإنسان بعد الموت إلى غير ذلك من تساؤلات كثيرة. منذ آلاف السنين وعبر الأجيال ظهر أنبياء وفلاسفة ومفكرين في كثيرٍ في الأمم محاولين الإجابة عن تلك الأسئلة. كلٌ حسب تصوره وطاقته. فظهرت بذلك النظريات والأديان والفلسفات والمذاهب المختلفة والمتعددة. وحصل لكل دين وفلسفة ونظريّة أنصار وأتباع. الآراء كثيرة ومتعددة ولكن أبرزها ثلاث تيارات أو يمكن أن نقول مدارس المدرسة الفلسفية، والمدرسة الدينية، والمدرسة العلمانية. كل واحدة من هذه

المدارس تحاول أن تثبت وأن تبرهن على صحة أفكارها وآرائها وأنها على حق. وتملك الأجوبة الصحيحة والتفسير الأنسب عن كل ما يطرحه الإنسان من أسئلة حول عالم الوجود.

فالتفسير الفلسفي ومنذ قبل الاغريق وبعده وهو يحاول فهم الوجود وحلّ غوامضه وألغازه. محاولين نظمه وتنظيمه حسب طاقتهم وإعطاءه تفسيراً إيجابياً ينزهه عن الصدفة والفوضى والعبث. وإن كان الشر والظلم والفوضى ظاهراً في بعض جوانبه. فآراء الفلاسفة كثيرة ومتضاربة منها فلسفات إلهية. ومنها فلسفات مادية. الإلهية منها تعتقد بوجود آلهة للكون كالحضارة الفينيقية، واليونانية، والرومية وغيرهما. وأن الكون يخضع لقوانين محكمة وأن الإنسان لا يفنى بالموت... إلخ.

أما الماديّة منها فهي أنكرت وجود الخالق والحياة بعد الموت. وردت الوجود إلى الصدفة. كالفلسفة الماركسية. وكذلك البوذيّة أنكرت وجود الخالق ولكنها اعتقدت بالتناسخ بعد الموت وبجزاء الأعمال. فالفلسفة هي بشكل عام الجهد البشري وإعمال الفكر في تفسير الوجود وغوامضه وما خرج عن نطاق المعلوم. فعندما ينتهي العلم تبدأ الفلسفة.

أما المدرسة الدينية، وهي مدرسة الأنبياء والرسل عليهم السلام. هم أيضاً قالوا بأنهم يملكون الحقيقة والأجوبة الصحيحة عن تفسير الوجود وغوامضه. ما عدا بعض الغيوب التي سترها الله عن خلقه، واستأثر بها. ولكن الفرق بين هذه المدرسة وغيرها أن هؤلاء الأنبياء لم يقولوا فقط بأن الله موجود وأنه يوجد حياة بعد الموت. بل قالوا أيضاً بأن هذا الخالق قد اتصل بنا مباشرةً أو بواسطة ملائكته وأعطانا الأجوبة والحقيقة وحمّلنا رسالة وأمركم أيها الناس أن تتبعونا وأن تسمعوا قولنا وتطيعوا أمرنا. طبعاً ظهرت مقاومة ورفض من الأكثرية في كل الأحيان. واتهم الأنبياء عليهم السلام بالكذب والسحر وتعرضوا للتعذيب وحتى القتل. قبل أن تظهر حججهم وسلطانهم وانتصارهم فيما بعد. فالإنسان محافظ بطبيعته

خصوصاً في الأمور العقائدية والأخلاقية فإن ترك دين الآباء واستبداله بشيء جديد لهو شيءٌ صعب جداً وليس بالأمر السهل. وهذ ما يُسمى بالثورة.

يؤدي في معظم الأحيان إلى صراع فكري وعسكري. الصراع الفكري شيءٌ واجب ومشروع وعلى الأنبياء والرسل أن يبرزوا حججهم للناس كي لا يأتي أيّ إنسانٍ كان ويدعي أنه نبيٌ مرسل. ولكن أسئلة الناس في معظمها كالتالي: كيف حدث هذا؟ ولماذا هذا الخالق قد اتصل بكم وحدكم واختاركم دوننا؟ هل أنتم على يقين أنه هو الخالق؟ ربما هو الشيطان يكلمكم، أو ربما هي أحلام! فلا نؤمن لكم، أنتم مجانين، كاذبين، ساحرين، تريدون أن تترأسوا علينا وأن يكون لكم الكبرياء في الأرض، إن كنتم صادقين نريد منكم آية، نريد معجزة، وهذا الملك الذي يكلمكم من هو لماذا لم نره نحن أيضاً؟ ما مدى مصداقيته؟... إلى غير ذلك من تساؤلات.

إن سيرة الأنبياء وسلوكهم بين الناس له الأثر الأكبر في نجاحهم أو فشلهم، أكثر من أقوالهم، فالأنبياء والرسل كانوا في الغالب فقراء، عراة، جياعا، أهل صلاة وصوم وسهر وعبادة، متواضعين، زاهدين، ليسوا بطلاب مال ولا جاه وشرف، بل تحملوا الأذى والتعذيب والخوف والقتل في سبيل أداء الرسالة ونقدوا الباطل والشر بلا تردد من أجل الإصلاح.

محمد رسول الإسلام كان يُسمى قبل فترة النبوّة في مكة بالصادق الأمين لحسن سلوكه وسيرته. وعندما قال يوماً ما لأصحابه أنه قد أُسري بي الليلة من المسجد الحرام في مكة إلى المسجد الأقصى في القدس على ظهر فرس ذو أجنحة اسمه البراق ثم عرجنا إلى السماوات أنا وجبرائيل ورأيت من آيات ربي الكبرى، لم يشك في ذلك أصحابه المخلصين طرفة عين، بل هو زادهم يقيناً، وهو أيضاً جواب للذين لم

يروا ملكاً قط ولهم شك في مصداقية هذا الملكَ الذي يأتي بالوحي من الله وبأخبار السماء، وهو بأنكم أيها الناس إذا كنتم تعرفونني جيداً وتثقون بي وتعلمون صدقي، فأنا أقول لكم أنني عرجت معه إلى السماوات ورأيت بنفسي، ما زاغ البصر وما طغى لقد رأيت من آيات ربي الكبرى. وهذا ما يدل على أهمية السلوك والسيرة التي تجعل المرءَ صادقاً أم كاذباً حتى في أمر خطير كخبر الاسراء والمعراج أو غيره من أخبار، حيث تقبله المؤمنون بلا جدال ونقاش.

وفي النهاية ماذا كان جواب الناس والأمم على أنبيائهم ورسلهم؟ منهم من آمن بقولهم وصدقهم ومنهم من كفر بهم وكذبهم ومنهم من بقي في حيرة وتشكك. وانقسم الناس ثلاث طوائف: مؤمن وكافر وشاك إلى يومنا هذا.

المدرسة العلمانية: وهي مدرسة الدليل المحسوس والتجربة، وحده البحث هو الذي يوصل الإنسان إلى الحقيقة، فهي مدرسة لا تعترف بأي خبر ليس عليه دليل ملموس ومحسوس ولا تعترف بعلم ليس عليه دليل فهي لا تؤمن لا بفلسفة ولا بدين، فهي وبالرغم من عدم وجود دليل محسوس على وجود إله خالق للكون لديها، تعترف أن الوجود شيءٌ أكثر من صدفة وأنه شيء معقد جداً، ولكن مع هذا فإن الإيمان أو الظن لا يُعتبران من مبادىء هذه المدرسة ولا تعتمد عليهما وإن كان كثير من العلماء يؤمنون أو يظنون بوجود إله خالق للكون. الوجود كتاب مفتوح وحده البحث العلمي والدراسة الموضوعية توصل الإنسان إلى معرفته وكرفع الستار عن مجهوله مع مرور الزمن.

فلا أحد ينكر أن لهذه المدرسة فضل كبير في تقدم المعرفة الإنسانية خصوصاً في هذا القرن فلقد أثبتت هذه المدرسة بالدليل أن كثيراً من الأفكار والآراء القديمة كانت على خطأ. إن رفض هذه المدرسة للدين

والفلسفة ليس من باب الكفر والجحود والعناد ولكن بحثاً عن الحقيقة والمعرفة اليقينيّة.

وفي هذا الصراع الضاري بين الأفكار فإننا نجد نوعاً من التفاهم بين الدين والفلسفة الإلهية الميتافيزيائية، كما نجد في المقابل تفاهماً بين العلمانيّة والفلسفة الماديّة، وهكذا يقف الديني والعلماني متناقضان، الديني يقول أنه مع العلم وهو يرحب به ولكن إلى جانب ذلك يريد أن يحتفظ بإيمانه بأمور لا يعترف بها العلماني، فبينما الإنسان الديني (المؤمن) يجعل الكتاب المنزّل والأحاديث النبويّة مرجعه الوحيد وحقيقته فيعرض كل ما يرد عليه عليهما فما وافقهما قبله وما خالفهما رفضه. يذهب العلماني فيجعل العقل مرجعه الوحيد فيعرض عليه كل ما يرد عليه بما في ذلك الكتاب المنزل والأحاديث النبويّة، فما صدقه العقل قبله، وما خالفه العقل رفضه، ولا إيمان لديه بدون دليل محسوس.

والديني كذلك يقول بأنه يؤيد العقل وقد عرض الكتاب المنزل والحديث عليه فصدقه حتى حصل لديه (الإيمان) بصدق النبي، وبعدما أن وصل إلى هذه النقطة (الإيمان) لم يعد فيما بعد بحاجة إلى أن يعرض الآيات والحديث النبوي على العقل بل أصبح كل ما ينطق به هذا الإنسان النبي كلام مقدس لا شك فيه ولا جدال وإن لم يدركه عقله أو يوافقه، فهو يتهم آراءه وعقله ويصدّق نبيّه وإيمانه.

الإنسان الديني يعتبر أن الحقيقة شيءٌ يتفضل بها الله على خلقه فيرسل إليهم من يهديهم إليها ويرشدهم. بينما العلماني والفيلسوف يعتبر أن الحقيقة شيءٌ يتوصل إليها الإنسان بجهده وبحثه. الديني يعتقد أنه يملك الحقيقة، وأي حقيقة؟ فإنه ثمّ صراع حتى بين الأديان كلٌ يرى أنه على حق فهم متّفقون نسبياً فيما بينهم على كثير من الأصول الأساسية ولكنهم مختلفون في بعضها وفي الفروع. العلماني يعترف أنه لا يملك الحقيقة وأنه يواصل البحث عنها.

الحقيقة لا شك أنها مطلقة. ولكن معرفة البشر بها نسبيّة، فلا أحد يملكها سوى الله عالم الغيب والشهادة. لا الديني يملكها ولا العلماني يملكها، بل معرفتهم بها نسبيّة جميع العلوم والمعارف لدى الإنسان ناقصة، فمنها ما هو حقيقة في جوهره بشكل كلّي ومجهول في بعض أجزائه وتفاصيله، ومنها ما هو حقيقة في بعض فروعه وأجزائه ومجهول بشكل كلّي.

وفي هذا الصراع الضاري بين الديني والعلماني بين الإيمان بالغيب والدليل المحسوس أصيب الديني ببعض الهزائم خصوصاً في الغرب لأن حلبة الصراع مفتوحة حلبة الديمقراطية التي تسمح للجميع بحرية الرأي والتعبير. طبعاً إنها ثورة جديدة فصلت الدولة عن الدين وتنحت الكنيسة الحاكمة عن السلطة. إنّ صعود نجم العلماني في الغرب إنما هو بسبب تلك الهزائم التي أصيب بها الديني حيث يعتبر العلماني أنه فضح الديني وأسقطه وأباد حقيقته، بل أباد باطله.

إن من أهم تلك المعارك معركة جاليلي عالم الفلك مع الكنيسة حيث أقيمت له محاكمة لأنه قال أن الأرض كروية الشكل وأنها تدور حول نفسها وليست الشمس هي التي تدور حول الأرض.. ولقد اضطر إلى تغيير موقفه هذا أثناء المحاكمة وذلك لأنه كان يواجه عقوبة الموت إذا استمر على موقفه المناقض لأصل من الأصول الدينية ولحقيقة من حقائقه. وغير هذه المعركة معارك كثيرة أدت إلى قتل كثير من العلماء كانت آراؤهم مناقضة للدين أو لبعض أصوله أو فروعه.

بالمناسبة أحب أن أشير إلى أن الحوار الديمقراطي كان شيئاً شائعاً ورائجاً في فجر الإسلام حيث كان يأتي إلى مكة والمدينة كثير من الأحبار والرهبان والعلمانيين لمناقشة علماء الإسلام بكل حريّة، وكتب التاريخ الإسلامي مليئة بتلك الحوارات والمناقشات...

فهو ومع انتصار العلماني والعلم الحديث، فإنه يبقى عاجزاً عن

اعطاء تفسير شاملٍ كاملٍ وإن يقدم حقيقة خالصة، فهو يعترف بهذا العجز ولا يقدم من حقائق إلا ما أثبته بدليل.

وكلنا يعلم أن لا شيء أكثر إيلاماً لذوي العقول من الحيرة والضلال والعجز عن فهم الأمور وادراك الحقيقة.

أما الأنبياء فهم بالعكس من ذلك لقد أعطوا للناس تفسيراً شاملاً كاملاً تطمئن إليه النفوس ويوفر لها الشعور بالأمن بأن لهذا الوجود خالقاً وإن للحياة على هذه الأرض حكمة وهدفاً وليس صدفة ولا عبثاً وأن الموت ليس فناء بل هناك بعد الموت جزاءً وحياةً في خلود... طبعاً لا أحد ينكر أن الإيمان بهذه الأصول يبعث الشعور بالأمن والطمأنينة والسلام الاجتماعي والتعامل الأخلاقي الحسن وحب الغير... طبعاً نرجع ونقول أن هذه الأصول لدى الديني إيمان وتسليم بلا دليل محسوس.

وهنا العلماني يتهم الديني بأن ما جاء به من تفسير هدفه النتائج الاجتماعية وليس حقيقة، وأنه قد فضحه في كثيرٍ من المعارك وأنه كان على خطأ حتى في الأمور الحسيّة النصف غيبية ككروية الأرض مثلاً. فكيف في الأمور الغيبية بشكل كلّي، هي أيضاً بدورها أكثر خطأً. وأما عن الطمأنينة والأمن التي يُحدثها الدين في قلوب الناس وما يشعر به الإنسان من إيمان فطري في أعماق نفسه، فإن العلماني لا يعتبر هذه المشاعر والأحاسيس دليلاً على واقعيتها أو عن شيء من الحقيقة، بل يعتبرها من عالم العواطف، إذ ليس للعواطف في نظره صدقيّة، فهو لا يعتمد عليها.

أما الديني فهو يعتبر أن لتلك المشاعر والأحاسيس الفطريّة صدقيّة إذ تُعبّر عن واقع موضوعي لها. فإن شعور الإنسان مثلاً بالعطش لهو دليل على وجود الماء، والشعور بالجوع دليل على وجود الطعام، ولفطريّة الإيمان بالله، وجود لله، ولحب البقاء والحياة في خلود، لهو دليل على وجود الحياة والخلود بعد الموت... إلخ. فلكل شعور وإحساس في النفس الإنسانية، هنالك ما يسدّ ويروي ذلك العطش وذلك الشعور. وهذا

القياس على ما هو غيب سواء كان دينياً أم فلسفياً لا دليل عليه. فهو لدى الديني إيمان وتسليم.

فيا عزيزي القارىء، إن هذا الكتاب الذي بين يديك. ليس كتاباً دينياً محض، بل هو قبل كل شيء كتاب علمي وفلسفي. قد شمل أهم العلوم الطبيعية والعقلية. فهو غنيٌ في مادته، فربما يصعب على البعض هضمه بسهوله ولقد تجنبت به اللف والدوران واقتصرت على الجوهر النظري. كما حاولت به دمج العلم والفلسفة بالإيمان. عسى أن يزيد المؤمنين علماً. والعلمانيين إيماناً. ولقد أتممت كتابته بعون الله وتوفيقه في بضعة أشهر، وذلك بعد مرور عشر سنوات من السجن، غنيّة بالتفكر والتأمل. وإن كان يحق لي أن أمدح أحداً غير الله، لكان ذلك للعزلة والتفكر. العزلة التي استمرت سنوات طويلة. والتفكر هذه الفضيلة التي يتميّز بها الإنسان عن غيره من الحيوانات. والتي بدونها فلا علم ولا رقي ولا كمال يمكن أن يحدث لأحد من البشر. تجربة غنيّة ونافعة على قدر مرارتها وغصصها عسى أن تكون ثمارها هذه نافعة لي ولغيري من الأخوة. مع علمي بالفرق الشاسع بين الذوق والقراءة. فها أنا أُفرغ في هذه الصفحات البيضاء مما أفرغته الأيام والزمن على صفحة قلبي. ومما حصده الفكر والتأمل من عالم الوجود. والله المستعان وهو ولي التوفيق.

حسين حريري
السجن سويسرا
١٩٩٧ م

٧ ـ الغيب والشهادة ـ

الغيب معناه في اللغة العربية، هو كل ما غاب عن العيون وتستّر، يُقال غابت الشمس، وغاب الرجل، ويُقال غابات جمع غابة لأنه يُغاب فيها.

ويمكن أن نقول أن الغيب هو كل ما غاب عن الإنسان ولم يحط به علماً، سواء كان مما يُدرك بالحواس، أم مما يُدرك بالعقل.

والشهود هو بعكس الغيب تماماً، وهو كل ما ظهر شهوداً للإنسان وأدركه سواء مما يُدرك بالحواس أو مما يدرك بالعقل. قال النبي «فليبلغ منكم الشاهد الغائب». وقيل عن العارف المتصوّف أنه قد وصل إلى حالة من الشهود. والمقصود بذلك شهادة الأمور المعنوية العقلية. فمثلاً عندما يقول الإنسان المسلم أشهد أن لا إله إلا الله. وأشهد أن محمد وعيسى وموسى وإبراهيم وغيرهم... أنبياء الله ورسله. فإن هذه الشهادة هي شهادة عقلية لا شهادة حسيّة. بل يشهد بها العقل بعد حصوله على مقدمات منطقية يستدلّ ويستنبط من خلالها شهادة عقلية. ولا أقصد بهذه الشهادة ما يردده الإنسان المسلم بلسانه منذ سن الطفولة وما ورثه من أبويه. بل أقصد شهادة ناتجة عن تحقيق وتدقيق وقناعة. أما الإيمان فهوأيضاً كالشهادة تقريباً يحصل في النفس بعد استدلالات وهو تتفاوت

درجته ولكنه أقل من الشهادة. فالإيمان والتصديق بخبر ما لم يره الإنسان بنفسه تتفاوت درجاته وذلك بحسب نوع الخبر من جهة، وبحسب هويّة الإنسان المخبر وسيرته. أما الشهادة فهي اصدار حكم عقلي قاطع.

وقد يؤمن أيضاً الإنسان بشيء لا أساس له من الصحّة، وذلك نتيجة التضليل أو الوراثة أو الدعاية...

أعتقد أن الحدود الفاصلة بين الغيب والشهادة هي على نوعين: منها حدود ماديّة ومنها حدود مجرّدة غير ماديّة.

ـ **أما الماديّة**: فبالنسبة لهذا العالم الماديّ، أكثر الحواجز التي تجعل الشيء غائباً أو شاهداً هي أمران (الزمان والمكان) وهي أربع حالات.

١ ـ إما لبعد المسافة بين الحاسّ والمحسوس.
٢ ـ وإما لصغر المحسوس بالنسبة للحاسّ.
٣ ـ وإما لكبر المحسوس بالنسبة للحاسّ.
٤ ـ وإما لغيب الحاسّ عن المحسوس.

ولتوضيح ذلك أعطي أربع أمثلة على هذه الحالات الأربع:

١ ـ المجرات في السماء لبعدها عنا بسبب المسافة الهائلة لم تكن مشهودة لدينا يوماً ما بل كانت غيباً لنا ثم اكتشفها العلم الحديث بواسطة المراصد العملاقة فأصبحت لنا شهوداً.

٢ ـ الذرّة والمكروب وبسبب صغر حجمهما بالنسبة لنا كانا غيباً، ثم اكتشفهم العلم الحديث بواسطة المجهر، فأصبحا لنا شهوداً.

٣ ـ الكرة الأرضيّة وبسبب كبر حجمها بالنسبة لنا والتصاقنا بها كانت تظهر لحواسنا على أنها مسطحة، بينما كانت كرويتها لنا غيباً، ثم اكتشفها العلم الحديث أنها كروية الشكل فأصبحت كرويتها لنا شهوداً.

٤ ـ جميع الحوادث التي تقع في الكون إذا لم يكن الحاسّ موجوداً

أثناء وقوع الحادث فإن ذلك الحادث يكون غيباً لمن لم يشهده.

إذاً المكان والزمان والظلام هما الحدود الفاصلة بين الغيب والشهادة وهكذا كل ما يقف حائلاً بين الحاس والمحسوس. فإذا ما كان المكان والزمان المناسبين وسلّط الضوء على الماهيّة وأصبحت بمتناول الحواس، عندئذٍ تصبح الماهيّة شهوداً.

إذاً فالبحث العلمي وإقامة المختبرات والاستطلاع لكشف الستار عما غمض من أسرار الكون وكشف الحقائق فإن ذلك شيءٌ جيد وممتاز وواجب. كيف لا؟ ومن أهم غرائز النفس الإنسانية غريزة حب الاستطلاع وطلب المعرفة والبحث عن الحقيقة.

ـ وأما المجرّدة: فلا تكون الحدود الفاصلة بين الغيب والشهادة (الزمان والمكان) كما في الحدود الماديّة بل تكون الحدود من نوع آخر لأن عالم الملكوت المجرد له خصائصه الغير ماديّة. فلا مجال لنا لكي نقتحم غيوبه لأنه بالنسبة لنا هو غيبٌ ونشأة أخرى، والأنبياء والرسل ذكروا بعض أموره بشكل موجز كالعلم بذات الله والملائكة والجن وعالم البرزخ... فلا مجال لنا للخوض فيه أو التكهن والتوهم والعمل بالرأي. لأن ذلك من الأمور العقائدية الدينية والتي لا يجوز التفلسف فيها. ولأنها أيضاً غيب من غيوب عالم الملكوت. وهو عالم ما بعد الطبيعة والمادة. ويسمى هذا العلم بالعلم الأعلى وهو غيب بشكل كلي بالنسبة لنا. أما العلم الأوسط فهو الأمور الغائبة بشكل جزئي والتي باستطاعة العقل إدراكها والتوصل إليها كعلم الرياضيات مثلاً والفيزياء والكيمياء... إلخ. وأما العلم الأدنى فهو العلم الشاهد الظاهر المحسوس والواقع تحت حيطة الإنسان. وهي الأمور التي لا يحتاج اثباتها إلى دليل وهي المعلومات والمقدمات الأولية والأمور البديهية.

يبقى أن أشير إلى أن العلماني لا يعترف بالعلم المجرد الملكوتي ولا بالعلم الأعلى. فهو يعترف فقط بالعلم الأوسط والأدنى.

بالنسبة لعالم الملكوت المجرد يدعي بعض علماء التصوّف والعرفان والرهبان البوذيون أن الإنسان باستطاعته الاطلاع على عالم الغيب المجرد ومعرفة بعض حقائقه وذلك بعد صفاء النفس بالرياضات الروحيّة والمجاهدات النفسيّة فعندها تشرق أنوار الملكوت على النفس فيرونها شهوداً وذوقاً. وهذه المعرفة هي ما تسمى بالحكمة الاشراقية أي أن المعارف تشرق على النفس. وهي بعكس الحكمة المشّائية القائلة بأن المعرفة تحصل فقط عن طريق العقل والبحث والاستدلال والاستنباط.

وهذا المذهب المثالي الاشراقي عميق الجذور متعدد الأساليب اكتسب لوناً من الغموض. مؤسس هذا المذهب أفلاطون يعتقد أن النفس الإنسانية المجردة قبل أن تسكن هذا البدن كانت في ذلك العالم الملكوتي المجرد وكانت عالمة بكل حقائقه ولكنها بعدما هبطت إلى هذا العالم ذهلت ونسيت كل ما كانت تعلمه هناك من حقائق مطلقة، ولكنها تسترجع معلوماتها وتتذكر عن طريق الادراك الحسي الجزئي لأن كل ما هو في هذا العالم إنما هو ظلال وانعكاسات لذلك العالم الملكوتي المجرد إذاً في هذا المذهب المعرفة الإنسانية تشرق إشراقاً من داخل النفس بعد إصلاحها وجلائها بالرياضات الروحيّة.

ولقد خاض كثير من العلماء قديماً وحديثاً وألفوا كتباً حول تلك المشاهدات التي ليس عليها دليل محسوس سوى مشاهدتها وذوقها من هؤلاء العلماء دون سواهم طبعاً العلماني لا يعترف بذلك ولا أصحاب الفلسفة المشائية. لا بد من الإشارة إلى أنه ليس كل من يعتقد أو يؤمن بعالم الملكوت والعلم الأعلى يقول بمذهب الإشراق، كثير من علماء الدين ينكرونه.

كما أن كثيراً من الفلاسفة اعتبروا المثالية وضعاً لكل فلسفة ترتكز على الشك أو تنطوي على محاولة لإبعاد جانب في الأشياء الموضوعية عن نطاق المعرفة الإنسانية.

بالمناسبة أنقل مقطعاً في إحدى الخطب للإمام علي عليه السلام المعروفة بخطبة الأشباح وهي تبين عجز العقل عن الإحاطة في الغيب الأعلى كذات الله جلت عظمته وذلك عندما سأله رجلٌ أن يصف له الله كأنه يراه عياناً فغضب عليه السلام وأجاب: (المقطع): هو القادر الذي إذا ارتمت الأوهام لتدرك منقطع قدرته وحاول الفكر المبرأ في خطرات الوسواس أن يقع عليه في عميقات غيوب ملكوته وتولّهت القلوب إليه لتجري في كيفية صفاته وغمضت مداخل العقول حيث لا تبلغه الصفات لتناول علم ذاته ردعها وهي تجوب مهاوي سدف الغيوب متخلّصة إليه سبحانه فرجعت إذ جُبهت معترفةً بأنه لا ينال بجور الاعتساف كنه معرفته ولا تخطر ببال أولى الرويّات خاطرةٌ من تقدير جلال عزته[1].

(١) نهج البلاغة خطبة الأشباح (ص) ـ ٢١٢ ـ شرح عبده.

ـ مصادر المعرفة وحصولها في النفس ـ

لا شك أن الإنسان هو أرقى وأشرف المخلوقات على هذه الأرض، فلقد فضّل الله سبحانه وتعالى هذا الإنسان على غيره من المخلوقات بما منحه من قوى عقلية وفكرية، وبما تتميّز به نفسه من غرائز وقوى واستعدادات على الاستيعاب، غرائز تدفعه إلى طلب العلم وكسب المعرفة والبحث بشتى الوسائل وتجعل العلم والمعرفة هدفاً وغاية إذ بهما تدرك الحكمة وبالحكمة السعادة. بينما ينفر المرء من الجهل والشك والغموض.

والآن لنتساءل كيف لنا أن نصل إلى المعرفة المؤدية إلى الحقيقة، هل المعرفة مصدرها من خارج الإنسان ومحيطه؟ أم أن مصدرها من داخل الإنسان وروحه؟ أم أن مصدرها من الله؟.

الجواب: ليست المعرفة مصدرها من خارج الإنسان، كما ليست أنها من داخل الإنسان صحيح أن الحواس الخمس تمثل النوافذ التي تجعل النفس الإنسانية تتصل بالعالم الخارجي الذي يحيط بالإنسان، إلا أن هذه الحواس الخمس ليست سبباً كاملاً لحصول العلم والمعرفة في النفس، وإن كان يحدث ذلك عن طريق أو بواسطة هذه الحواس. فالحواس الخمس هي فقط مجرد أدوات تستخدمها النفس وتحركها، فالبصر للنور،

والسمع للذبذبات الهوائية، واللسان لتذوق المواد، والأنف لشم غازات الهواء، واليد لتلمس الأشياء. أعطي مثالاً على ذلك يوضح أن هذه الحواس ليست هي المدرك للعلم والمعرفة. فلنأخذ جهاز التصوير الفيديو أو غيره فإن هذا الجهاز يسجل الصورة والصوت، فيدخل النور في العدسة والصوت في جهاز تسجيل الصوت ولكن دون أن يحصل لهذا الجهاز أي علم أو معرفة بما رأى من صور وما سمعه من صوت. وذلك لأنه ليس لهذا الجهاز عقل أو إدراك. وهكذا تماماً الحواس الخمس لدى الإنسان، فهي ليست سبباً كاملاً لحصول العلم والمعرفة في النفس. ولكن المخلوقات ومن بينها الإنسان يحصل لهم من العلم والمعرفة بقدر ما أعطاهم الله من قدرات في نفوسهم وعقولهم على الادراك والاستيعاب.

فالمخلوقات تتفاوت فيما بينها في درجات الفهم والادراك، بحيث كلما كان الادراك تجاه المُدرَك أقوى وأعقل، كلما كان العلم والمعرفة أدق وأشمل وأعمق، وكان المخلوق أرفع وأشرف في المنزلة. وكلما كان الادراك تجاه المُدرَك أضعف، كلما كان العلم أضيق وأقل، وكان المخلوق أخسّ وأحقر.

وهكذا بدءًا بالمخلوقات الحقيرة صعوداً نحو الأشرف، فأولاً المخلوقات البسيطة كالديدان والأصداف ثم الأسماك ثم الزواحف ثم البهائم كالحمير والبقر ثم الحشرات كالنمل والنحل ثم الطيور كالهدهد والببّغاء ثم الكلاب ثم القرود ثم الإنسان. حيث كل هذه المخلوقات ترى كل ما يراه الإنسان وتسمع كل ما يسمعه، ولكن درجات الفهم والاستيعاب والادراك وحصول العلم لديها تختلف اختلافاً كبيراً مثلاً: الكلب أذكى من الحمار، والقرد أذكى من الكلب، والإنسان أذكى من سائر المخلوقات بمسافة شاسعة. ما عدا بعض البشر الذين صورهم كالإنسان بينما ادراكاتهم ضعيفة ومحدودة كالبهائم والأنعام، يأكلون ويشربون ويتمتعون ولا عقل لهم. إذا درجات الفهم والادراك تتفاوت حتى بين الجنس الواحد كالإنسان، ولنتساءل هل هذا التفاوت بين الجنس

الواحد هل هو مخلوق ليس للإنسان به دخلٌ، خارجاً عن إرادته، أم أن للإنسان دخلٌ به ومسؤول عنه؟ هل هو قاصر أم مقصّر؟ إذا كان قاصراً فلا لوم عليه كالمجنون أو كعقل الطفل والمراهق أو كعقل كثير من النساء أو المصاب بأحد الأمراض الوراثيّة. . . إلخ.

كل هذا النوع من الناس مستضعف كما سماهم الإسلام. أما المقصّر فهو المسؤول عن تقصيره وهو الملام والمذموم، وهو الإنسان البالغ سن الرشد الصحيح العقل والقوى، طبعاً قد لا يكون مسؤولاً وملاماً بشكل كليّ قد يكون ملاماً بشكل نسبي، كالذي نشأ في عائلة غير سليمة أو تلقى تربية وتعليما غير سليم وغير مناسب، أو يكون قد عاشر أو رافق أصدقاء غير صالحين. إذاً الملامة والمسؤولية تكون متوزعة على الأهل وعلى المعلم ومنهج التعليم وعلى الأصدقاء وعلى الشارع والتلفزيون وعلى الحضارة والثقافة والقيم التي يعيش فيها وعلى نفسه جزءٌ أيضاً لأنه لم يفكر بعقله وإن كان هذا الجزء من المسؤولية صغير جداً، فكلنا يعلم صعوبة التخلص من أفكار خاطئة قد نشأ عليها الإنسان، هذا إذا أدرك خطأها فكيف بالذي يحسب أنه يُحسن صنعاً.

فكل هذه الأمثلة والعوامل توضح أنه وإن كان الادراك لدى الإنسان كاملاً في جوهره بلا خلل ولا علّة إلاّ أن هذه العوامل التي ذكرتها تجعله مريضاً قليل الادراك والتعقّل غير بصير. كما يوجد عوامل ومؤثرات أخرى تجعل الادراك العقلي يضعف أو يتعطل أو يشوش عليه أو يموت نهائياً. فمثلاً كثرة الأكل والتخمة تودي إلى ضعف في الادراك ولساعات عديدة حتى تكتمل عملية الهضم. ولقد جاء في أحد الأحاديث أنه ليس شيئاً أبغض إلى الله من بطنٍ ملآن. ولقد سئل الإمام علي عليه السلام لماذا إذا أكل لم يشبع؟ فأجاب: من شبع عوقب في الحال ثلاث عقوبات يلقى الغشاء على قلبه، والنعاس على عينه، والكسل على بدنه. فالتخمة سيئة للادراك أما الصوم وخصوصاً عند العصر فإن الإنسان يشعر بقوة في إدراكه العقلي وكذلك القيام وقت السحر من النوم للتفكر فإن الادراك يكون نشيطاً وقوياً

فكثرة النوم مضرة إذا كانت فوق الحاجة. ومن العوامل الخطيرة أيضاً على سلامة الادراك: المخدرات، والخمور، وكثرة الكلام، وكثرة الضحك، والأماني والعجب بالنفس، والعيش المستمر تحت تأثير الشهوة والغضب، والتعصب، والتقليد الأعمى، والمؤثرات العاطفية، وصحبة الجاهل... إلى غير ذلك من مؤثرات ثم أنه لا يكفي لكي يصبح الادراك قوياً إزالة هذه المؤثرات لساعة أو ليوم أو لأسبوع بل أن ذلك يلزمه مدد طويلة، والإلتزام الدائم، لكي يطهر العقل والادراك. فإذا التزم الإنسان بذلك فإن أنوار العقل تسطع فيرى الإنسان عندها دقائق الأمور ولطيف الحكمة وجمال الله وأنواره المشعة في الوجود فيرى ما لا يراه الحجر، والشجر، والحيوان وكثير من الناس.

أنتقل إلى السؤال الثاني: هل المعرفة مصدرها من داخل الإنسان وعقله؟.

الجواب: ليس العلم والمعرفة مصدرهما من داخل الإنسان تماماً كما أنهما ليس من خارج الإنسان ومحيطه. لأنه ما لم يملك الإنسان الحواس الخمس للحصول على الادراك الحسّي الجزئي والتعرف على العالم الخارجي وماهياته وخصائصه ومعلوماته الأولية، فإن صدور العلم والمعرفة فقط من الداخل والعقل فإن ذلك شيءٌ مستحيل ومتعذر، فلقد جاء في أحد الأحاديث أنه من فقد حساً فقد علماً. لأنه لو وُلد إنسان مثلاً بدون الحواس الخمس فإن هكذا إنسان سيكون أشبه بشجرة يأكل ويشرب ويتغذى وينمو فقط ثم يموت في النهاية، فإنسان كهذا إنسان نباتي له جوارح حيوانية معطلة، أما غرائزه الإنسانية فستبقى بحالة من النوم ولا مجال لها لكي تتفتح أو أن يصل صاحبها إلى العلم والمعرفة والكمال. إذاً الحواس الخمس ضرورية كما ذكرت، ولكن مصدر العلم والمعرفة ليس هو من الخارج كما ليس هو من الداخل، إنما هو تفاعل بين الخارج والداخل، والواحد دون الآخر لا يمكن أن يؤدي إلى معرفة.

فأول ما يبدأ به الإنسان إنما هو السمع والشمّ واللمس والذوق والنظر وهو الإدراك الحسّي الجزئي وهي المعارف والمعلومات الأوليّة، ثم بعد ذلك عند الوصول إلى سنّ الادراك العقلي يبدأ النشاط الفكري الداخلي، لأن العقل لم يعد بحاجة إلى الحواس الخمس، وهذا التفكر الداخلي يحصل منه علم ثاني هي المعارف العقلية المجزدة عن الحسّ والمادة، وهي استنتاجات وانتزاعات واستنباطات عقلية ثانويّة منتزعة من معلومات ومقدمات أوليّة جزئية، كالتوصل مثلاً إلى ادراك وجود الله (ج) فهو ادراك عقلي، أو ادراك قانون العليّة العام وهو أنه لكل علة معلول ولكل سبب مسبب ولكل أثر مؤثر أو مبدأ عدم التناقض أو استنتاجات رياضيّة أو غير ذلك في استنتاجات عقلية. إذا المعارف العقلية تكون مرتكزة على المعارف الجزئية الأولية. بل هي مرهونة بها، وكلما كانت المقدمات المنطقية الأولية صحيحة، كلما كانت الاستنتاجات العقلية بدورها أيضاً صحيحة، وإذا كانت المقدمات خاطئة أو غير دقيقة تكون أيضاً الاستنتاجات العقلية خاطئة وغير دقيقة. وهنا ظهر المذهب التجريبي وهو المذهب الذي لا يثق كل الثقة بالمذهب العقلي واستنتاجاته، بل هو يُخضع كل استنتاج عقلي للتجربة العمليّة للتأكد من صحتها. فهو يريد أن تكون كل المعارف لدى الإنسان حقيقية يقينية ومؤكدة دون أدنى شك. أعتقد أن هذا المذهب هو بنفسه من ثمرات العقل. إذا ليست المشكلة في المذهب العقلي واستنتاجاته، بل هي في المقدمات المنطقيّة، هل هي فعلاً منطقيّة أم لا؟ فالتجربة هي التي تؤكد أم تنفي (منطقيتها). فلنأخذ مثلاً العلوم الطبيعيّة، فعندما يستنتج العالم نتيجة عقلية ما ولكن دون التأكد من صحتها، فإن هذا العالم يقوم بعمليّة تجربة للتأكد من صحة أم خطأ ما يعتقد أو يظن بصحته، ولكن وحدها التجربة هي التي تكشف له عن ذلك. فبعد إجراء التجربة والحصول على النتيجة، فإن العالم يكون قد حصل على معلومة حسيّة جديدة انتزعها العقل وصدقتها أو كذبتها التجربة. مثالاً على ذلك اكتشاف الكوكب التاسع في

المنظومة الشمسية (بلوتون) تم اكتشافه عن طريق الحسابات الرياضية، لا عن طريق الحسّ (البصر).

وكذلك أيضاً كروية الأرض لقد أدرك الإنسان كرويتها منذ زمن بعيد، ولكن وحدها التجربة العملية هي التي أكدت ذلك. وهذا لا يعني إنه يجب على الإنسان أن يُخضع جميع ما يعتقد به للتجربة، فالتجربة تطبق فقط على الأمور الماديّة التي بمتناول الإنسان لا على الأمور المعنوية المجردة لاستحالة ذلك، ولكن للمعنويات المجردة نفس القيمة من الموضوعية لما للماديات. إذ كيف لنا أن نثبت وجود الله بالتجربة فإن ذلك مستحيل.

وهنا أذكر قصة إبراهيم الخليل أبو الأنبياء عليه السلام: عندما أراد أن يتأكد من البعث بعد الموت، حيث طلب من الله (ج) إجراء عملية تجربة ليتأكد حسياً من ذلك. فإبراهيم عليه السلام كان يؤمن أن الله قادر على إحياء الموتى وأن قوله حق ولكن أراد أن يتأكد كي يطمئن قلبه. قال: ربي أرني كيف تحيى الموتى قال: أو لم تؤمن قال: بلى ولكن ليطمئن قلبي. قال الفيلسوف أرسطو: المعلومات الحسيّة والعقلية هي حقائق ذات قيمة قاطعة ويجوز استعمالها معاً. مع احترامنا لهذا الكلام يجب علينا التأكد من صحة ذلك هل المعلومات الحسيّة كما يقول هي حقاً ذات قيمة قاطعة؟ الحقيقة أنها ليست كذلك مئة بالمئة، كثيراً من المعلومات الحسيّة غير صحيحة. كأن نرى الأرض مسطحة أو أن نرى المجرات في السماء بحالة من الحالات بينما هي في الحقيقة في حالة أخرى، فنحن نراها حسياً الآن لما كانت عليه منذ آلاف وملايين السنين وهي المدة الذي يستغرقها الضوء لقطع المسافة قبل أن يصل إلينا ونراها. وكذلك أيضاً كافة أعمال السحر هي خاطئة ومرتكزة على خدع البصر... وخصوصاً في هذا القرن ومع تقدم العلم فإن الإنسان أصبح بمقدوره تزوير الصورة والصوت وغير ذلك... إذا المدركات الحسيّة هي ليست ذات قيمة قاطعة. والتجربة مطلوبة للتأكد من المعلومات الحسيّة الأولية. أما بالنسبة للادراك العقلي.

أذكر كلمة للإمام على عليه السلام يقول: ليست الرويّة كالمعاينة مع الإبصار، فقد تكذب العيون أهلها ولا يغشّ العقل من استنصحه[1]. فالإمام كما نرى هنا يثق بالعقل ولا يثق بالحسّ.

كما أن له كلام في موضع آخر يصدق به الادراك الحسّي بقوله بين الحق والباطل أربع أصابع فسئل عن ذلك، فوضع كفه بين أذنه وعينه وقال: الحق أن تقول رأيت والباطل أن تقول سمعت. طبعاً ليس كل رؤية حق كما أنه ليس كل سمع باطل لقد قال الإمام ذلك رداً على ما يرويه الناس من شائعات وتُهم على الآخرين. فكلام الإمام صادق في مكانه. وأما كلامه في الحديث السابق: ولا يغش العقل من استنصحه، هو كلام حكيم.

السؤال الأخير: هل المعرفة مصدرها من الله؟.

الجواب: بالنسبة للعلماني طبعاً لا، ليس مصدرها الله. فإنه حتى موضوع الله غير مؤكد لديه وليس عليه دليل محسوس.

أما بالنسبة للديني، نعم هنالك معارف كثيرة يعتقد أن مصدرها الله ج. وهنا ندخل في مجال الوحي الإلهي، فجميع الأخبار والمعارف الواردة في الكتب السماوية كوجود الله والملائكة والجن والبعث والجنة والنار وما فيهما.. إلى ما هنالك من أخبار ومعارف يعتقد الديني أنها معارف حقيقية صادقة لها واقع موضوعي وأن هذه المعارف قد أوحاها الله إلى أنبيائه ورسله بواسطة جبرائيل، فهي لديه معارف حقيقية لا شك بها.

أما العلماني فهو يعتبرها أخبار ليس عليها دليل فهو لا يعترف بها كمعارف حقيقية ولا يُدخلها في قاموس المعارف الإنسانية.

خلاصة الموضوع: ليست المعرفة مصدرها خارج الإنسان كما أنها ليست من داخل الإنسان إنما هي تفاعل بين الخارج والداخل، وهي

---

(١) نهج البلاغة ص ـ ٧٢٤.

معارف حسيّة وعقليّة وانتزاع واستنباط وتجارب، وإن الفكر البشري قادر على ادراك حقائق موضوعية خارج نطاق الحسّ بشكل جزئي لا بشكل كليّ، يتوصل إليها عن طريق مقدمات منطقية صحيحة. فنظرية المعرفة حسب المذهب الأفلاطوني أنها من الداخل اشراقية أعتقد أنه غير صحيح. أما نظرية المعرفة حسب المذهب الأرسطي، هو مذهب صحيح شرط أن يرتكز على مقدمات منطقية صادقة وحقة. وهنا يأتي دور المذهب التجريبي، وهو عملية فحص وامتحان للمقدمة والنتيجة معاً، والتجربة تطبق فقط على الماديات دون المعنويات المجردة لاستحالة ذلك، ولكن للمعنويات نفس القيمة لما للماديات. إن طريق المعرفة الإنسانية نحو الحقيقة يسير خطوة خطوة، فكل خطوة تمهد لما بعدها، أما القفز الإشراقي هو مستحيل وليس عليه دليل. . وأما المعارف الدينيّة هي أيضاً معارف لا يمكن التأكد من صحتها بدليل محسوس، بل هي اعتقاد وإيمان لدى أصحابها. في الختام لا بد من القول أن المذهب التجريبي الحديث كان له دورٌ كبيرٌ في تقدم المعرفة الإنسانية، كما كان سابقاً للمذهب العقلي دورٌ كبيرٌ يوم حلّ محل المذهب الإشراقي القديم. وهذا لايعني أن المذهب العقلي قد تعطل، بل هو يسير مع المذهب التجريبي جنباً إلى جنب نحو المعرفة الحقيقية، بل يمكن أن أقول إن المذهب التجريبي هو وزير المذهب العقلي. وثمرة من ثمراته.

ـ فضل العلم وطلبه وأقسامه والعمل به وفضل التفكر عليه ـ

كما ذكرت سابقاً فإن طلب العلم والمعرفة غريزة من غرائز النفس الإنسانية، فهو نورها وحياتها وكمالها وأنسها وشرفها. والجهل هو بالعكس من ذلك تماماً هو النقص والظلمة والوحشة والذلة... ولقد شدد الإسلام كثيراً على طلب العلم حتى جعله فريضة على كل مسلم، وفضله على سائر العبادات.

فالعلوم كثيرة ومتشعبة منها أصول ومنها فروع وهي تختلف من حضارة إلى أخرى، فالعلوم الدينية مثلاً هي لدى الإنسان الديني قمة العلوم والأكثر أهمية. بينما هي في نظر العلماني والحضارة المادية لا قيمة لها تذكر.

فمن وجهة نظر الإسلام العلوم بعضها واجب وبعضها الآخر من الفضل مستحبة وبعضها لا نافع ولا ضار وبعضها ضار غير نافع.

فمن أشرف العلوم وأوجبها وأرفعها منزلة هو العلم بالله جل جلاله ذاته وصفاته وأفعاله والعلم بأنبيائه ورسله وعلم النفس وأخلاقها خيرها وشرها والعلم بالمعاد وأحوال الحساب وجزاء الأعمال وما في الجنة

والنار وعلم الشريعة حلالها وحرامها والفرائض. . . إلخ.

فالعلوم الدينية منها ما هوأصول عقائدية نظرية. ومنها ما هو فروع عملية كالفرائض مثلاً، وما هي في الحقيقة إلا لتطهير النفوس وتهذيبها وترويضها، فهي تمثل رياضة مؤقتة في الحياة إلدنيا، تنعدم في الآخرة كما جاء في الأخبار الدينية فهي إذاً وسيلة وليست هدفاً. ففي عالم الآخرة لا يوجد لا صلاة ولا صوم ولا زكاة ولا حج ولا عبادة. . . الشيء الوحيد الذي يرافق الإنسان بعد موته إلى الآخرة هي العقائد والأخلاق. والتي لا غنى عنها في الدارين. كما أن العلم هو من أجل العمل لأنه علم بلا عمل لا فائدة منه وهو حجة على صاحبه حتى الأصول النظرية هي أيضاً للعمل فكم من عالم بالتوحيد مثلاً وهو غير موحّد وكم من عالم أخلاق وهو غير متخلّق وكم من عالم شريعة وهو غير ملتزم.

العلم الحقيقي هو الذي يُحدث في النفس أثراً ويظهر في السلوك والأفعال. فالعلم موجود أينما كان على صفحات الكتب وفي قلوب العلماء وعلى ألسنة المنافقين وعلى أشرطة التسجيل المختلفة والاسطوانات. . . إلخ.

ليس هذا المهم كأن يكدّس الإنسان الكتب في منزله لكي يصبح عالماً، فهذا علم مطبوع على صفحات الكتب فهذا لا يكفي ولا يفيد الإنسان شيئاً، المهم هو أن تصبح ذات الإنسان عالمة تتصف بصفة العمل أما حيازة الكتب وحفظ النصوص كآلة التسجيل فإن ذلك مصيره النسيان. ولكن العلم الحقيقي هو ما رسخ في النفوس ونُقش على صفحات القلوب.

العلم المطبوع على الورق يزول بالموت لأن الإنسان يغادر مكتبته وكل ما يملك. أما العلم الراسخ في النفوس لا يزول أبداً لأنه صفة من صفات النفس وهو رأس مالها ونورها وغناها وثوابها وجنتها في الآخرة وقربها من الله جل جلاله.

وهذا العلم لكي يحصل في النفس فإن ذلك يلزمه وقتٌ وتدبرٌ وتفهمٌ وتفكرٌ وتأدبٌ وعملٌ . . .

أما من تعلم العلم للسمعة والشهرة والاستكبار والمكر، فهذا ليس بعالم بل هو إنسان شيطان مسلح بسلاح العلم وهو أكثر ضرراً وخطراً من الجاهل. العلم يكون نوراً إذا طلبه الإنسان بإخلاص وصدق في النيّة والذي من نتائجه التواضع والعمل وفعل الخير والاصلاح في المجتمع. أما الإنسان المرائي والمنافق فلا ينال من ريائه إلاّ عكس ما يريد مهما حاول أن يصلح صورة أعماله ومظهره لنيل الشهرة والشرف والمنزلة بين الناس. لأن التصنّع والكذب والنفاق يظهر على صاحبه بوضوح.

قال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم: من أسرّ سريرة ردّأه الله رداءها إن خير فخير وإن شر فشرّ[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: إن السريرة إذا صحّت قويت العلانية[2].

إذاً العلم الحقيقي هو ما رسخ في النفس وظهر في الأفعال. أما الاهتمام بحفظنا القصص والروايات ومحاسن العبارات وقشور الكلمات والتجويد بصوت جميل وتحسين صورة العبادات منصرفاً عن الجوهر والمعنى المطلوب. فإن كل ذلك ظلام وحجاب غليظ وليس بعلم. أذكر بالمناسبة ما قاله الفيلسوف صدر الدين الشيرازي حول هذا الموضوع عن بعض أفاضل العلماء قال: إن نفوس الصلحاء والمطيعين وإن كانت صافية نقيّة عن كدورات المعاصي نقيّة عن ظلمات المكر والخديعة وغيرهما. لكنها ليست مما يتضح فيه جليّة الحق لأنها ليست تطلب الحق ولم تحاذي شطر المطلوب، وعدلت عن الطريق المؤدي إلى جانب الملكوت، وهو

---

(١) الكافي ج ـ ٢ ص ـ ٢٩٤.

(٢) الكافي ج ـ ٢ ـ ص ـ ٢٩٥.

صرف الفكر في المعارف الحقيقية والتأمل في الآيات الربوبية، وإدراك الحضرة الإلهية بصرف الهم إلى أعمال بدنية ونسك شرعية وأوراد وأذكار وضعيّة من غير تدبر وتأمل فيها وفي الغرض من وضعها، فلا ينكشف لهم إلاّ ما توجّهت إليه هممهم من تصحيح صورة الأعمال والطاعات، ودفع مفسدات النسك من القيام والصلوات وغيرهما إذا كانوا متفكرين فيها، وإذا كان تقيدهم بترجيح الطاعات وتفضيل حسنات الأعمال مانعاً عن انكشاف جلية الحقّ فما ظنك في صرف الهمة إلى شهوات الدنيا وعلائقها فكيف لا يمنع من الكشف الحقيقي[1].

عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: ألا لا خير في علم ليس فيه تفهّم. ألا لا خير في قراءة ليس فيها تدبر ألا لا خير في عبادة ليس فيها تفكر. ألا لا خير في نسك لا ورع فيه[2].

أما بالنسبة للعلوم الطبيعية، كعلم الرياضيات والفلك والكيمياء والفيزياء والطب والجيولوجيا والبيلوجيا... إلخ.

كل هذه العلوم هي من وجهة نظر الإسلام تعتبر من الفضل. فهي مطلوبة ومفيدة للإنسان في حياته ولها قدر كبير. ولقد كان للمسلمين دور كبير في تطور هذه العلوم بل هم روادها، ولا أحد ينكر ذلك.

ولكن مع هذه الأهمية فإن الأولوية تبقى للعلوم الدينية والأصول العقائدية والأخلاق والفقه... وتعتبر هذه العلوم هي طريق السعادة إلى الآخرة. ولكن جميع العلوم سواء منها الطبيعية أو الدينية فإنها قد تكون مجاناً للإنسان إذا اشتغل واهتمّ بفرع من فروعها ثم غفل عن الباقي. فكماأن إصبع الإنسان إذا وضع أمام العين فإنه يحجب الرؤية عن العالم الكبير الشاسع. كذلك تماماً إذا اهتمّ الإنسان بأحد العلوم الجزئية وصرف الفكر عن الحقائق الأخرى وفقد الرؤية الشاملة للعالم. فمن الأفضل على

---

(١) الحكمة المتعالية ج ـ ٩ ـ ص ١٣٧.

(٢) الكافي ج ـ ١ ص ـ ٣٦.

الإنسان أن ينال قسطاً من سائر العلوم يكون بذلك مطلعاً على أصولها بشكل كلّي ثم يتفرّغ للأهم من العلوم. فذلك أفضل بكثير من الغوص في أحد الفروع وصرف طول العمر محتجباً به. وذلك كمثل إنسان يعلم خريطة كل العالم بقاراته وبحاره ودوله وحضاراته...

بينما إنسان آخر لا يعلم من العالم سوى خريطة قريته ولا يدري شيئاً ما وراءها من العالم. وهذا مثال الكلي والجزئي. طبعاً لا يمكن للإنسان بعمره القصير أن يكون حائزاً على جميع الكمالات ومكتسب لجميع العلوم لأن ذلك يلزمه مئات السنين. وكما نعلم قصر العمر واستحالة ذلك فمن الأنسب تعلم الواجب في العلوم، وهي التي ينال بها الإنسان سعادته في الآخرة. ثم يتخصص فيما بعد بما أحب من علوم طبيعية، ولقد ذمّ الفيلسوف صدر الدين الشيرازي، الفيلسوف ابن سينا لاشتغاله في علم الطب، فمن وجهة نظره أنه على الإنسان الإلهي والفيلسوف التفرغ للحكمة المتعالية وعدم الاشتغال بعلوم جزئية كطب الأبدان أو غير ذلك من علوم قد تحجبه عن المسائل المهمّة. ولكن إنسان فيلسوف وطبيب في آن واحد أعتقد لا بأس بذلك. قد يكون مذموماً إذا اشتغل ابن سينا بالطب على حساب الفلسفة أما إذا لم يكن ذلك فهو جائز ولا عيب فيه. ثم أنه لا يمكن لكافة بني البشر أن يكونوا متشابهين فيما بينهم في المطالب والمواهب والغايات والرغبات وأن يكونوا جميعاً فلاسفة فإن ذلك مستحيل وهو خلاف الحكمة. نجد مثلاً إنساناً يحب الطب وآخر يحب الفلك وآخر الكيمياء وآخر غير ذلك... ثم إن البشر تختلف مطالبهم أيضاً بحسب اختلاف أعمارهم فمطلب الولد غير مطلب الشاب المراهق ومطلب الشاب غير مطلب الكهل ومطلب الكهل غير مطلب الشيخ أو الهرم... إلخ.

فلذلك فإن توحيد البشر في الرغبات والمطالب والمواهب هو شيءٌ مستحيل وخلاف المصلحة وبه خراب الدنيا. جاء في أحد الأحاديث أنه ملعونٌ من ترك آخرته لدنياه وملعونٌ ملعونٌ من ترك دنياه لآخرته.

ثم أنه لا يعتقد أحد أن معرفة الله والخشوع له وعبادته منحصرة فقط في العلوم الدينية والفرائض العبادية من صلاة وصيام ودعاء وقراءة للقرآن. . . فالطبيعة هي أيضاً خلق الله ومعرفة ما فيها ودراسته تؤدي حتماً إلى الوصول إلى إدراك الله وعظمته ورؤية عجائب قدرته قال تعالى: **﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾**.

فالذي يرصد الفلك مثلاً بمرصده قد يشاهد من عظمة الله ويحصل في نفسه من الخشوع أكثر ممن هو قائم في صلاته أو ممن هو في قراءته. وكذلك الذي يدرس الطب والتشريح قد يرى من عظمة الله في خلق البدن أكثر من العابد. كذلك أيضاً من يدرس علم النبات أو علم النفس أو الكيمياء أو غير ذلك من علوم طبيعية.

إن الاقتصار على العبادة والمناسك الدينية وترديد الأدعية والصلوات بلا تفكر، قد يؤدي ذلك إلى البلادة والحماقة وتجميد الفكر والفطانة. ومما لا شك به هو أن الإسلام قد فضّل العلم على العبادة بأكثر من سبعين ألف ضعفٍ.

فالذين يتهمون الدين بأنه يقيد الفكر ويعرقله عن الانتاج والابداع فهؤلاء مخطئون تماماً. فلطالما شجع الإسلام ودعا إلى العلم والبحث في شتى الميادين ودليلاً على ذلك أذكر فقط آيتين من القرآن تبيّنان مدى اهتمامه وتشجيعه على ذلك. قال تعالى: **﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾**. والسير هو البحث والدراسة والتحليل لمعرفة كيفية ظهور الخلق وبدءه.

ولمعرفة بدء الخلق فإن ذلك لا يمكن بدون الخوض في العلوم الطبيعية من فيزياء وكيمياء وبيوكيمياء وجيولوجيا. . . إلخ.

وقال تعالى أيضاً في آية أخرى: **﴿يا معشر الانس والجن إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذوا إلا بسلطان﴾**

(يعني بعلم). فهذه الآية أيضاً كما نرى تفتح أبواب الفضاء والمساواة أمام بني البشر في غزو الفضاء والمغامرة والبحث بكل حريّة. إذاً فالدين لم يعرقل ولم يقيد بل يشجع العلم والبحث ويمدح أهله.

ـ قال النبي الأكرم ﷺ: «اطلبوا العلم ولو بالصين».

ـ وقال الإمام الصادق عليه السلام: «عالم ينتفع بعلمه أفضل من سبعين ألف عابد»[1].

ـ لمحة عن حصول العلم في النفس، وفضل التفكر:

إن غريزة حب الاستطلاع وطلب العلم والمعرفة تبدأ تتفتح في النفس شيئاً فشيئاً. فهي لا تستطيع أن تستوعب كل شيء دفعة واحدة، بل إن ذلك يلزمه وقتاً وعمراً كاملاً. وبل حتى الإنسان وهو في آخر أيام حياته لا يزال يتعلم ما يجهله. فيجب عدم الضغط على الأولاد لكي يتعلموا أو أجبارهم أو ضربهم لأنهم لا يستطيعون أو يقدرون على الحفظ أو الفهم. إن تحميل التلميذ ما لا طاقة له به هو ظُلمٌ له. فيجب أن يكون التعلم مصحوباً برغبة لديه لا بالإكراه. فالذي هو في مرحلة الادراك الحسي كيف يُطلب منه أن يُدرك المعقولات والأمور المعقدة، فللنفس مراحل زمنية تتفتح تدريجياً.

ولحصول العلم في النفس فهنالك وسائل وطُرق متعددة. منها طريق الصورة، ومنها طرق السمع ومنها القراءة ومنها الاتصال المباشر في العالم الخارجي. وأيها وسيلة اختار التلميذ ليس ذلك مهماً. المهم هو حصول العلم والمعارف في النفس. أما الاجبار بالقوة والضرب والتوبيخ فإن ذلك ظلمٌ له وهو لا يؤدي إلى نتيجة.

قال الإمام عليٌ عليه السلام يوماً ما لبعضِ الأولاد وهو يحادثهم: قولوا

---

(١) الكافي ج ـ ١ ـ ص ـ ٣١.

لمعلمكم يقول لك أمير المؤمنين إذا ضربتنا فوق ثلاث فإن أمير المؤمنين يقيم عليك الحدّ. فالعقوبة يجب أن تكون على المشاغبات والأخطاء الأخلاقية، لا لأن التلميذ لا يستطيع الحفظ أو الفهم. ثم لا يعتقد المعلمون أن التلاميذ الذين يحفظون جيداً وينجحون في الامتحانات هم أفضل من الآخرين الذين يرسبون ولا ينجحون. فكثيراً من الذين ينجحون إنما ذلك بسبب حسن الذاكرة لديهم كآلة التسجيل، لا لحسن المفكرة والذكاء. فالناس منهم من يعلم ومنهم من يفكر. وأعتقد أن الذي يفكر هو أفضل بكثير من الذي يعلم ولا يفكر كطير الببغاء. فيجب أن توضع العلامات في تقييم التلميذ ودرجته على المفكرة لا على الذاكرة. ولقد أثبتت التجارب أن كثيراً من الذين كانوا ينجحون في المدارس كان مستقبلهم الفشل في الحياة. كما أن كثيراً من الذين كانوا يرسبون كان مستقبلهم عامراً بالنجاح الباهر في الحياة وكمثلٍ على ذلك:

أديسون المخترع الشهير الذي يفوق عدد اختراعاته الألف اختراع.

وجاليلي عالم الفلك الإيطالي الشهير.

وليوناردو دي فنشي المخترع والرسام وغيرهم كثير.

كل هؤلاء كانوا غير ناجحين في المدارس وكانوا بنظر معلميهم ممن لا خير فيهم. كذلك نبي الإسلام محمد ﷺ كان أمياً ولم يتعلم عند أحد قطّ. بل وصل إلى درجات عالية قبل النبوة بواسطة التفكر والتأمل. وكذلك أيضاً كثير من الفلاسفة.

فيجب تنمية المفكرة لدى التلميذ الصغير كما لدى الكبير. والتفكر هو رياضة عقلية.

ـ جاء في أحد الأحاديث: إن أكيس الصبيان أشدهم بغضاً للكتاب[1].

---

(١) الكافي ج ـ ٦ ـ ص ـ ٥٢.

فالعلم يجب أن يكون مصحوباً بالتفكر، حيوياً لا أن يوضع بالرأس كمكعب هندسي حادّ الزوايا متحجّر. بل كشكل كرويّ حيويّ الحركة. لا أقصد من هذا أن لا تكون المعالم واضحة، بل المقصود أن لا توضع في الرأس نتائج علمية قاطعة دون أن يعلم متعلمها كيفية استخراجها واستنباطها وفهم ما يحيط بها من نقائض.

هذه بعض الأحاديث في فضيلة التفكر.

ـ روي أن رجلاً سأل أم أويس من أين لابنك هذه الحالة العظيمة التي قد مدحه النبي ﷺ بها مدحاً لم يمدح به أحداً من أصحابه. هذا ولم يره النبي ﷺ فقالت: إنه من حيث بلغ اعتزلنا وكان يأخذ في الفكر والاعتبار[1].

ـ وجاء عن علي عليه السلام في نهج البلاغة وفي أماكن متعددة أنه قال: ولا علم كالتفكر ـ الفكر مرآة صافية ـ ومن تفكر أبصر ـ الفكرة تورث نوراً.

وفي الختام أقول إنك لا تهدي من أحببت إن الله يهدي من يشاء. فالنور الذي يضيء القلب هو قبل كل شيء نور إلهي. يعطيه من يريد هدايته وتعليمه كلٌ على حسب استعداده وطلبه لذلك. فلا أحد يعتقد أنه باستطاعته هداية أو تعليم إنسان آخر مهما صبّ على رأسه المواعظ والحِكم وكلام الأنبياء ليل نهار. فلا يقدر على ذلك. لماذا؟ لأن نفس وروح ذلك الإنسان ليست في حالة من الاستعداد. كالذي يريد أن يزرع في الأرض السبخة.

فالذي يريد أن يتعلم يجب أن يكون أولاً العلم مراده وطلبه وأن يستعين بالله على ذلك وأن يكون له من نفسه واعظ ومعلم ومؤدب. وأن يمارس سلسلة من الآداب كالصيام والقيام والصمت والعزلة والتفكر...

---

(١) إرشاد القلوب ـ ص ـ ١٠٠.

عندها فقط النور سوف يضيء قلبه. فالنور ليس مصدره أفقياً من البشر بل عموديّا من رب العزّة العالم المعلّم الهادي.

ـ قال الإمام موسى الكاظم عليه السلام لهشام في حديث العقل: إن الله جلّ وعزّ حكى عن قوم صالحين أنهم قالوا: ﴿**ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب**﴾. صدق الله العظيم. حين علموا أن القلوب تزيغ وتعود إلى عماها ورداها. إنه لم يخف الله من لم يعقل عن الله ومن لم يعقل عن الله لم يعقد قلبه على معرفة ثابتة يبصرها ويجد حقيقتها في قلبه[1].

(١) تحف العقول صفحة ـ ٢٨٦.

ـ نشوء الكون ـ

اعلم أنه في البدء كان الله وحده. قبل كل شيء كان قبل المكان والزمان وقبل المادة والمجرد. هو الأزل فلا شيء قبله سبق الوجود والعدم. ثم خلق وأحدث ما أراد. بل تفكر وبلا رويّة وبلا تجربة وبلا تعلّم. إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون. فخلق بذلك الوجود وأخرجه من العدم إلى الوجود.

ثم اعلم أنه هنالك في عالم الكون الموضوعي ثلاثة أشياء رئيسيّة:

أولاً: المكان وهو الفضاء.

ثانياً: المادة المنتشرة داخل المكان. وهي المجرات والنجوم والكواكب فالمكان هو أوسع وأكبر من المادة لأنه هو الحاوي لها.

ثالثاً: الزمان وهو حركة المادة داخل المكان وهي دوران وسير المجرات والنجوم والكواكب داخل الفضاء.

وقبل أن أشرح هذه الأمور الثلاثة الرئيسية في الكون يجب أن نعترف بأننا عاجزون عن معرفة ما إذا كان هنالك في عالم الوجود مظاهر أخرى غير المادة والمجرد أم أن العالم هو فقط مادي ومجرد. فجميع ما لدينا من أخبار تشير إلى أن الأشياء هي فقط إما مادية وإما مجردة. ولكن

الشيء الذي يهمنا هنا في هذا البحث هو المادة والمجرد. واقصد هنا بالمجرد هو الزمان والفضاء والرياضيات والفيزياء... وليس المجرد المدرك كالأرواح والنفوس والعقول والملائكة... وغير ذلك. فليس هنا موضع الحديث عنها.

وأبدأ أولاً في المكان. يعتقد علماء الفلك أن الفضاء فراغ هائل لا نهاية له. والفضاء هو ما نراه عندما ننظر إلى السماء. هذه النافذة التي نرى منها جزءاً بسيطاً من الفضاء وهو ذلك السواد الدامس وهو الحاوي لكل المجرات والاجرام والنجوم والكواكب والشمس والقمر.

فإننا نجهل تماماً مدى ذلك الفراغ وما إذا كان له حدود وأبعاد. فعلماء الفلك يعتقدون بأنه ليس له حدود. ولكن من الناحية الفلسفية نقول لو كان له حدود فسنسأل ما خلف تلك الحدود وهكذا إلى ما لا نهاية لأنه لو كان للمكان حدود فنسأل ذلك المكان ذا الأبعاد المحدودة هو بنفسه بأي مكان وذلك المكان الحاوي للمكان هو أيضاً بأي مكان وهكذا فإن ذلك يجرنا إلى التسلسل إلى ما لا نهاية له في الصعود وأما في النزول فنفس الشيء إذا كان المكان يتجزأ في كل مرة إلى جزءين حتى نصل إلى متر مكعّب من ءالفضا ثم نستمر نزولاً إلى مالا نهاية في الصغر.

فهذا هو التسلسل فلو قسمنا المتر إلى ١٠٠ سنتم ثم السانتيمتر إلى ميليمتر ثم جزأنا الواحد ميليمتر إلى مليار جزء ثم ذلك الجزء إلى أقل من ذلك إلى ما لا نهاية فهو التسلسل. فهو وإن كان ممكناً من الناحية الفلسفية سواء الصعود نحو الأكبر أوالنزول نحو الأصغر إلى ما لا نهاية فهذا التسلسل والذي اعتقد بعدم صحته لأن ذلك يتناقض مع عقيدتنا حول حدوث الكون. تابع معي لأشرح ذلك لاحقاً.

أما نشوء المادة وانتشارها في ذلك المكان الهائل وهو الفضاء. يعتقد علماء الفلك أن جميع المادة المجرات والنجوم والكواكب والشمس والأرض والقمر وكل ما هو مادة كان مجمّعاً كله في كتلة صغيرة

جداً يعتقد العلماء أن حجمها كرأس الدبوس معلقة وسط الفضاء الفسيح. وذلك منذ (١٥) خمسة عشر مليار سنة. ثم حدث الانفجار الرهيب والأكبر في عالم الوجود وهو تلك الكتلة الصغيرة حيث تناثرت المادة في كل اتجاه في الفضاء بدءًا من تلك النقطة التي في وسط الكتلة والتي كانت درجة الحرارة في وسط ذلك الانفجار تقدّر بمليارات الدرجات الحرارية وأنه في تلك اللحظة الأولى بدأ عداد الزمن في تسجيل عمر الكون لأن الزمن إنما هو ناتج عن حركة المادة داخل الفضاء.

وأن ذلك التناثر في المادة لا زال يتابع مسيره عبر الفضاء بدءًا من النقطة الأولى المركزية لذلك الانفجار وإن المادة لا زالت تتباعد عن بعضها البعض في كل اتجاه. وأنه كلما انفلش الكون وكبر حجمه أكثر كلما تبرّدت المادة أكثر فأكثر، والعكس بالعكس. حتى بدأت تلك المادة المتناثرة تتجمّع مع بعضها البعض وتشكل كتلا وهذه الكتل هي الشموس (أي النجوم) والكواكب والأقمار وأنه كل هذه الأجسام والكتل كانت ملتهبة ومشعة كالشمس وراحت تتجمع في حلقات وتدور حول بعضها البعض بشكل زوابع مما أدى إلى نشوء المجرات.

ثم أن تلك الكتل راحت تتبرّد شيئاً فشيئاً. فأول ما تبرّدت هي الأجسام الأصغر حجماً وهي الأقمار ثم الكواكب فهي أكبر حجماً من الأقمار ولا زالت محتفظة بداخلها على الحرارة ولكن فقط قد تبرّدت قشرتها، كهذه الأرض التي نعيش عليها. أما الكتل الكبيرة كالشمس فبسبب عظيم حجمها فهي لا زالت محتفظة بكامل حرارتها تقريباً ولا زالت تشع الحرارة والضوء ثم أنه نحن نعيش الآن على نفس تلك المادة التي نتجت عن ذلك الانفجار الأول قبل (١٥) خمسة عشر مليار سنة. وكما يعتقد الماديون العلمانيون بأن الحياة وظهورها على الأرض إنما هو حصيلة ذلك التطوّر والسير للمادة وإن ذلك كله مجرد صدفة كما يعتقد أيضاً علماء الفلك أنه هنالك ظواهر متعددة.

فهناك المجرات وهناك الحفر السوداء وهنالك نجوم تموت ونجوم تتكون وانفجارات في بعض الشموس. وغير ذلك من اشكال وكما يؤكدون أن المجرات لا تزال في سيرها في كل الاتجاهات وأنها تتباعد عن بعضها البعض وأنها تسير في اتجاهات متعاكسة كشعاع الشمس. وأن ذلك التباعد والسير سيستمر إلى ما لا نهاية له عبر الفضاء بينما البعض يعتقد أن ذلك السير سيتوقف في مكانٍ ما ثم يبدأ في السير المعاكس إلى النقطة التي بدأ السير منها وهي مكان وسط الانفجار الأول.

وإن هذا السير إلى الوراء سيتراجع وتتضاعف الحرارة والكثافة كلما اقتربت المادة والمجرات والنجوم من بعضها البعض. لأنه كما نعلم كلما تمدد الكون كلما زادت برودته وكلما تقلص كلما زادت حرارته. لأن تلك الكتلة الغازية التي نتجت عن الانفجار راحت تتمدد في الفضاء فأول ما تكون من ذلك الكتلة الغازية والتي تبلغ درجة حرارتها مليارات الدرجات وأن المادة في تلك الكتلة تتطاير وتتصادم في كل اتجاه. وأن اللون لتلك الكتلة كان بنفسجياً ثم مع مرور ملايين السنين راح يتبدّل إلى لون أصفر ثم برتقالي ثم أحمر. وإن المادة ظهرت على شكل ذرات ثم الذرات شكّلت زوابع ثم النجوم والكواكب ثم الكل شكلت المجرات. ويعتقدون أيضاً أن المجرات نفسها تدخل في تكوين نظام أكبر من ذلك وهنا نصل إلى مشكة فلسفية وعقائدية لا بدمن حلّها.

قلت سابقاً بأن العلماء يعتقدون أن الفضاء (أي المكان) بلا نهاية وليس له حد لا في الكبر ولا في الصغر وهذا صحيح أيضاً من الناحية الفلسفية. وكذلك بالنسبة للزمان إذا كان الزمان هو ناتج عن حركة الكواكب والمادة داخل المكان فقبل بدء حركة المادة ينطرح سؤال وهو هل كان للزمان حقيقة قبل حركة الكواكب بدءًا من الانفجار الأول. فلو قيل أنه كان قبل الحركة للكواكب زمان إلى ما لا نهاية لا في البدء ولا في الآخرة فإن ذلك كالمكان يقودنا إلى التسلسل ولأصبح المكان والزمان

أزليين والأزل يتناقض مع الحدوث. فلا بد في نظرنا من بداية للزمان والمكان فكما بالنسبة لله (ج) رفضنا فكرة تسلسل العلل والمعاليل إلى ما لا نهاية له وتوقفنا عند الله (ج) الغني المطلق فلا علة له ولا خالق. فكذلك بالنسبة للمكان والزمان والمادة. فالله سبحانه وتعالى هو كان قبل الزمان بلا زمان وقبل المكان بلا مكان وقبل المادة بلا مادة. فهو الأزل وهو الأول ثم أحدث المكان والزمان والمادة وخلقهم. ولقد حاول كثير من الفلاسفة الدفاع عن الجزء الذي يتجزأ، فهو من الناحية الفلسفية صحيح أن الجزء دائماً قابل لأن يصبح جزأين وأن الجزء من الزمن كذلك وكذلك أيضاً بالنسبة للمكان. ولكن ذلك يقودنا إلى التسلسل إذاً فلا بد من جعل حدود للمكان والزمان والمادة لكي نثبت حدوثهم فلا يصح أن يكون قبل خلق وحدوث الزمان زمان. وما إذا كان المكان مستوعب بمكان أكبر منه. وما إذا كانت المادة مخلوقة من مادة. لأن ذلك يتناقض مع أزلية الله (ج) أول قبل الأشياء وأنه هو الواجب وهو المُحدث والمفيض لعالم الوجود بكافة أبعاده.

ثم إن الزمان إذا كان ينقسم دائماً إلى قسمين وذلك إلى ما لا نهاية فإن أي جزءٍ كان من الزمن مهما كان قصيراً فهو يعتبر كبيراً بالنسبة لما أصغر منه إلى ما لا نهاية. وكذلك الجزء من المادة فهو دائماً كبير لما هو أصغر منه وكذلك المسافة للمكان. ومن جهة ثانية فإن الجسم المادي متحد مع المسافة لأنه لأي جسمٍ كان أبعاد رياضية وهي الطول والعرض والعمق. فكلما فقد الجسم جزءاً فقد أيضاً كذلك من أبعاده الرياضية. واقصد بذلك المكان هو التابع لذلك الجسم وليس النقص من المكان المستوعب لذلك الجسم. فالمكان المستوعب يبقى كما هو عليه ولا ينقص منه شيئاً. وأما الجزء الذي انفصل عن الجسم لا زال بدوره يحتفظ بتلك الأبعاد. ولكنه فقد أصبح في مكانٍ آخر. وهذا ما يدل على أنه للمادة داخل المكان نسبة مئوية ثابتة لا تتبدل ولا تنقص ولا تزيد فمهما حاولنا نفش المادة أو كبسها على بعضها البعض فهي دائماً تحتل نفس

الكميّة من المكان. فمهما ظهر لنا من إمكانية تمديد وتقليص كميّة معينة من المادة وإن ذلك يؤدي إلى زيادة الأبعاد الرياضية لذلك الجسم. فإن ذلك غير صحيح. وذلك لأن الذرات فقط هي التي تباعدت عن بعضها البعض بالحرارة وتقلصت بالبرودة ففي كلا الحالتين تبقى دائماً على حجمها الأساسي وكذلك الكهارب التي تدور حولها. وإن وسّعت الكهارب من مدارها حول النواة الذريّة. نتيجة الحرارة فهو لا زال يحتفظ بحجمه السابق. إذا فشدة الكثافة أو ضعفها للأجسام على حدٍ سواء في كلا الحالتين الوزن واحد لا يتبدّل. والمكان الذي تحتله المادة داخل المكان لا يتبدّل. وإن ظهر لنا أن الأبعاد الرياضية للجسم قد كبرت أو صغرت. فإن ذلك فقط مقارنة بعالمنا هذا ومقاييسنا وحجمنا..

أما على المقياس الذرّي فكل شيء على حد سواء فالفارق الوحيد هو أن الذرات فقط قد تباعدت عن بعضها البعض أو اقتربت. فالمكان والمادة يبقى كل منهم على حاله. ويمكن لنا أن نشبّه ذلك بالجيش فإن انتشار الجيش على رقعة كبيرة أو تجمعه في مكان صغير على نفس تلك الرقعة الكبيرة. الفارق الوحيد هو تباعد أو اقتراب العناصر عن بعضها البعض فلا المكان يتبدل ولا المادة في ذلك المكان (يعني الجنود) تتبدّل في حجمها وإن زادت أو نقصت الأبعاد الرياضية لرقعة الانتشار داخل تلك الرقعة الكبيرة.

ـ أما بالنسبة لتطوّر الكون منذ بدء الانفجار في حركته عبر مليارات السنين حتى أصبح في هذه الصورة وظهور الحياة على كواكبه. فإن المادية العلمانية ترجع ذلك إلى الصدفة فقط.

أما بالنسبة للنظرة الدينية فهي لا تعتبر ذلك صدفة. بل تعتبره تدبيرا إلهيا محكما. وإن هذه الحركة للكون منذ (١٥) خمسة عشر مليار سنة وبدءًا من تلك الكتلة الصغيرة ثم الانفجار وصولاً إلى ما هو عليه اليوم. فإن هذه الحركة له عبر الزمان تُعتبر خروجه من القوّة إلى الفعل وهنا

ينطرح سؤال ما إذا كانت الحياة موجودة على كواكب أخرى في الكون أم لا؟ وإلاّ فما الحكمة من خلق هذا الكون العملاق والذي يقدّر العلماء أن عدد كواكبه ونجومه أكثر من عدد جميع رمال الصحاري على وجه الأرض. فكان يكفي لنا مثلاً كوكب واحد وشمس واحدة وقمر واحد أو أكثر من ذلك بقليل. فما هي الحاجة إلى كل تلك الأجرام؟ أم أن الحياة ظاهرة كونية شاملة منتشرة في أنحاء الكون؟.

علماء الفلك يعتقدون أن نسبة إمكانية وجود الحياة على كواكب أخرى نسبة عالية جداً. وأعطي هنا بعض الأرقام والتي تبيّن حجم الكون وعظيم أبعاده.

اعلم أن عدد المجرات في الفضاء حسب تقدير علماء الفلك يصل إلى (٥٠٠) خمس مئة مليون مجرّة، وأن المجرّة التي نحن تابعون لها وندور في فلكها يقدّر العلماء عدد نجومها (أي شموسها) بحوالي (٢٠٠) مئتين مليار شمس. كشمسنا هذه تقريباً. وأنه حول كل شمس يدور كواكب كأرضنا هذه التي نعيش عليها. وحول كل كوكب أقمار. كقمرنا هذا تقريباً. إن نسبة وجود وتحقق الحياة في باقي الكواكب تساوي (٢٠٠) مليار إمكانية فقط في مجرتنا هذه والتي يسميها العلماء بمجرّة (درب التبانة) ما عدا الباقين. إذاً الاحتمال الاجمالي في إمكانية وجود كائنات حيّة في الفضاء تساوي (٢٠٠ مليار× ٥٠٠ مليون).

ـ تعريف ببعض الحقائق الموضوعية في الفضاء وبعض الأرقام.

ـ **مجرّة درب التبّانة**: وهو اسم يطلقه علماء الفلك على المجرّة التي ننتمي إليها وندور في فلكها. تشكل المجرّة زوبعة من النجوم تدور حول بعضها البعض تماماً كما يدور الحجاج حول الكعبة وهي دائرية الشكل ولكنها رقيقة في السماكة ويقدر العلماء عدد نجومها أي الشموس التي تكونها بـ (٢٠٠) مليار شمس. كما يبلغ قطرها (١٠٠,٠٠٠) بمئة ألف سنة ضوئية. كما أن نقطة وسطها المركزية مزدحمة بالنجوم أو بجسم

عملاق يقدر وزنه بخمسة ملايين مرّة حجم الشمس.

ـ **النجوم**: يقصد علماء الفلك بكلمة نجم (أي شمس) وذلك لأنه جسم متسع بالحرارة والضوء كما يوجد أحجام مختلفة من النجوم مثلاً أكبر نجمة معروفة لحد الآن يبلغ قطرها (١٥٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) خمسة عشر ألف مليون كيلومتراً. وأصغر نجمة معروفة لحد الآن يبلغ قطرها حوالي (٢٠) عشرين كيلومتراً أو أقل من ذلك. كما تقع أقرب نجمة منا على بعد (٤,٢٢) أربعة سنوات وشهرين ونصف تقريباً سنة ضوئية.

أما أبعد نجمة منا تُرى بالعين المجردة تقع على بعد (١٥٠٠) ألف وخمس مئة سنة ضوئية. كما تتراوح أعمار النجوم ما بين بضعة مليون سنة إلى عشرة مليار سنة. ولقد تم لحد الآن تسجيل (١٧٠٠٠٠٠٠٠) سبعة عشر مليون نجمة. عدد النجوم التي تُرى بالعين المجردة يصل إلى (٦٠٠٠) ستة آلاف نجمة.

كما أنه بعض الشموس أحياناً تنفجر مما ينبعث من ذلك الانفجار ما يساوي عدة مئات من الملايين مرة كشعاع الشمس. أما درجات الحرازة. فهو بحسب لون النجم. الأحمر (٢٠٠٠) درجة مئوية تقريباً. ثم النجم البرتقالي ثم الأصفر ثم الأبيض ثم الأزرق وهو أشدها حرارة تصل إلى (٧٠٠٠٠) سبعين ألف درجة مئوية.

ـ **السنة الضوئية**: وهو مقياس لقياس المسافات في الفضاء. تبلغ سرعة الضوء في الثانية (٣٠٠,٠٠٠) ثلاث مئة ألف كيلو متراً في الثانية. فالمسافة مثلاً بين القمر والأرض ثانية واحدة ضوئية. والمسافة بيننا وبين أقرب نجمة منا (٤,٢٢) سنة ضوئية. أما أقرب مجرّة من مجرتنا تقع على بعد (١٧٠,٠٠٠) مئة وسبعين ألف سنة ضوئية. وبالرغم من هذه السرعة الكبيرة للضوء. فإنها تعتبر بطيئة جداً بالنسبة للمسافات الهائلة في الفضاء.

ـ **أما الكوكب**: فهو جسم شبه بارد نسبياً وهو يدور حول النجوم.

أما حجمه فهو أصغر من النجوم التي يدور حولها بكثير. مثلاً الأرض كوكب يدورحول الشمس ويوجد أيضاً ثمانية كواكب آخرين يدورون حول الشمس كالمريخ وعطارد وزحل والزهرة... إلخ وهذه الكواكب قد فقدت حرارتها عبر السنين. ولا تزال تحتفظ ببعض الحرارة في الجوف. وذلك كما نرى الأرض فهي باردة نسبياً ولهذا نستطيع أن نعيش على قشرتها الباردة أما داخلها فهو حار ملتهب والبراكين تمثل فوهات لإزالة الحرارة. فالضغط يخرج من تلك الفوهات.

ـ **الأقمار**: الأقمار بشكل عام أجسام أصغر من الكواكب يتراوح قطرها بضعة آلاف من الكيلومترات. وهي دائماً تدور حول الكواكب. فهي باردة بشكل عام نهائياً.

ـ **النيازك**: وهي الشُهب التي نراها ليلاً تمرّ بسرعة خاطفة وذلك عندما تدخل في الغلاف الجوي للكرة الأرضية يؤدي إلى احتراق النيزك وتفتته نهائياً وذلك قبل وصوله إلى الأرض. فالنيازك هي صخور وأجسام متطايرة في الفضاء بكل اتجاه. كما تتراوح سرعة الواحد منها ما بين (١١ إلى ٧٢) كلم في الثانية.

أما أحجامها فمنها صغير ومنها عدة أطنان ومنها أكبر من ذلك بكثير ومنها ما يزيد على واحد كيلو متراً في القطر ويوجد أيضاً أكبر من ذلك. ولكن تلك الكبيرة لا تصيب الأرض إلا في مسافات متباعدة من الزمن. مثلاً: الصغير منها يتساقط يومياً على الأرض ولكنها سرعان ما تتفتت.

وأما بقطر واحد متر فيسقط منه بضعة عشرات في السنة.

أما بقطر (١٠) أمتار فيسقط واحد كل سنة.

وأما بقطر (١٠٠) متر واحد كل ما بين (١٠٠ إلى ١٠٠٠٠) سنة.

أما بقطر (١٠٠ إلى ١٠٠٠) متر واحد كل ما بين (١٠,٠٠٠ إلى ١٠٠,٠٠٠) سنة.

يمكن أن يدمّر قارّة. وواحد بقطر عدة كيلومترات، واحد كل مليون سنة ويمكن أن يقضي على الحياة.

نيزك بقطر (١) كليومتراً يحفر حفرة بقطر (٢٢) كيلومتراً. كما أنتاريخ الأرض يشهد بهذه الأحداث فأكبر حفرة موجودة على الأرض هي في ناميبيا ويوجد في كثيرٍ من الدول آثار لذلك. وأنها قد سقطت تلك النيازك منذ آلاف السنين.

وفي الولايات المتحدة الأمريكية يوجد حفرة لأحد النيازك قطرها (١٢٠٠) متراً وبعمق بضعة مئات من الكيلومترات. يعتقد الخبراء أن الجسم الذي أحدث تلك الحفرة لا يتجاوز وزنه (٤) أربعة أطنان فقط. وكذلك وقع حادث في روسيا في سيبريا في ٣٠ ـ ٦ ـ ١٩٠٨ الساعة السابعة والربع. مما أدى إلى حرف غابة بقطر عشرين كلم واقتلع الأشجار بقطر (٢٠٠) كيلومتراً كما سمع صوت الانفجار على بعد (١٥٠٠) كيلومتراً وذلك الانفجار حدث في الجو على ارتفاع حوالي ما بين (٦ إلى ٩) كلم. وإن ذلك الجسم كان بقطر (٣٠) متراً تقريباً. ووزنه (١٠٠٠) طن تقريباً. القوة التي تحررت منه تساوي (١٠٠٠) قنبلة كالتي سقطت على مدينة هيروشيما. كما احترقت ملابس المشاهدين على بعد (٦٠) كلم من قوة الشعاع والحرارة.

ـ الحفرة السوداء:

حالة من حالات تطوّر النجم. وزن الحفرة السوداء أثقل بثلاث مرات من النجم. خضعت لانخساف على بعضها البعض. وهو ما يشبه عكس الانفجار. بينما الانفجار ينفجر من الداخل إلى الخارج حيث يقذف بكل مواده نحو الخارج. الحفر السوداء بعكس ذلك يحدث نحو الداخل

مما يؤدي إلى خلق جسم كثيف جداً في وزنه وهي ذات جاذبية هائلة حتى تمنع نورها من الاشعاع مما يجعلها سوداء اللون. بل هي حتى تشبه البالوعة تجذب وتمتص كل الأجسام التي بجوارها. وفي سنة ١٩٩٠ تم اكتشاف حفرة سوداء على بعد (٣٠٠) مليون سنة ضوئية في إحدى المجرات يبلغ حجمها ما بين (٤٠ إلى ٢٠٠) مليار مرّة حجم الشمس.

هذه هي بعض أهم الظواهر التي توجد في الفضاء. ويوجد أيضاً ظواهر أخرى غير ذلك متعددة.

كما أنه ومع التقدم المادي الكبير في عصرنا هذا ومع توفّر المراصد العملاقة المتطوّرة والتي ترصد الفضاء وآفاقه البعيدة لا زال الإنسان يجهل حدود الفضاء التي تنتشر بها المجرات والأجرام. فلا زال أينما ولّى بأي اتجاه لا يرى سوى المجرات في الآفاق ولا زال بصرنا كبصر النملة بالنسبة لهذا العالم.

فإن ما نشاهده اليوم من ظواهر ويلتقطه الإنسان من صور عن الفضاء والمجرات البعيدة. ما هي إلا صورٌ لحقائق عمرها ملايين ومليارات السنين لأن الشعاع والصورة التي نراها اليوم وفي اللحظة هذا النور الذي تتكون منه الصورة قد انطلق من تلك الأجسام منذ مليارات السنين وقد وصل إلينا بعد قطع كل تلك المسافات الهائلة بسرعة الضوء. وذلك لأن النور هو عبارة عن أمواج وهو مكون من أجسام صغيرة جداً تسمى (فوتون) والفوتون منبعه الذرات التي تكوّن تلك الأجسام إذاً الفوتون وأمواجه يلزمه مليارات السنين لكي يصل إلينا وحتى يدخل بعد ذلك في العين ثم على الشبكة للعين ثم عبر الشرايين العصبية الدقيقة ثم إلى الخلايا العصبية للدماغ ثم تحويل ذلك إلى صورة مُدركة معقولة لدى الروح الإنسانية فعندها نعلم ونرى تلك الأجسام وكل هذه العملية التي تحصل في الجهاز العصبي وهو الدماغ لا زال الإنسان يجهل ذلك تماماً

ولا يدري كيف يحدث كل ذلك. صحيح أن الفضاء هائل والمجرات عملاقة والمسافات والاجرام عظيمة جداً.

ولكن الشيء الأعظم منها والأكثر تعقيداً هو هذا الدماغ الذي لا يتعدى حجمه (١٤٠٠) سنتم[٣]. فهو المدرك لها وليس هي المدركة له.. وهو المكلَّف وليست هي. وهي آية الآفاق وهو آية الأنفس. وهو المدرك لعظمة الخالق. وهو المفكر. فهو زينة السماوات والأرض والله(ج) زينة العقول.

ـ البحر المسجور ـ

لقد سمعت مراراً عن هذا الموضوع واختلاف الروايات حوله. وهنا أحب أن أذكر ما أثبته العلم الحديث حول هذا الموضوع. يعتقد علماء الجيولوجيا والفيزياء أن الكرة الأرضية التي نعيش عليها تتكون من طبقات جوفية، بحيث كلما حفرنا نزولاً كلما اشتدت درجة الحرارة حتى نصل إلى البحر المسجور المنصهر وهو عبارة عن صخور ومعادن ومواد كيميائية سائلة في باطن الأرض لشدة الحرارة التي تصل إلى بضعة آلاف درجة مئوية. والقشرة الباردة التي نعيش عليها تعوم على ذلك البحر الذائب فهي قشرة رقيقة مقارنةً بقطر الكرة الأرضية فالقشرة يبلغ سماكتها بشكل متوسط (٣٠) ثلاثين كلم. و (٧٠) سبعين تحت القارات. و (١٠) عشرة كلم تحت المحيطات. بينما تشكل الجبال أوتاداً تنغزر كالمسامير في البحر المسجور وهذا ما ذكره القرآن بدقة.

فالأرض يمكن أن نشبهها بثمرة البطيخ. فلو قطعنا بطيخة إلى نصفين فكل ما لونه أحمر فهو يمثل البحر المسجور أما القشرة الخضراء فهي تمثل القشرة الأرضية اليابسة. فنسبة القشرة إلى البحر المسجور كنسبة قشرة البيضة إلى البيضة. فكما نرى رقيقة جداً.

أما البراكين فهي تمثل صمامات أمان لإزالة الحرارة والضغط من

جوف الأرض فالبحر المسجور يتنفس من خلالها. فلولا هذه البراكين فإن تراكم وارتفاع الحرارة والضغط في باطن الأرض قد يؤدي إلى انفجار تنشطر بفعله الكرة الأرضية وتتطاير كشظايا في الفضاء. فجميع الكواكب كانت يوماً ما بحاراً مسجورة.

فالقمر مثلاً وبسبب صغر حجمه قد تبرد نهائياً بينما الأرض فهي أكبر منه فلا تزال تحتفظ بجوفها بالحرارة بينما تبردت قشرتها الخارجية.

أما الشمس فهي لا تزال محتفظة بكامل حرارتها تقريباً بسبب عظيم حجمها. أعطي مثالاً على ذلك: لو أخذنا مثلاً ثلاث كتل حديدية صغيرة ومتوسطة وكبيرة ثم أحميناهم جميعاً إلى درجة الاحمرار ثم تركناهم يتبردوا فماذا نلاحظ؟ نلاحظ أن الكتلة الصغيرة تفقد حرارتها أولاً ثم المتوسطة ثم الكبيرة وهكذا تماماً القمر والأرض والشمس، الفارق هو أن هؤلاء يلزم تبردهم مليارات السنين بدلاً من دقائق. والبحار المسجورة بعد تبردها تعود صخوراً وتراباً ومعادن.. كالقشرة الأرضية تماماً. فالمادة تتمدد بالحرارة وتتقلص بالبرودة.

كما أن الخفيف يعوم على الكثيف. فأخف شيء في الكرة الأرضية هو الغلاف الجوي المحيط بها. ثم البحار والمحيطات فهي تعوم على القشرة. ثم القشرة تعوم على البحر المسجور والبحر المسجور يعوم على نواة الكرة الأرضية الأشد كثافة من الجميع. وهذا ما تؤكده قوانين الفيزياء.

ـ المادة ـ

اعلم أن المادة المنتشرة في الفضاء هي واحدة في جميع المجرات والنجوم والكواكب والبحار والهواء والتراب والنار والنبات والحيوان والإنسان كل هذه الأشياء مركبة من المادة وهي العناصر الذريّة. والتي تشكل المواد الأساسية لبناء الكون وكل ما يحويه من أشكال ومظاهر مختلفة. والذرات هي بدورها مخلوقة ومركّبة من مواد أخرى وهي مواد هيولانية والتي هي بحسب اعتقادي المادة الأساسية لأنه ليس لها شكل محدد.

أما الذرات فهي لها أشكال محدّدة ولها نظام فيزيائي ولها صور وأبعاد. إذاً فهي مركّبة من مواد أساسية غير مركبة وغير مصورة وغير محددة وهي المواد الهيولانية. ولكن لحد الآن تعتبر الذرة هي أصغر الأشياء التي اكتشفها الإنسان. وهي كما ذكرت مواد البناء لكافة المخلوقات المادية. ولقد تم اكتشاف (١٠٣) مئة وثلاث أنواع من العناصر الذرية لحد الآن.

ووضع لها جدول ينظمها بالتدريج بحسب الوزن وبحسب النوع والشكل والاسم. وبدءاً بأصغرها حجماً وهي ذرّة الهيدروجين ثم الهليوم مروراً بذرة الكربون ثم الآزوت ثم الأوكسجين مروراً بذرة الحديد. فالذهب. فالراديوم. فالأرانيوم. وانتهاء بذرّة اللورانسيوم وهي الأثقل

وزناً في الجدول الذرّي. فكل هذه الذرات هي صغيرة جداً ولا يمكن رؤيتها بالعين المجردة. بل يجب لذلك استخدام المجهر الالكتروني والذي بامكانه أن يكبّر الصورة عشرات الآلاف من المرات.

أعطي مثالاً على ذلك لو أخذنا شعرة من رأس إنسان. فلكي نستطيع رؤية الذرات بالعين المجردة. يجب أن يكون قطر الشعرة وليس طولها. حوالي (١٠) عشرة كيلومترات تقريباً. فمسافة (١) واحد ملم تستوعب حوالي (١٠) مليون ذرّة. مصفوفة خلف بعضها البعض على شكل طابور. فهذه الأرقام توضح لنا وتعطينا فكرة عن صغر حجم الذرات.

ـ نظام الذرة:

اعلم أن الذرة هي ليست فقط كتلة كروية الشكل فحسب. بل هي نظام فيزيائي معقّد. تتكون الذرة من عدة أشياء رئيسية.

أولاً: النواة وهي الكتلة المركزية وهي مشحونة بطاقة ايجابية (+).

ثم العنصر الثاني والمهم في الذرة وهو الكهرب وهو أيضاً كتلة كروية الشكل كالنواة ولكنه أصغر من النواة في الحجم وهو مشحون بطاقة سالبة (-) وهو يدور دائماً حول النواة وفي فلكها على مسافة من النواة وتبلغ سرعة دورانه حول النواة (٦٠٠) ستمائة كيلومتراً في الثانية.

كما أنه يبلغ قطر مداره حول النواة (١٠,٠٠٠) عشر آلاف مرّة قطر النواة نفسها. فنظام الذرة هو تماماً كنظام الكواكب حيث إن الأرض تدور حول الشمس. أو كالقمر وهو يدور حول الأرض.

فالأرض تمثل النواة والقمر يمثل الكهرب. ويوجد مسافة فارغة وكبيرة بين الاثنين إذاً فكلمة ذرّة يُقصد منها النظام كله النواة والكهرب معاً.

والقسم الأكبر من الذرة هو فراغ. وأي قطعة من المادة في العالم

فهي مكونة بقسمها الأكبر من فراغ. هذه هي أهم عناصر الذرّة بشكل مختصر.

يوجد في الطبيعة أشكال متعددة: الجامد والسائل والغازي. وكلها سواء مكونة من ذرات فالمادة تتبدّل حالاتها بحسب درجة الحرارة مثلاً الثلج جامد تحت الصفر. فيصبح سائلا إذا أصبح فوق الصفر. ويتبخر ويصبح غازيا فوق المئة درجة. وكذلك العكس بالعكس البخار الغازي يرجع ماء والماء يرجع ثلجاً.

فالمادة لا تفقد شيئاً من ذراتها الفارق هو فقط أن المادة لها أشكال متعددة وكذلك الحديد والخشب... وغير ذلك فلكل مادة معينة درجة حرارة معينة تبدل صورتها.

أما الفرق بين المادة الجامدة والسائلة هو فقط المسافة بين الذرات. فلو أخذنا قطعة معدنية وأحميناها بالنار فإن حجمها يكبر لأنها تتمدد بالحرارة حتى تصبح سائلا وبعد ذلك غازاً. والغاز هو انفصال الذرات عن بعضها البعض وانتشارها في كل اتجاه لأن الذرات قليلة الحركة عندما تكون درجة الحرارة منخفضة.

فمع ارتفاع درجة الحرارة تبدأ الذرات بالاضطراب والهيجان والحركة حتى تصل الحرارة في الارتفاع إلى درجة تنفصل الذرّات عن بعضها البعض وتتناثر في كل اتجاه وتصبح غازاً كالهواء.

ثم لو أخذنا الغاز وعرّضناه بدوره إلى درجة حرارية عالية جداً حوالي (١٠,٠٠٠) عشرة آلاف درجة مئوية هنا يحدث مظهر جديد للمادة غير الجامد والسائل والغازي. وهي ما تسمى (بلاسما) وذلك لأن الذرّات نفسها تنفصل كهاربها عن نواتها وتصبح الكتل الكروية الشكل للنوايا والكهارب تتطاير وتتصادم في كل اتجاه.

إذا فالمادة تتمدد وتنقص كثافتها بالحرارة وتتقلص وتزيد كثافتها

بالبرودة. ما عدا الماء فهو عندما يتبرّد ويصبح ثلجاً تنقص كثافته ولهذا السبب يعوم على وجه الماء لأنه أقل كثافة من الماء. أما بالحرارة فهو كسائر المواد يتمدد وتنقص كثافته حتى يصبح بخاراً.

ـ مكونات الأجسام المادية:

اعلم أن الذرات هي كما ذكرت مواد البناء الأساسية لكل الأجسام المادية منها كالبحار والهواء والجبال والكواكب والنجوم... إلخ وهي أيضاً مواد البناء الأساسية لكل الأجسام الحيّة منها كالنبات والحيوان والإنسان. ولكن فقط أربع أنواع من الذرات من بين المئة والثلاثة أنواع تدخل في بناء الأجسام والكائنات الحيّة. وهي الهيدورجين ـ والكربون ـ والآزوت ـ والأوكسجين.

فجميع الخلايا الحيّة والتي يتكون منها كافة النباتات والحيوانات والبشر هي مكونة بدورها من تلك الذرات الأربع.

أما سائر الأجسام المادية الغير حيّة فهي أيضاً مكونة من ذرات. فلكل جسم هويته وتركيبته الخاصة به. مثلاً: الماء مكوّن من ثلاث ذرات اثنتين هيدروجين وواحدة أوكسجين.

أما الهواء فهو مكون من (١٠٠/ ٢١) واحد وعشرين بالمئة أوكسجين والباقي آزوت. بالإضافة إلى عدة غازات أخرى بنسب ضئيلة.

فالأجسام على نوعين: إما مكونة من عدة ذرات مختلفة كالماء والزيت والنفط... فهي تسمى مركّبة. وإما تكون أصلية لا يدخل في تكوينها سوى نوع واحد من الذرات كالذهب والحديد والنحاس. كما أنه يوجد آلاف التركيبات المختلفة للذرات، فهي كالمغناطيس منها ما يتجاذب ويتكتل مع بعضه البعض ومنها ما يتنافر ولا يقبل أي إلتحام أو إتحاد.

نعم يمكن استخدام القوة لفصل بعضها عن بعض أو لضمّ بعضها مع بعض. فلو استخدمنا مثلاً الطاقة الكهربائية نستطيع بواسطتها فصل ذرات الهيدروجين عن الأوكسجين والذين معاً يشكلان الماء.

ثم إذا جمعا مع بعضهما البعض من جديد يتحرر منهما طاقة حرارية لا بأس بها وهي التي تستخدم كوقود لإطلاق الصواريخ إلى الفضاء.

ثم بعد خروج الغاز من محركات الصواريخ يتحول بعد الإلتحام بين الغازين إلى بخار الماء والذي يسقط فيما بعد أمطاراً.

ـ الطاقة الذرية:

قلت سابقاً إن الذرات يمكن فصل بعضها عن بعض بالقوة كما يمكن جمع بعضها مع بعض بالقوة فلو أخذنا مثلاً ذرة الأورانيوم عيار (٢٣٥) وحاولنا تحطيمها بواسطة جسم آخر بقذفه على النواة بسرعة هائلة فإن تلك الذرة الثقيلة الأورانيوم وبالرغم من عدد الكهارب الكبير الذي يدور حولها والذي يبلغ عددهم (٩٢) كهرب ويشكلون درعاً واقياً للنواة والمكونة هي أيضاً من (٩٢) بروتون.

فالبرغم من كل تلك الحراسة المشددة والحواجز فإن الجسم التي تُقصف به بسرعة هائلة يمكنه الوصول إلى النواة وتحطيمها وهذا ما ينتج كمية طاقة حرارية كبيرة جداً مقارنة بصغر حجمها.

أما إذا أخذنا كمية أكبر من ذرات الأورانيوم فإن تحطم أول ذرة يؤدي إلى تحطم الكمية كلها لأن حطام الذرة الأولى المتطاير بسرعة هائلة سيحطم الذرات التي بجوارها وهكذا حتى تتحطم الكمية كلها مما يؤدي إلى احداث انفجار هائل بسبب الطاقة المتحررة وهذا ما يسمى بالانشطار المتسلسل. وذلك لأن أول ذرة تحطمت هي التي فعلت كل هذا التسلسل في باقي الذرات.

وكلما كانت الكمية أكبر كلما كان الانفجار أكبر. فإن واحد (١) كيلو غراماً من الأورانيوم تتحرر منه طاقة تساوي (١٠٠٠) ألف طن من نوع متفجرات (تي أن تي). فكما نرى فإن قنبلة بوزن بضعة كيلو غرامات يمكنها تدمير مدينة بأكملها.

أما درجة الحرارة في وسط الانفجار فإنها تصل إلى عدة ملايين درجة مئوية. ولقد استخدمت أمريكا هذا السلاح الفتاك ضد مدينتي هيروشيما وناغازاكي في اليابان وكانت الضحايا عشرات الآلاف من القتلى. مما دفع الدول إلى سباق لامتلاك مثل هكذا سلاح.

فالبعض يعتقد أن السلاح النووي يشكل عامل توازن في العالم. بينما البعض الآخر يعتقد أنه عامل توتر وخطر. هذا بالنسبة للأغراض العسكرية أما بالنسبة للأغراض المدنية فإن الطاقة الذرية تستخدم في كثير من الدول لانتاج الطاقة الكهربائية كما أنها تستخدم كقوة دفع لمحركات بعض السفن والغواصات كما يفكر الخبراء باستخدامها مستقبلاً كقوة دفع في مجال الصواريخ والسفن الفضائية. . .

أما بالنسبة للطاقة التي تنتج عن جمع بعض الذرات مع بعضها البعض بالقوة فإن ذلك الجمع لا يحدث إلاّ باستخدام طاقة حرارية تصل إلى بضعة ملايين درجة مئوية. فقط انفجار ذري قادر على انتاج مثل هكذا طاقة وهكذا حرارة. والاتحاد السوفياتي هو أول من نجح في جمع ذرات الهيدروجين مع بعضها البعض.

والطاقة المتحررة من جراء الجمع بين الذرات هي أكبر بكثير من الطاقة التي تتحر من جراء التفريق والتحطيم بين الذرات ولهذا فإن القنبلة الهيدروجينية أقوى بكثير من قنبلة الأورانيوم. أما في استخدام هذه الطاقة للأغراض السلمية فإن ذلك غير ممكن لحد الآن. لعدم إمكانية السيطرة على هكذا وقود انفجاري لا يُتحكم به كما يُتحكم بالأورانيوم وغيره.

ـ دورة المادة وحركتها على الأرض ـ

بعدما أن علمنا حركة المادة داخل المكان الآن انتقل للحديث عن حركة المادة على الأرض وخصوصاً تبادلها بين النبات والحيوان والإنسان.

اعلم أن المادة على الأرض ليست هي ثابتة وجامدة في مكانها بدون حركة. بل هي دائمة الحركة وخصوصاً حركة الجو والبحار وما على سطحها من تبادل بين النبات والحيوان والإنسان.

أما بالنسبة للجو فهو دائم الحركة بفعل الرياح ودوران الأرض حول نفسها فهو شيءٌ مشترك بين كافة بقاع الأرض وذلك لأنه غازي متحرك فأي تلوث يحدث في أي مكانٍ كان فإن ذلك يصيب جميع العالم.

فإن الغازات المنبعثة من البراكين وخصوصاً من مصانع الدول الصناعية وكل ما يحرقه الإنسان من طاقة في سبيل تأمين الرفاهية المادية كل تلك الغازات السامة ترتفع وتختلط بالجو وتلوث الجو للجميع.

ويمكن أن نشبّه ذلك بعدة أشخاص بداخل غرفة. البعض منهم يدخن والبعض الآخر لا يدخن. ولكن الدخان المتصاعد فإنه سيعم الجميع لأن جو الغرفة مشترك للجميع. وهكذا بالنسبة للدول الصناعية.

فهناك غازات سامة تنبعث من بعض المصانع ثم تتساقط بعيداً وتختلط بالغيوم والأمطار وتُحدث تلوثاً. هذا بالنسبة للجو.

أما بالنسبة للبحار فهي أيضاً دائماً الحركة بفعل التيارات الباردة والحارة التي تشبه جريان الأنهار الكبيرة ولكن ذلك يحدث داخل البحار وليس على اليابسة. ثم دورة المياه والتبخر وتصاعد الغيوم وسقوطها أمطاراً وثلوجاً ثم عودتها إلى البحار.

وكذلك ما يخرج من محاصيل زراعية وأغذية للشعوب فهي تعود لاحقاً إلى الأرض. ولكن التبادل الأروع هو ما يحدث من تبادل للمادة بين الحيوان والإنسان من جهة وبين الغابات والأشجار فهو نظام محكم ومتوازن بدقة فائقة.

فالإنسان والحيوان يتنفّسان معاً غاز الأوكسجين وهو غاز الحياة بالنسبة لنا. بينما كل ما يخرج من فوهات البراكين ومن مداخن المصانع وكافة المحركات فهي غازات ثاني أوكسيد الكربون السامّة والغير صالحة للتنفس بينما الأشجار والنباتات بالعكس تماماً فهي تتنفس غاز ثاني أوكسيد الكربون وتطلق لنا غاز الأوكسجين.

وذلك لأن غاز أوكسيد الكربون مكون من التحام ذرّتي أوكسجين مع ذرّة كربون. حيث تقوم الأشجار بعملية فصل بين تلك الذرات الثلاث المتحدة فتطلق لنا الأوكسجين. وتحتفظ بالكربون بداخلها وتصنع لنا منه ثماراً وأغذية وخشباً وحطباً قابلاً للاشتعال. وكل ذلك يحدث بواسطة أوراق الأشجار فكل ورقة من أوراق الأشجار تمثل مصنعاً كيميائياً معقداً. وللشمس أيضاً فضل في ذلك لأنه لولا شعاع الشمس فإن عيش النبات والشجر مستحيل فكل شجرة تطلق يومياً من الأوكسجين ما تحتاجه عائلة كاملة للتنفس. فالأشجار والغابات تمثل الرئة للإنسان. فلا يستطيع الإنسان والحيوان أن يستغني عنها.

بينما هي باستطاعتها العيش بدون الإنسان والحيوان. والبراكين

تعطيها ما تحتاجه من غاز ثاني أوكسيد الكربون. إذا فمع زيادة عدد سكان العالم من جهة وما تطلقه البشرية من غازات سامّة. وقطع الأشجار وتراجع رقعة الغابات في العالم من جهة ثانية مما يودي إلى تلوث بسبب عدم قدرة الغابات القليلة على استيعاب كل تلك الكميات من الغازات السامة للتنفس.

فإن ذلك يشكل خطراً. وخصوصاً في المدن الكبيرة صيفاً حيث نسبة تلوث الهواء ترتفع تدريجياً وكل ذلك يدخل في صدور السكان. كما يؤدي تراكم غاز ثاني أوكسيد الكربون في الجو إلى ارتفاع درجة الحرارة. لأن ذلك الغاز السام يحبس الحرارة في الجو. وارتفاع درجة الحرارة يعني تبدل المناخ وتبدل المناخ يعني قد يؤدي إلى التصحّر وقلة الأمطار في بعض الأماكن.

كما يؤدي ارتفاع منسوب البحر لعدة أمتار بفعل ذوبان قسمٍ من الجليد في القطبين الشمالي والجنوبي مما يؤدي إلى فيضانات وغمر أماكن كثيرة في العالم وسهول كبيرة. لا تعلو عن سطح البحر سوى متر أو مترين. إذا سلوك الإنسان خطير في تعامله مع محيطه الطبيعي إذا لم يكن منظّماً ومدروساً. . والضرر يرجع إليه قبل غيره.

وذلك لأنه كما ذكرت للإنسان بدنٌ مادي يتعامل مع سائر الكائنات الحيّة المادية المحيطة به. فهو أخذٌ وعطاء وتبادل. ومن يبخل فإنما يبخل على نفسه. إذا فالتنظيم واجب على الإنسان. وهذا مما دفع في بعض الدول إلى تأسيس حزب مبادئه الرئيسية الدفاع عن البيئة والطبيعة. فالإنسان هو الأكثر تلويثاً للطبيعة من بين سائر الحيوانات. كما أن كمية الطاقة التي يستخدمها كل إنسان تفوق ما يستهلكه الفيل يومياً من الطاقة.

أما بالنسبة للنفايات التي يرميها الإنسان في محيطه الطبيعي فليست كلها على حدٍ سواء. فكل ما هو مصدره طبيعي من نفايات فهو لا تشكّل خطراً على الإنسان. لأنها مواد طبيعية والطبيعة نفسها تحللها من جديد

وتفنيها بوقتٍ سريع. ولكنه غير لائق بالإنسان أن يكون محيطه قذراً.

كما أن بعض النفايات البيلوجية الأصل فإنها تعتبر مرعي للجراثيم والأمراض التي تشكل خطراً على صحة الإنسان ولهذا السبب يدفن الإنسان الموتى في التراب كي لا تنتشر الأمراض ويتلوث الهواء والطبيعة.

كما أن هنالك نوع آخر من النفايات وهي الأكثر خطراً وهي النفايات الصناعية الأصل. فهذه يلزمها عشرات السنين وبعضها مئات السنين أو أكثر من ذلك لكي يزول خطرها.

ومنها كل ما هو مواد مشعّة وكيمائية وترمي بها بعض الدول في البحر سراً.

ـ الضوء ـ

اعلم أن الفضاء هو ظلام دامس أسود اللون بارد.

أقول: بارد بالنسبة للإنسان المخلوق ذو الشعور والذي له نسبة محددة لتحمّل البارد والحار.

أما بالنسبة للمادة نفسها فالبارد والحار على حدٍ سواء لأنه ليس للمادة إحساس كما لدى الإنسان. كما تجوب هذا الفضاء الشاسع اشعاعات النور في كل اتجاه. فميدان النور هو الفضاء. ومنبع الأنوار هي ذرّات المادة. المكونة للأجسام المشعّة كالشمس والنجوم وذلك بفعل التفجيرات النووية في باطنها فأي قطعة من المادة أو المعدن كانت فهي ما لم تتعرّض لطاقة خارجية أو احتكاك، فإنها تبقى كما هي محافظة على سكونها.

أما إذا عرّضناها لطاقة خارجية فإنها تبدأ حرارتها بالارتفاع. وتبدأ الذرات بالهيجان وخصوصاً الكهارب التي تدور حول النواة فإنها تقوم بتوسيع مدارها كلما زادت الطاقة التي تحملها حتى تصل إلى حدود تفرغ كل شحنتها من الطاقة.

ثم إن الكهرب وبعد أن يفرغ شحنته من الطاقة وذلك ما يحدث في

زمن قصير جداً يرجع الكهرب بالقفز إلى مداره السابق الأقرب من النواة.

ثم يكرر هذه العملية بلا نهاية ما دام معرضاً لعوامل خارجية كالاحتكاك أو تعرضه لطاقة خارجية. ولقد ذكرت سابقاً أن عدد الذرات التي تكوّن المادة كبير جداً. فرأس الدبوس مثلاً يحتوي على مليارات الذرات. إذاً الجسم المعرض لعوامل خارجية كتعرضه لطاقة أو احتكاك فهو يبث تلك الطاقة بالداخل على شكل موجات نحو الخارج. وبشكل متواصل. مثلاً لو أخذنا مسماراً أو سلكاً معدنياً ثم عرضناه لطاقة خارجية يعني أحميناه بالنار.

فإن المسمار والسلك سيضل إلى درجة أن يصبح لونه أبيضاً من شدة الحرارة التي يتعرض لها. وإن ما نراه بأعيننا من لون إنما هي تلك الموجات التي تبنها جميع الكهارب موجودة بداخل ذلك المسمار والسلك. إذاً الضوء هو عبارة عن موجات منبعها المادة عندما تتعرض لطاقة خارجية أو لاحتكاكٍ ما. والموجات الضوئية تبلغ سرعتها (٣٠٠,٠٠٠) كلم بالثانية وهي تسير في كل الاتجاهات بلا نهاية عبر الفضاء إلى ما شاء الله (ج) أما عبر الماء فهي لا تستطيع أن تدخل أكثر من بضعة عشرات من الأمتار.

أما داخل الأجسام الصلبة فإن ورقةً تمنع النور من العيون. ثم إنه هناك موجات متعددة منها مرئية وهو الضوء الذي نراه ومنها غير مرئية كموجات الراديو والرادار ومنها أيضاً موجات (×) ايكس التي تستخدم في المستشفيات لتصوير العظام بشكل خاص.

ومنها شعاع وموجات غاماً. التي مصدرها النواة نفسها. وكل هذه الموجات ذات طبيعة واحد. الفارق الوحيد فيما بينها هو طول الموجة وعدد الذبذبات في الثانية. والمقصود بذلك هو أن كلمة طول الموجة هو لمقياس المسافة بين موجتين.

وأما الذبذبات فهي عدد الموجات في الثانية. ويمكن أن تشبّه ذلك بهذا المثل: فلنفترض أنه يوجد أمامنا بركة ماء هادئة جداً. ثم ألقينا بوسطها حجر صغير ماذا يحدث؟ يحدث تولد موجة في مكان سقوط الحجر ثم انتشارها بكل الاتجاهات. فهذه موجة واحدة.

أما إذا رمينا حجرين متتابعين فسيتولد موجتين... وهكذا فنقول موجتان في الثانية أو خمسة أو مئة أو ألف...إلخ هذا بالنسبة لعدد الموجات في الثانية. وهي الذبذبات.

أما بالنسبة لطول الموجة فهي المسافة بين الموجتين. قد نجد مثلاً في مسافة متر واحد (١) عشرة موجات إذاً فيكون طول الموجة (١٠) سنمترات وقد نجد مثلاً في متر آخر (١٠٠) مئة موجة فيكون إذا طول الموجة (١) واحد سنتمتر.

فهكذا بالنسبة للضوء تماماً. فالعين مثلاً لها حدود لكي تستطيع الرؤية فهي لا ترى الموجات القصيرة وكذلك لا ترى موجات الراديو والرادار. بالرغم من أن الكل لهم طبيعة واحدة ولكن طول الموجات هو المختلف بينهم.

ثم إن الألوان التي يراها الإنسان لكل لون طول محدّد لموجته فالعين للإنسان لا تستطيع أن ترى إلاّ بين طولين للأمواج بين البنفسجي وبين الحمراء فقط. وهم سبعة ألوان ولكل لونٍ طول. وهي البنفسجي والكحلي والأزرق والأخضر والأصفر والبرتقالي والأحمر.

أما ما فوق البنفجسي ودون الأحمر فلا تستطيع العين أن ترى شيئاً ولكن استطاع الإنسان أن يخترع أجهزة يمكنه بواسطتها الرؤية تحت الحمراء وفي الليل المظلم. وكذلك فوق البنفسجيّة كالتي تصوّر بشعاع (×) ايكس..

أما الأخضر فهو بالوسط تماماً. ولهذا عندما ننظر إلى الخضرة

والأشجار فإن العين ترتاح بهذا اللون. ولهذا السبب قيل إن النظر إلى الخضرة يجلو البصر.

ثم إن هذه الألوان السبعة لو جمعناها مع بعضها البعض تعطينا اللون الأبيض. وكذلك لون الشمس فهو أبيض. كما يمكن لنا تجزئة شعاع الشمس إلى سبعة ألوان بواسطة مثلث زجاجي بداخل غرفة مظلمة. وهذا أيضاً ما يحدث لشعاع الشمس عندما يكون الجو مليئاً بنقاط الماء المتساقطة. مما يؤدي إلى تجزئة شعاع الشمس وظهور قوس قزح في السماء. إذاً الأجسام التي لونها أبيض فهي تعكس النور كما هو.

أما الأجسام السوداء فهي تمتص النور كلياً ولهذا يصعب لنا رؤية اللون الأسود إذا كان محاطاً بسواد حتى ولو سلّطنا عليه الضوء فهو يمتص كل الشعاع تقريباً ولا ينعكس منه شيئاً إلى أبصارنا.

أما الأجسام الحمراء فهي تمتص كل الألوان ما عدا اللون الأحمر فإنها تعكسه. فلهذا السبب نراه وكذلك اللون الأخضر واللون الأزرق وسائر الألوان. ومرد كل ذلك إلى القشرة الخارجية للأجسام. وبحسب تركيبتها الكيمائية يكون اللون التي تعكسه.

كما يوجد أيضاً اشعاعات غير ذلك مضرّة. خصوصاً في الفضاء الخارجي. فالشعاع القادم من الشمس إلى الأرض يحمل أيضاً اشعاعات فوق البنفسجية والتي تعتبر مضرة بالإنسان والحيوان والنبات. ولكن الغلاف الجوي للكرة الأرضية وخصوصاً طبقة الأوزون هي التي تحمي الأرض وتمنع تلك الاشعاعات من العبور ووصولها إلى سطح الأرض.

فهذه الطبقة تمثل درعاً واقياً. بينما تسمح لباقي الأمواج الضوئية بالعبور إلى الأرض. ثم يوجد على سطح الأرض وفي بعض الأماكن ذرات مشعّة وتشعّ بشعاعها الغير مرئي بالعين ولكن ضررها ليس كبيراً لأنها متناثرة في الأرض بنسبة لا تشكل خطراً بينما اخراجها وتجميعها وهذا ما يحدث في المناجم لاستخراج الأورانيوم. واستخدامها

للأغراض المختلفة كإنتاج الطاقة الكهربائية فيه خطر ولكن الخطر الأكبر هو دائماً يأتي من الإنسان نفسه. كإجراء تجارب نوويّة فوق الأرض وتحت الأرض مما يحدث تلوثاً في الهواء والطبيعة والمياه الجوفية وهذا التلوثّ خطير ولا يزول إلا بمرور مئات السنين. وكذلك الحوادث الناتجة عن الإهمال أو عدم الانتباه.

أما بالنسبة لشعاع الضوء فهو دائماً يسير بخط مستقيم مليارات السنين عبر الفضاء إلى ما شاء الله (ج) ما لم يتعرّض لعوامل خارجية تحرف مساره أو تضع لسيره حداً. فالعوامل التي تكسر الضوء عن مساره هي عبوره بأجسام شفافة كالماء والزجاج فإن هذه الأجسام تكسره وتحرفه عن مساره بدرجة معينة.

ولهذا نرى مثلاً العصا داخل الماء على أنها مكسورة. كما يوجد بعض الأجسام تعكسه تماماً كالمرآة مثلاً بينما مروره بجوار بعض الكواكب ذات الجاذبية العالية فإنها أيضاً تحرفه عن مساره بينما الحفر السوداء تبلعه تماماً وكذلك الأجسام السوداء اللون فإنها تمتصّه. وكذلك موجات الرادار والراديو. وخصوصاً ذرّة الكربون فهي تمتص الأمواج الضوئية وأمواج الرادار ولا تعكس سوى نسبة ضئيلة جداً.

أما في تجميع الضوء وتكثيفه في نقطة صغيرة أو العكس فهذا ما يحصل بواسطة العدسة الزجاجيّة. وكذلك بواسطة المرايا المحدّبة والمقعّرة والتي تستخدم في المراصد العملاقة لرصد النجوم والفلك. من جهة ثانية كما ذكرت الشعاع يمكن تجميعه وكذلك تفريقه ويمكن تكثيفه وهذا ما يحدث في جهاز الليزر. والذي يستخدم في مصالح متعددة للأغراض السلميّة والعسكرية.

أما بالنسبة للأجسام التي نراها فإنها تبدو لنا صغيرة كلما ابتعدنا عنها أو العكس حتى تبدو نقطة صغيرة جداً. فكما نعلم الأجسام لها حجم واحد سواء قُربت أم بُعدت. ولكن ذلك مردّه بسبب أن الأجسام التي تبث

وتعكس شعاعها بكل اتجاه ولهذا فإن العين لا يصلها نفس نسبة الكميّة من الضوء من تلك الأجسام في حال قُربها أو بُعدها.

فكلما كانت قريبة كلما دخل أعيننا نسبة أكبر من النور وكلما ابتعدت أو ابتعدنا نحن عنها قلّت نسبة الضوء التي تدخل أعيننا منها ولهذا السبب نراها كبيرة أو صغيرة. لأنه لو لم يكن كذلك لما استطعنا أن نرى العالم الشاسع الكبير دفعة واحدة وإلاّ فإن رؤيته بالحجم الحقيقي يلزم لذلك أن يكون حجم العين كبيراً جداً كحجم العالم تماماً.

فالعين هي حقاً روعة من روائع العالم وآية من آيات المبدع القدير جلّت عظمته.

ـ طول الأمواج المختلفة:

الأمواج الكهربائية وأمواج الراديو كهربائية أو المسمّاة بأمواج (هرتز) يتراوح طولها ما بين بضعة مليمترات إلى (٣٠٠٠٠) ثلاثين ألف متر.

أما الأمواج الضوئية فهي يختلف طولها بفارق بسيط فيما بينها.

اللون الأحمر طول الموجة (٠,٧٥) ميكرون. أي ما يساوي (٠,٠٠٠٧٥) ملمتراً.

اللون البرتقالي طول الموجة (٠,٦٥) ميكرون.

اللون الأصفر طول الموجة (٠,٥٥) ميكرون.

اللون الأخضر طول الموجة (٠,٥١) ميكرون.

اللون الأزرق طول الموجة (٠,٤٧) ميكرون.

اللون الكحلي طول الموجة (٠,٤٤) ميكرون.

اللون البنفسجي طول الموجة (٠,٤٢) ميكرون.

أما الأمواج المادون الأحمر يصل طولها إلى حدود (١) واحد متر.

ـ أما كثافة الضوء فهي تختلف بحسب المسافة مثلاً: المسافة التي بيننا وبين الشمس لو كانت نصف ما هي عليه. لكان شعاع الشمس على الأرض أكثف مرتين على ما هو عليه الآن. والعكس كذلك تماماً لو كانت المسافة بيننا وبين الشمس أكثر مرتين مما هي عليه الآن. لكان شعاع الشمس القادم إلينا أضعف وأقل كثافة مرتين. ولقد استطاع الإنسان أن يصنع شعاعاً كثيفاً جداً وهو جهاز (الليزر) والتي تصل قوته إلى (١٠٠٠) ألف مرة أكثر من كثافة شعاع الشمس على الأرض. ويوجد أيضاً أكثف من ذلك بكثير والذي يستخدم للأغراض العسكرية. والميزة في شعاع (الليزر) أنه يسير دائماً في خط مستقيم ما لم يعقه عائق أو يتعرض لعوامل أخرى.

ـ ظهور الحياة على الأرض ـ

إن ما تزخر به الحياة على وجه الأرض من مخلوقات كثيرة ومتنوعة. يقودنا لا محال لأن نتساءل كيف ظهرت هذه الحياة، ومتى بدأت؟ أسئلة من أهم ما يطرحه الإنسان من أسئلة قديماً وحديثاً.

أما قديماً أذكر فقط آية واحدة من القرآن تدعو وتأمر الإنسان أن يسير بالبحث عن سرّ الحياة على وجه الأرض. قال تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم **﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾**.

فهي آية كما نرى تدعو الإنسان بشكل عام وليس المسلم فقط. والبحث العلمي مهما كان في أي المجالات هو خير ما اتفق عليه الناس مهما كان اختلافهم.

أما حديثا فإن علماء البيوكمياء والبيولوجيا وهم اختصاصيّو هذا العلم «علم الأحياء» وغيرهم من علماء يواصلون ويبذلون الجهود في هذا السبيل. كما أن الفلاسفة أيضاً تناولوا هذه الأسئلة قديماً وحديثاً.

قلت فيما مضى أن المادة بذراتها المئة والثلاثة نوع من العناصر تمثل مواد البناء الأساسية لهذا الكون بنجومه وكواكبه وجماده ونباته وحيواناته وبشريته، كلها مكونة من ذرات متشابهة تقريباً، ولكن فقط أربع

أجناس منها تدخل في بناء وتركيب الكائنات الحيّة وهذه العناصر هي: الهيدروجين والكربون والآزوت والأوكسجين. فهو حقاً شيءٌ عجيب كيف أن أجساماً مكونة من نفس المواد تقريباً لها شكلين من الأشكال وصفتين من الصفات المتناقضة وهي: الموت والحياة. السكون والحركة. الشعور واللاشعور الادراك وعدم الادراك... كيف حدث هذا؟ أين تقع الحدود الفاصلة بين الحياة والموت؟ وما هو السبب في ذلك؟ فما هي تلك الخطوة التي خطتها المادة كي تدخل في الحياة؟ هل ذلك مجرد صدفة؟ أم أن للمادة شعوراً وإرادة؟ حتى تتكتل وتتلاحم وتتآزر وتتعاون معاً على خلق كائن حيّ معقد في غاية التعقيد.

وهل الموت يخلق حياة؟ أم أن ذلك السبب وتلك الخطوة هي من جرّاء عامل خارجي ويدٍ خفيّة عالمة قادرة وراء ذلك؟.

يقدر العلماء أن عمر الأرض يرجع إلى (٥٠٠٠) خمسة آلاف مليون سنة.

وأن أول أثر للحياة ظهر عليها يرجع إلى (٣٣٠٠) مليون سنة. وكان على شكل بكتيريا.

وأن أول هذا الظهور حدث في مياه البحار. ثم بعد ذلك ظهور أول خلية حيّة.

ثم استمر ذلك (التطور) عبر ملايين السنين حتى ظهرت أول الكائنات الحيّة المركبة والمكونة من خلايا متعددة. وهي أول الأسماك البسيطة منذ حوالي (٣٥٠) مليون سنة. ثم ظهرت أول الحيوانات التي لها شبه عمود فقري وذلك منذ حوالي (٢٥٠) مليون سنة. ثم ظهرت حيوانات برمائية تتنفس بوسيلتين معاً الخياشيم والرئتين وذلك منذ حوالي (٢٠٠) مليون سنة.

أما صعود أول الحيوانات على اليابسة وهي حيوانات تزحف جزئياً كان ذلك منذ (٣٣٥) مليون سنة. ثم ظهرت الزواحف والتي لا تزال

محتفظة بقشورها البحرية. ثم ظهرت الطيور ثم الحيوانات اللبونة وذلك منذ حوالي (١٨٠ إلى ٢٠٠) مليون سنة ثم ظهر أول شبه إنسان منذ (٤ إلى ٣) مليون سنة.

ثم ظهر أول إنسان بدائي قبل (٣ إلى ١,٧) مليون سنة وهنا ظهر أول استعمال للآلة وهي الحجارة والعظام. وهكذا استمر (التطور) حتى ظهر الإنسان الحديث منذ (٣٠,٠٠ إلى ١٢٥,٠٠٠) ثلاثين إلى مئة وخمسة وعشرون ألف سنة تقريباً.

هذا بشكل مختصر ما حدث في بضعة آلاف مليون سنة. لا أريد أن أناقش في هذا الفصل نظرية تطور الأجناس بل سأتناول ذلك في الفصل القادم. الشيء الذي يهمنا هنا هو ظهور أول خلية على وجه الأرض كيف حدث ذلك من أين أتت وكيف وُجدت. فأصحاب النظرة المادية يعتقدون أن ذلك التحول الذي طرأ على المادة الميتة وألبسها ثوب الحياة هو نتيجة عوامل (فيزيائية) جعلت الذرات تتجمع مع بعضها البعض بسبب الصواعق الكهربائية وهو البرق النازل من الجو إلى الأرض وإن ذلك البرق أحدث تغيراً في تركيب الذرات مع بعضها البعض نتيجة الصدفة المحضة حتى ظهرت بذلك أول أشكال الحياة البسيطة وهي البكتريا والخلية وطبعاً هذا ما يرفضه العقل كجواب ولا يطمئن به لأن الهوّة كبيرة بين الحياة والموت لكي تُحدثها صواعق كهربائية.

لقد حاول الخبراء في مختبراتهم كثيراً وأجريت تجارب لا تحصى في إعادة خلق أول خلية حيّة فأعادوا بناء الجو الذي كان سائداً على الكرة الأرضية منذ حوالي (٥٠٠) مليون سنة. ووضعوا جهازاً مؤلف من أنابيب زجاجية وسائل يمثل البحر وكذلك غازات تمثل الجو والغيوم وشعاع يمثل الشمس وصواعق كهربائية تمثل البرق والرعد ووضعوا بذلك الجو غازات الميتان وغاز الأمونياك والهيدروجين وبخار الماء ثم راحوا يحدثون الصواعق في ذلك الجو. لعل الصواعق تُحدث تغيراً في تركيب ذرات

الغاز، وبعد كل تلك التجارب والمحاولات المتعددة والتي استمرت لأسبوع كامل وبشكل متواصل. أخرجوا بعد ذلك السائل الذي يمثل البحر البدائي ليروا ما إذا كانت معجزة الحياة والخليّة قد ظهرت به.

وبعد تحليل ذلك السائل ووضعه تحت المجهر الالكتروني. لم يعثروا قط على أي شكل من أشكال الحياة لا بكتيريا ولا خليّة ولا أي شيء له صلة بالحياة. عثروا فقط على عدة أنواع من الأسيدات والتركيبات المختلفة لذرات المادة. وهذه التجارب حصلت مراراً وفي أحدث المختبرات المتطورة في أمريكا وروسيا وألمانيا واسرائيل وبلجيكا وفرنسا... وغيرها من دول أخرى. وكانت النتائج لها متشابهة وفاشلة في خلق الحياة اصطناعياً.

ولهذا السؤال المحيّر عن بدأ الحياة على الأرض وظهور أول خلية حيّة. ذهب بعض العلماء إلى احتمال مجيء أول خلية إلى الأرض بواسطة أحد النيازك المتطايرة في الفضاء الخارجي والتي يتساقط منها يومياً بالآلاف على الأرض ولكنها سرعان ما تتحطم عند دخولها الغلاف الجوي وتتفتت وتسقط على الأرض على شكل غبار وحبات كالرمل والحصى. بل حتى لو كان ذلك صحيحاً أن أول خلية حيّة أتت إلى الأرض بواسطة أحد النيازك فإن ذلك لا يحل شيئاً من المشكلة.

بل سينطرح على هذه الخلية القادمة من الفضاء نفس السؤال كيف قبلت المادة الميتة الحياة؟ ثم كيف استطاعت الخليّة أن تسافر عبر الفضاء ربما ملايين السنين في درجات حرارة تبلغ (٢٠٠) درجة فوق الصفر في النور و (٢٠٠) تحت الصفر في الظل. وكيف استطاعت البقاء والعبور وسط كل تلك الإشعاعات المضرّة بكل ما هو حيّ.

وهكذا يبقى بدأ الحياة على الأرض سراً من أسرار الطبيعة ولغزاً من ألغازها.

أما النظرة الثانية وهي النظرة الدينية، والقائلة بكلمة موجزة «الله» هو

سبب معجزة الحياة. فخرج الحياة من الموت، والوجود من العدم، وهو على كل شيء قدير.

طبعاً العلم الحديث يرفض هذا الجواب ولم يعد يرضى به اليوم أبداً في أي مجالٍ كان، بعدما كانت كلمة «الله» سابقاً هي الجواب على كل مجهول وكل سرّ من أسرار الكون. فالعلم الحديث العلماني اليوم لا يرضى بأقل من دليل محسوس.

ولكن يبقى لكلمة «الله» أنصارها سواء ظهر دليل أم لم يظهر دليل. وهو الإيمان.

ـ نظام الخلايا العجيب:

تشكل الخلايا الحيّة العنصر الأساسي في بناء وتركيب كافة المخلوقات الحيّة، النباتية منها والحيوانية والإنسانية. والتي يصل تعدادها في الكائن الحيّ الواحد كالإنسان مثلاً إلى عشرة آلاف مليار خليّة. وكل خلية من هذه الخلايا تتكون بدورها من ما يقارب ألف مليار ذرّة.

هذه الخلايا تتعاون وتتآزر فيما بينها على أحسن وأروع تنظيم على بناء جسم الكائن الحيّ، كل منها يعلم وظيفته ومهمته ودوره.

منها ما هو مخصص في بناء الدم ومنها مخصص في بناء الأعصاب ومنها في العظام ومنها في الجلد ومنها في الدماغ... كلها مجتمعة ومحتشدة تعمل وكأنها مأمورة تنفذ عملها بدقة وأمانة، وكلما ماتت خلية ولد مكانها أخرى، ففي كل لحظة يموت ملايين ويولد ملايين والعمل والبناء مستمر بلا توقف ليلاً نهاراً بهذه الورشة العملاقة، وأي بناء معقد هذا يعجز البشر كافة أن يفعلوا مثله مهما بلغت التقنية لديهم علواً.

فما أعظم عملها الجبار والتقنية العالية لديها، فأين يا تُرى تعلمت هذه الخلايا هندسة البناء وعلم الكيمياء والفيزياء والتكنيك حتى تبني

إنساناً ينظر ويسمع ويمشي ويأكل ويتكلم ويتنفس ويركض ويتعلم ويفهم ويتذكر ويفكر. . . إلخ.

ثم إن هذا البناء تبدأ تظهر معالمه والإنسان لا يزال جنيناً في الرحم ويستمر البناء بعد خروجه ويتواصل حتى سن الكهولة أي ما يقارب الثلاثين سنة عندها يكون الجسم قد بلغ أقصى حدوده من الطول والعرض والعمق ويكون في ذروة كماله حتى يبدأ فيما بعد بالانحدار نحو الشيخوخة والهرم، تبدأ عندها الخلايا بالتناقص في أعدادها وتصبح عاجزة عن أعمال الصيانة والمحافظة على الجسم.

فبينما كانت أعدادها في سن النشوء تتزايد والعمال محتشدون. تصل في سن الكهولة إلى الثبات، بينما يبدأ التراجع بعد ذلك في الشيخوخة. وذلك بالرغم من مواد البناء المتوفرة، لأن الشيخ يأكل كما يأكل الشاب ولكن ما نفع كثرة مواد البناء ما دام لا يوجد عمال بشكل كاف عندها تبدأ ثغرات تنفتح هنا وهناك والأعطال تتزايد فتظهر بذلك التجاعيد في الوجه والوهن في العظام والضعف في الذاكرة. . . وذلك تماماً ما يحدث أيضاً في الأجسام الأخرى كالأشجار من اصفرار في الأوراق وضعف وذلك بالرغم من وفرة المياه والمواد المعدنية في الأرض. ولقد اكتشف العلماء أن الموت مكتوب في الخلايا وكذلك تراجع أعدادها. وهذا لا محال يقود إلى الموت.

أما الإنسان بنظر الأديان وكثير من الفلاسفة له نفس حيّة مجردة تخرج من ذلك البدن وتغادره بعد خرابه وإن الجسم خلق لها لكي تتكامل به في هذه الحياة القصيرة وترى حكمة الله وقدرته وعظمته وتكتسب الأخلاق الحسنة وحب الخير وتبغض الشر والكفر ومساوىء الأخلاق.

وليس كما يقول الكفار نموت ونحيا وما يهلكنا إلاّ الدهر وأن لا روح في الجسم بل هو مركّب مادي يفنى بالموت.

فإذا كان كذلك فما الهدف في هذه الحياة القصيرة هل هو الأكل

والشرب والنكاح كما تفعل الحيوانات الخالية من الادراك العقلي.

معاذ الله أن يكون هذا البناء الجبار عبثاً بلا حكمة. فما الخلايا في هذا البناء إلاّ لأن الله سخرها لذلك وأمرها. وإلاّ فما الفائدة التي تجنيها الخلايا من كل هذا التعب وهذا الشقاء والتضحيات طوال سنوات العمر إذا كان الهدف هو قضاء الشهوات لهذا الإنسان ثم يأتي بعد ذلك وينكرها وينكر خالقها والحكمة من فعلها ويرجع جهودها الطويلة إلى الصدفة فلينظر هذا الإنسان إلى عظيم الحكمة في خلايا جسمه والذي ما إذا أصيب بكسر في عظامه أو جروح في بدنه تبدأ الخلايا فوراً بإصلاح التلف والكسر الذي حدث وذلك من تلقاء نفسها وبخارج عن إرادة الإنسان وهذا ما يُظهر بوضوح أن لهذا الإنسان قوة خارجيّة ترعاه.

أمّا الخلايا العصبية للدماغ والذي هو محلّ الإدراك، فليست الخلايا هي المدركة المفكرة العاقلة بل هو غيرها وهو هذا الكائن الإنساني الذي تكونه، وهذا أوضح دليل لمن له دماغ يفكر به.

ـ نظرية تطوّر الأجناس، وظهور الإنسان على الأرض ـ

يعتقد كثير من العلماء العلمانيين اليوم بنظرية تطور الأجناس، وهي النظرية التي وضع أساسها العالم الانكليزي الشهير شارل داروين، مؤلف كتاب «أصل الأجناس».

هذه النظرية باختصار تقول إن جميع أجناس الحيوانات على وجه الأرض بأجناسها وأشكالها وصورها المختلفة والمتعددة، لها جميعاً أصل واحد انبثقت وتفرعت جميعها من ذلك الأصل وذلك منذ ملايين السنين.

وإن كل فرع من تلك الفروع لا زال يشق ويواصل طريق التطور بمعزل عن الفروع الأخرى، كلٌ حسب ظروفه ومحيطه الجغرافي والعوامل التي يخضع لها.

وإن الإنسان نفسه هو أحد تلك الفروع قد انبثق وخرج من حيوان يشبه القرد هوأصله. فهي كما نرى نظرية مخالفة تماماً للنظرة الدينية وما كان يعتقد به الإنسان من قبل، من أن جميع أجناس الحيوانات بأشكالها وأنواعها وصورها المختلفة خلقها الله منذ البدء كل على شكله وصورته وهويته التي يتميز بها عن غيره وأوصافه الخاصة به، وأن تلك الحيوانات

المختلفة لا تزال تتناسل وتتناسخ أوصافها وأمثالها حتى يومنا هذا طبق الأصل على ما خلقت عليه منذ البدء، بلا تطور ولا زيادة ولا نقصان وأن آدم أبو البشر هو الإنسان الأول خلقه الله بأفضل تقدير وأكمل مثال.

فلهذا لاقت نظرية التطور مواجهة عنيفة من الأديان المختلفة كالمسيحية والإسلام. وهذا التطور الذي يتحدثون عنه ليس تطوراً كمياً فحسب بل تطوراً كيفياً.

أما التطور الكمي فلا مشكلة فيه الكل يؤمن به. كتطور الإنسان مثلاً من جنين إلى ولد إلى شاب إلى شيخ إلى هرم... إلخ أو كتطور الثمار وغير ذلك من نباتات وحيوانات...

ولكن الشيء الجديد هو التطور الكيفي من شكل إلى شكل ومن جنس إلى جنس ومن صورة إلى صورة، يفقد بذلك الجنس سابق صفاته وهويته ويكتسب هوية وأوصافا جديدة. كتطور الأسماك إلى حشرات والحشرات إلى برمائيات والبرمائيات إلى زواحف والزواحف إلى طيور والطيور إلى لبونة والذي يعتبر الإنسان أحد فروعها.

تقول أيضاً هذه النظرية إن هذا التطوّر عبر مليارات السنين هو محض الصدفة غير ناتج عن تخطيط مسبق أو مشروع إلهي.

وهذا التطور لا يكون دوماً من البسيط الخسيس نحو الأكمل الأشرف قد يكون أيضاً العكس ممكناً وكل ذلك مرّده للظروف والمحيط الجغرافي والعوامل. بالإضافة إلى الصراع بين الأجناس من أجل البقاء والحياة، فمن كان منها محيطه الجغرافي وظروفه جيدة، نما وازدهر وتكاثر. ومن كانت ظروفه غير جيدة وغير ملائمة له، ضعُف وتهدد وتعرض للفناء وانقرض. فالطبيعة هي التي تنتخب وتختار الأجناس فتنتخب البعض وترفض البعض الآخر.

ثم إنه لا أحد يعلم بشكل مسبق ماذا تكون نتائج هذا المحيط أو

ذاك. فبعض الظروف الملائمة مثلاً قد تقوي وتطور بعض الجوانب بينما تضعف جوانب أخرى. والعكس كذلك ممكن، فبعض الظروف الغير ملائمة قد تكون نتائج تطورها إيجابية، كما حدث في شرقي القارة الأفريقية مهد الإنسان البدائي.

أما من جهة الصراع بين الأجناس من أجل الحياة. يمكن أن نقول بشكل عام إن ذلك الصراع يُحدث نوعاً من التوازن في عالم الطبيعة. كما نرى ما يحدث بين الحيوانات المفترسة من جهة والحيوانات الآكلة للعشب من جهة أخرى. وكذلك أيضاً ما يحدث في مياه البحار حيث إن بعض الحيوانات حفاظاً على بقائها واستمرارها تلجىء إلى وسيلة كثرة التبذير فتبيض أعداداً كبيرة من البيض تصل إلى الآلاف أو أكثر من ذلك، بحيث مهما تعرضت للعدوان من حيوانات أخرى، يبقى منها على قيد الحياة لتكمل بقاء الجنس.

وقلّ ما يحدث أن يكون جنس ما من الأجناس سبباً في انقراض نوع آخر ما لم يتدخل الإنسان بدماغه المتطور وأدواته الفتاكة ويقلب الموازين والقوانين.

فالتطور هو ظاهرة كونية شاملة. حتى المجرات والنجوم والكواكب والأرض، هي في حالة تطور دائم. وعلماء الجيولوجيا وتاريخ الأرض يشهدون بذلك، فالقارات الخمس كانت يوماً ما ملتصقة مع بعضها البعض وتشكل قارة واحدة قبل أن تتباعد وتنشأ بحار ومحيطات عرضها الآف الكيلومترات وهي الآن لا تزال تتباعد وتتداخل وينشأ من هذه الحركة بحارٌ وجزرٌ وجبالٌ وأودية لم تكن من قبل.

وكذلك من جهة ثانية تنقرض وتفنى بحارٌ وجزرٌ وجبالٌ وأودية. . . فالأشياء ليست ثابتة كما نراها. إنما نراها كذلك بسبب عمرنا القصير مقارنة لهذه الحركة التطورية الطويلة الأمد والتي تسير ببطء عبر مليارات السنين.

وفي هذا التطور البطيء تظهر أجناس وتنقرض أجناس أخرى ويعتقد العلماء أن (١٠٠/ ٩٠) تسعين بالمئة من الحيوانات التي كانت تعمر الأرض مئات ملايين السنين قد انقرضت.

وفي هذا التطور تتدخل عوامل أخرى خارجية فتقلب الموازين وتغير الظروف والمحيط الجغرافي وتُحدث عوامل جديدة.

كما حدث منذ حوالي (٦٥) خمسة وستين مليون سنة وانقراض حيوانات (الدينوزور) والتي استعمرت الأرض ما يقارب (١٥٠) المئة وخمسين مليون سنة. والتي عُثر على أعداد كبيرة من هياكلها العظمية المتعددة الأشكال والأجناس والتي يصل وزن البعض منها عشرات الأطنان وطولها عشرات الأمتار.

أما سبب انقراضها هو سقوط نيزك عملاق يبلغ قطره حوالي (١٠) عشرة كيلومترات سقط في المكسيك وأحدث انفجاراً هائلاً قُدرت قوته والطاقة المتحررة منه بما يقارب عدة مليارات قنبلة ذرية كالتي سقطت على مدينة هيروشيما، أما الحفرة التي أحدثها ذلك الانفجار يبلغ قطرها (٣٠٠) ثلاث مئة كيلومتراً.

هذه الكارثة قضت على (٨٠) ثمانين بالمئة من الحيوانات التي كانت على الأرض آنذاك، بسبب تناثر الغبار والغاز الكثيف الذي غطى معظم الكرة الأرضية وحجب نور الشمس لسنوات طويلة مما أدى إلى انخفاض درجات الحرارة وسيطرة البرد القارص على معظم أرجائها مما تسبب بموت حيوانات الدينوزور بشكل كامل. بينما استطاعت الحيوانات الصغيرة الحجم من الاختباء والعيش تحت الأرض في جحورها واجتياز ذلك البرد وتلك الظروف بأمن وسلام مما فسح لها المجال فيما بعد بأن تخرج وتواصل تطورها في ظروف أفضل بلا منازع عبر ملايين السنين حتى ظهور الإنسان والذي هو أرقى وأشرف صور ومظاهر ذلك التطوّر.

٢ ـ ظهور الإنسان

يعتقد علماء التطور أن أول مظاهر للجنس الإنساني ظهر شرقي القارة الافريقية. مهد الإنسان البدائي الأول بها نشأ منذ ملايين السنين قبل أن ينتشر لاحقاً في معظم أرجاء الأرض ويستعمر قاراتها الخمس.

يقول العلماء حول هذه القصّة المثيرة، إن الحيوانات والقرود وغيرها من أجناس مختلفة كانت في تلك المدة من الزمان أي ما يرجع إلى (٨) ثمانية ملايين سنة تقريباً. كانت منتشرة على معظم القارة الافريقية التي كانت تكسوها الغابات والأشجار المثمرة وكانت تعيش حياة وفيرة وطيبة. إلى أن وقع حادث جيولوجي كبير في طبقات الأرض قسم القارة إلى قسمين وأنشأ بينهما سلسلة جبلية ضخمة تمتد آلاف الكيلومترات من البحر الأحمر شمالاً حتى جنوب افريقيا جنوباً.

هذه السلسلة الجبلية أحدثت ظروفاً طبيعية جديدة وشكلت حاجزاً ضخماً قسمت القارة إلى جزئين شرقي وغربي وعزلت وفرقت الحيوانات شرقاً وغرباً بحيث لم يعد ممكناً أي اتصال بين تلك الحيوانات.

كما شكلت السلسلة أيضاً حاجزاً أمام الغيوم القادمة دوماً من الغرب من المحيط الأطلسي ومنعتها من الاجتياز إلى الشرق. فأصبحت تلك الغيوم تهطل أمطارها على الرقعة الغربية دون الرقعة الشرقية وأصبحت بذلك الرقعة الشرقية تعاني من الجفاف وقلة الأمطار مما أدى إلى تغير المناخ وتناقص الغابات حتى بدا المكان شبه صحراوي تنتشر عليه بعض الأشجار القليلة هنا وهناك فأصبحت الحيوانات على تلك الرقعة تواجه مشاكل لم تكن تعرفها من قبل وصارت مضطرة للعيش على الأرض بدلاً من الأشجار وللمشي بدلاً من التسلق وأصبحت بحاجة للوقوف على

أقدامها من أجل مراقبة أعدائها في الآفاق وهي الحيوانات المفترسة.

مما أدت كل تلك الأفعال الضرورية شيئاً فشيئاً إلى اعتدال قامة القرود بسبب تلك الظروف الصعبة طوال ملايين السنين حتى أصبحت تسير على قدمين بدلاً من أربع كما فقد شعرها وذنبها... هذا في الجانب المادي من الجسم.

أما في الجانب المعنوي فإن تلك الظروف والمحيط الجغرافي وكثرة المشاكل دفعت القرود عبر تلك المدة الطويلة إلى أن تبدأ بشبه عمليات تفكير لمحاولة حلّ مشاكلها والتغلب على الصعاب.

وهكذا تدريجياً كبرت جماجمها حتى أصبحت أول إنسان بدائي قبل (٣ إلى ١,٧) مليون سنة تقريباً. وأصبحت تستخدم أدوات من الحجارة والعظام وهكذا شيئاً فشيئاً أصبح لها غرائز وأخلاق جديدة لم تكن من قبل. ولقد عثروا على جماجم لذلك الإنسان البدائي في كينيا وتنزانيا يبلغ حجم دماغه (٦٠٠) ست مئة سنتم^{3} تقريباً.

وهكذا راح الباحثون يكتشفون في أعمال التنقيب والحفريات جماجم مختلفة هنا وهناك وأن تلك الجماجم كلما اقتربت من تاريخنا كلما لوحظ أنها أكبر حجماً من جماجمها حتى ظهرت جماجم الإنسان الحديث قبل (٣٠,٠٠٠ إلى ١٢٥,٠٠٠) ثلاثين ألف إلى مئة وخمسة وعشرين ألف سنة. والمبتكر والمستخدم لأدوات متعددة، كما أنه أول فنان ظهرت لديه غريزة حب الجمال كالرسم على جدران الكهوف والعظام والزخرفة... وغير ذلك من غرائز إنسانية. بينما بقيت الحيوانات التي تعيش على الرقعة الغربية من السلسلة الجبلية على ما هي عليه دون أن يطرأ عليها أي تطور يذكر إلى يومنا هذا.

وهكذا يكون ظهور الإنسان على الأرض من وجهة نظر علماء التطوّر هو مجرد صدفة ونتيجة لظروف وعوامل طبيعية. دون أن يكون في ذلك تخطيط مسبق أو مشروع ما أو إرادة إلهية.

صحيح أن الحيوانات على هذه الأرض تتشابه إلى حدٍ كبير فيما بينها، في هياكلها العظمية وأجسامها وجوارحها وحواسها الخمس وأعضائها وخلاياها النباتية. وكذلك في احتواء أجسامها على نفس كمية الماء وكذلك تتشابه في دمائها وعظامها وغرائزها وأخلاقها. فلو أخذنا مثلاً قطعة من اللحم أو العظم أو دم من أحد القرود ثم أردنا أن نميز بينها وبين نفس الشيء من جسم الإنسانً لما استطعنا التميز بينهما بسهولة إلاّ بعد تحليل معمق في الخلايا.

هذا التشابه الكبير بين الحيوانات هو الذي دفع شارل داروين إلى الاعتقاد بأن لهذه الحيوانات المختلفة أصلٌ مشترك. ربما يكون صحيحاً فهي مجرد نظرية قابلة للبحث والنقاش. صحيح أيضاً أن كل شيء جديد يأتي مخالفاً لما كان يعتقده الإنسان من قبل وما تعلمه منذ الصغر وما ورثه من آبائه يكون تقبله صعباً وليس بالشيء السهل.

فالذي كان يعتقد أن الله خلقه على أحسن مثال ونفخ فيه من روحه ورفعه فوق سائر أجناس الحيوانات يصعب عليه أن يقبل كونه مجرد صدفة وأنه بمستوى سائر الحيوانات وينتمي إلى عائلتها ومنها انبثق. فسنحاول في هذا البحث أن نكون منفتحين إن شاء الله ومستعدين لتقبل أي حقيقة كانت مهما كان تقبلها صعباً، ومن أي جهة أتت.

فلقد أصبح اليوم من العلم المؤكد تطور الكون بمجراته ونجومه وكواكبه وكذلك الأرض التي نعيش عليها هي في حالة تطور دائم. كذلك الدلائل كثيرة بالنسبة لأصناف الحيوانات المختلفة هي أيضاً في تطور دائم. هذا ما يعتقد به معظم الغرب اليوم.

وهنا نواجه مشكلة فلو أقررنا بصحة نظرية التطور لدى سائر أجناس الحيوانات، كيف لنا أن ننفيها عن الجنس الإنساني بشكل خاص. كما أن قبول التطور على الإنسان فإن ذلك يعني إنهيار بعض أصول الدين. وكما ذكرت سابقاً هي لحد الآن مجرد نظرية فلا نريد أن نهدم شيئاً لنبني مكانه

شيئاً آخر غير مؤكد، فسنستمر كذلك بالتمسك بالنظرة الدينية حول ظهور الإنسان على الأرض حتى ظهور دليل مؤكد قاطع ينسف ذلك الاعتقاد.

ولكن قبل كل شيء لا زال لدينا بعض الأسئلة والاعتراضات نود توجيهها لأصحاب نظرية التطور.

ـ **أولاً**: إذا كانت الظروف الطبيعية وذلك المحيط الجغرافي هو السبب في ذلك التطور وفي ظهور الإنسان، فلماذا لم يحدث ذلك لباقي الأجناس والتي فرضت عليها نفس الظروف الطبيعية على تلك الرقعة من الأرض. فلماذا فقط نوع واحد منها تطوّر وارتفع إلى هذا المستوى العالي من الادراك والذكاء دون الآخرين؟.

ـ **ثانياً**: الفرق شاسع جداً في الذكاء والادراك العقلي بين الإنسان وغيره من أجناس فالقرد مثلاً أو الأسد أو الحمار أو الغزلان أو الفيلة أو الطيور وغيرها من حيوانات... تتشابه إلى حدٍ كبير فيما بينها في مستوى ذكائها وادراكاتها.

أما إذا ما قارناها بالإنسان فهنالك فرقٌ شاسع! فكيف حدث هذا الفارق؟ فإذا كانت الظروف الطبيعية قد فرضت على الجميع في تلك الرقعة من الأرض.

فيجب أن يكون الفارق بينه وبين سائر الحيوانات فارق بسيط جداً كالفرق مثلاً بين القرد والغوريلا أو كالفرق بين الحمار والحصان أو بين الفيل ووحيد القرن ولكن الحقيقة أنه يفترق عنهم بدرجة كبيرة فكيف حدث هذا؟.

نعم لقد حاولت بعض الفلسفات العنصرية أن تملأ هذا الفراغ بين الإنسان والقرد ببعض أجناس البشر كأقزام البغمي التي تعيش في الغابات الاستوائية في القارة الافريقية وكذلك العرق الزنجي وغيرهم باعتبارهم ليسوا بمستوى الإنسان الأبيض، وهذا ما حصل فعلاً في جنوب أفريقيا

وإنشاء مجتمع قائم على التمييز العنصري قبل إلغائه بعدما استمر لعدة قرون وبل لحد الآن نجد بعض العنصريين يقولون للأسود عبارة «من أنزلك عن الشجرة» الحقيقة إن الفوارق بين أجناس البشر المختلفة هي فوارق بسيطة وجزئية هذا في الجانب الفزيولوجي للجسم أما في الجانب البسيكولوجي نعم يمكن أن نلاحظ جنساً أذكى من جنس ولكن ذلك يرجع إلى البيئة والثقافة لذلك الجنس.

فمهما هبطت ثقافة جنس من الأجناس فإن ذلك لا يسلب عنها هوية الانتماء إلى العائلة الإنسانية. وكذلك مهما ارتفعت درجة الذكاء لدى بعض الحيوانات فإن ذلك لن يرفعها وينسبها إلى العائلة الإنسانية. لأن الهوّة بين الإنسان والحيوان سحيقة.

نعم يقول علماء التطور أنهم عثروا على ما يسد ويردم تلك الهوّة بين الإنسان والحيوان وهي جماجم لكائنات هي فوق القرد ودون الإنسان.

كما أنهم عثروا أيضاً على جماجم لنوع آخر إنسان (نيواندرتال) يُعتقد أنه أقل مرتبة من الجنس البشري. ولكن قبل أن أدخل في هذا الموضوع سأكمل ما بدأته ثم أعود لاحقاً لذلك.

ـ **ثالثاً**: إذا كانت ظروف المكان والمحيط الجغرافي في شرقي القارة الافريقية بعد الحادث الجيولوجي هي سبب التطور وظهور الإنسان. فلماذا لم تتكيف تلك الحيوانات مع ذلك المحيط تكيفاً بسيطاً كتكيف حيوانات الصحراء مع الحر وقلة الماء والعشب. أو كتكيف حيوانات القطب مع البرد الشديد أو كتكيف حيوانات الجبال العالية مع البرد ونقص الأوكسجين في الهواء بل وحتى لو سارت الحيوانات على قدمين بدلاً من أربع فإن ذلك ليس كمالاً لأن كل هذه التكيفات هي مادية وواقعة في الجانب المادي للجسم.

وكما أن الحادث الجيولوجي حادث بسيط نوعاً ما (مناخي) كذلك يجب أن يكون تطور الحيوانات وتكيفها مع ذلك المحيط بسيط ومادي.

كرد على تلك الظروف. ولكن الشيء المذهل هو المستوى البسيكولوجي لدىٰ الإنسان كيف حدث هذا؟.

ـ **رابعاً**: الإنسان كما ذكرت يختلف كثيراً عن القرد وسائر الحيوانات خصوصاً في الجانب الروحي (البسيكولوجي) فللإنسان عقل وغرائز إنسانية لا توجد لدى سائر الحيوانات كغريزة حب الاستطلاع، وغريزة حب الخير، وغريزة الفن وحب الجمال، وغريزة حب الله والتوجه إليه.

كل هذه الغرائز هي التي تدفع الإنسان إلى سلوكه الخارجي وليس العكس أي ليست الظروف والمحيط الجغرافي هي التي تخلق الفعل وتولّد الغريزة. فالغريزة سابقة على الفعل وهي الدافع والمحرك الذي يدفع الإنسان لأفعاله التي يتميز بها عن غيره من حيوانات. نعم يمكن للظروف الخارجية أن تدفع الإنسان نحو الترقي والكمال وهذا ما نسميه البلاء كمواجهة الصعاب أو النقص في الموارد أو غير ذلك من بلايا. فهي بشكل عام تكون نتائجها إيجابية على الإنسان في أكثر الأحوال أفضل مثال على ذلك هو ما أشعر به أنا الآن شخصياً. بكتابة هذا الكتاب في ظروف صعبة وهي السجن ولولا هذه الظروف لما فكرت يوماً ما بكتابة كتاب أو بمثل هذه المواضيع. لأن بالحرية خارج السجن عوائق كثيرة وظروف ومحيط غير ملائم. لذلك، ولكن أرجع وأقول أن الغرائز الإنسانية شرط أساسي للرقي. فلو أخذنا مثلاً قرداً أو حيوانا آخر ثم عرضناه للبلاء فلن يصبح بعد ذلك حكيماً وبل حتى البشر ليس البلاء والنقص في الموارد يحدث لهم دائماً كمالاً أو تقدماً اجتماعيا، ففي بعض الأحيان يُحدث بينهم تقاتلاً وسفكاً للدماء وتصارعاً وأنانية واستئثاراً بالموارد القليلة.

وهنا يأتي برنامج الدين وأهميته البالغة في إصلاح ذلك الصراع بعلاجين داخلي وخارجي والأهم هو العلاج الداخلي بإحداث تبديل في

طريقة التفكر لدى البشر وإقناعهم بعقيدة تبدل السلوك الخارجي الشرير وتدعوهم إلى الصبر والتسامح وسائر الأخلاق الحسنة ووعدهم بالجنة بعد الموت وإن البلاء اختبار من الله. . . إلخ.

أما العلاج الخارجي هو إقامة الحدود على فاعلي الشر على مَلَإٍ من الناس لكي يروا ذلك ويتعظوا كي لا يفعلوا شراً.

وهذا لا يعني أن الدين ابتكار من صنع البشر لحل المشاكل المفروضة عليهم فهو بالإضافة إلى حل مشاكلهم يؤمن لهم سعادة روحية وطمأنينة ويستجيب لما يشعر به الإنسان في أعماق نفسه من انجذاب نحو الله. وهي غريزة من أهم الغرائز في النفس الإنسانية حب الله والتوجه إليه.

خامساً: لو قالوا أن التطور الذي حدث على مرور ملايين السنين وعبر الأجيال في الجانبين الروحي والمادي للجسم حصل شيئاً فشيئاً وإن تلك التطورات البسيطة والجزئية قد توارثها جيل بعد جيل حتى تراكمت جميعها في هذا الإنسان الحديث وكما نرى جعلته في أحسن تقويم.

فإن ذلك غير مؤكد تماماً لأن الصفات المكتسبة في الجانبين المادي والروحي (الفزيولوجي والبسيكولوجي) لا تورّث. فلو زوجنا مثلاً بطل العالم في السباحة أو الجري مع بطلة العالم في السباحة أو الجري فلا يعني ذلك حتماً أن ولدهم سيولد وسيكون ماهراً في السباحة والجري.

ربما لا يجيد السباحة على الاطلاق، فلو أراد أن يكون ماهراً بطلاً فعليه أن يتدرب كما تدرب والده على ذلك. هذا في الجانب المادي (الفزيولوجي) للجسم.

أما في الجانب الروحي (البسيكولوجي) كذلك أيضاً الصفات المكتسبة لا تورّث، وإلاّ لكان ولد العالم عالماً وولد الفيلسوف فيلسوفاً وولد الطبيب طبيباً. . .

ولو قيل أن ذلك يحدث عن طريق التعليم وليس الوراثة، هذا أيضاً

غير صحيح لأن كثيراً من أنواع الحيوانات لا ترى والديها على الاطلاق. كالسلحفاة البحرية مثلاً أو سمك السلمون. ففي كل سنة تأتي السلاحف البحرية إلى سواحل البحار الاستوائية فتضع بيضها في حفرة تحفرها بالرمال على عمق نصف متر تقريباً ثم تغادر ذلك المكان بعدما تطمر الحفرة بالرمل وترحل إلى أماكن بعيدة.

وما أن تنضج تلك البيوض تخرج منها سلاحف صغيرة الحجم فتشق طريقها في الرمل صعوداً إلى الهواء الطلق وبدون أي مساعدة من أحد، وما أن تخرج حتى تبدأ زحفاً نحو البحر ولو كان ذلك في الليل المظلم. وهكذا تسافر وحدها لأول مرّة بلا تعلم مسبق، ولا أحد يعلم أين تذهب حتى تعود بعد سنوات إلى نفس ذلك الساحل من البحر فتفعل كما فعلت أمها من قبل، تبيض في الرمل ثم تغادر ذلك المكان. فأين تعلمت يا ترى هذه الحيوانات ذلك؟ وكيف انتقل إلى أولادها؟ فما الهادي لها سوى الغريزة التي تتمتع بها وتميزها عن غيرها في هذا الفعل. فلكل جنسٍ من الحيوانات غرائزه وصفاته وهويته الخاصة به.

حتى التعليم لدى الجنس البشري لا يحصل إلا بعد تجارب وإعادة وتكرار فلو خرج ولد مثلاً مع والديه إلى نزهة في بعض أماكن المدينة ثم ترك هنالك وحيداً لما استطاع ذلك الولد من العودة وحيداً إلى منزل والديه إلا بعد تعلمه ذلك مراراً وفي عمرٍ مناسب يمكنه من اكتساب المعرفة.

ـ **سادساً**: إن تلك السلسلة الجبلية شرقي القارة الافريقية لا تزال موجودة إلى عصرنا هذا والرقعة التي تقع إلى الشرق منها هي رقعة كبيرة يبلغ طولها آلاف الكيلومترات وعرضها مئات الكيلومترات، ويحدها شمالاً البحر الأحمر وغرباً السلسلة الجبلية وشرقاً المحيط الهندي وجنوباً أيضاً المحيط الهندي والسلسلة الجبلية.

وهي رقعة نوعاً ما خصبة تنتشر عليها الغابات الاستوائية والأنهار

كما أن نسبة هبوط الأمطار ليست بالقليلة. وبل حتى لو رجعنا إلى (٨) ثمانية مليون سنة من قبل فليس من المؤكد أن يكون الجفاف والتصحّر قد أصابها بشكل كلّي.

وها هي اليوم تعجّ غاباتها بالحيوانات المختلفة. ومن بين الدول التي تقع على تلك الرقعة من الأرض دولة كينيا وتنزانيا واللذان يعتبران الأكثر سياحة في القارة الافريقية نظراً لكثرة الحيوانات هناك. والقرود وغيرها تلعب وتسرح وتمرح هناك إلى يومنا هذا.

ـ سابعاً: فلا يعقل أبداً أن يكون ما وصل إليه الإنسان من تقدم واكتشافات في مختلف الميادين واكتشاف الذرّة والمجرّة وغزو الفضاء والنزول على سطح القمر واختراع الكمبيوتر وغير ذلك... لا يُعقل أن يكون كل هذا التقدم هو نتيجة مجرد حادث جيولوجي حشر القرود شرقي القارة الافريقية.

كل هذه التساؤلات تجعلنا نقف في شكٍ، غير مستيقنين من نظرية التطور وانطباقها على الجنس الإنساني بشكل خاص.

والآن أرجع إلى ما ذكرته سابقاً من أن العلماء اكتشفوا في أعمال التنقيب والحفريات شرقي القارة الافريقية وغيرها من أماكن من العالم على نماذج لجماجم وعظام لكائن شبه إنساني هو فوق القرد ودون الإنسان. يُعتقد أنه حلقة الوصل التي تربط السلسلة بين الإنسان والحيوان.

كما أنهم عثروا على جماجم لكائن آخر كان معاصراً للإنسان الحديث ويعيش جنبا إلى جنب معه على نفس المكان وفي نفس المحيط الجغرافي في آسيا والشرق الأوسط وأوروبا وهو إنسان أطلق عليه اسم (نيوأندرتال) يرجع تاريخه إلى (١٣٠,٠٠٠) مئة وثلاثين ألف سنة وتتميز جمجمته عن الإنسان الحديث أنها رقيقة في الجبهة فوق الحواجب إلى أعلى الرأس كما أن فمه بفكيه الأعلى والأسفل نافران إلى الأمام

كذلك أنفه يتميز بكبر حجمه. يعتقد العلماء أن هذا الكائن انقرض نوعه منذ ما يقارب (٣٠ إلى ٣٦) ألف سنة.

أما سبب انقراضه يعتقدون أنه يمكن أن يكون بسبب تأخره صناعياً عن الإنسان الحديث. أو لأنه أقل ذكاء من الآخر. أو بسبب أنه أقل نضوجاً من الناحية الاجتماعية والتنظيم. أو بسبب أنه أقل خصوبة في نسله من الآخر. أو ربما يكون بسبب نشوب حرب بينهما قضى الثاني على الأول وأباده.

كما لا يعتقدون أن يكون بينهما زواج متبادل وتناسل بسبب الاختلاف الكبير فيما بينهم في الشكل ولكن بشكل عام مهما كانت أسباب انقراض إنسان (نيو أندرتال) فإن علماء التطور لا يعتبرونه حلقة من حلقات السلسلة التي تربط الإنسان الحديث بالحيوان لسبب أنه كان معاصراً للإنسان الحديث ويعيش بجواره في نفس المكان والزمان. فلذلك هم يضعونه في منزلة خاصة.

بعد هذا العرض لنظرية التطور وظهور الإنسان بشكل خاص نخرج بالنتيجة التالية: يوجد أمامنا هوتان: هوّة بين الإنسان الحديث وبين الحيوان من جهة. وهوّة بين الإنسان الحديث ومعاصرة إنسان (نيواندرتال) من جهة أخرى. أما الهوّة التي بين الإنسان الحديث والحيوان المشابه للقرد يحاول أصحاب نظرية التطور ردم هذه الهوّة بطائفة من العظام والجماجم عثروا عليها هنا وهناك ويحاولون بها وصل السلسلة بين الإنسان والحيوان كي يثبتوا صحة النظرية بأن الإنسان الحديث هو نتيجة التطور.

والهوّة الثانية بين الإنسان الحديث وإنسان (نيواندرتال) يحاول الباحثون معرفة سبب تلك الهوّة وأصل ذلك الكائن وسبب انقراضه.

أما بالنسبة للعظام والجماجم التي عثروا عليها ويحاولون بها ردم

الهوّة ووصل السلسلة بين الإنسان والحيوان.

فأمامنا ثلاث احتمالات لتحديد هوية تلك الجماجم.

أولاً: إما أن تكون تلك الجماجم لكائنات انحدرت من الإنسان بسبب تشوّه في الخلق. أو تكون لكائنات قد مسخت عقاباً إلهياً بسبب ذنوبها وعصيانها كما تذكر بعض الروايات الدينية. فتكون قد هبطت من درجتها الإنسانية إلى درجة أقل مرتبة.

ثانياً: وإما أن تكون تلك الجماجم قد انبثقت من ذلك الحيوان المشابه للقرد وتكون قد تطورت وارتفعت درجة عن ذلك الحيوان. وهذا ما يعتقد به علماء التطور.

الاحتمال الثالث: هي أن تكون تلك الجماجم لكائنات أخرى غير الحيوان وغير الإنسان، بل لها هويتها الخاصة بها. وليست بهابطة عن درجة الإنسانية ولا بمرتفعة عن درجة الحيوانية. أي الاحتمالات الثلاثة تمثل الحقيقة؟ الله أعلم! ففي هذا الشك يجب أن لا نرفض نظرية التطور بشكل قاطع، ربما المستقبل يزودنا بمعطيات جديدة تزيل الشك وترجّح كفة الميزان إلى أحد الجانبين.

أما بالنسبة للهوّة التي بين الإنسان الحديث وإنسان (نيواندرتال) ربما يكون اختلافه بسبب تشوّه في الخلق أو مرض تناسلي. أو مسخ حسب بعض الروايات الدينية. أو جنس من أجناس البشر المتعددة كأقزام (البغمي) وغيرها من أجناس. ثم أنه لا يختلف إلى حدٍ كبير جداً عن البشر فلقد أعيد تركيب صورته بواسطة جهاز الكمبيوتر استناداً إلى العظام والجماجم التي عثر عليها. وكانت النتيجة صورة لإنسان طويل القامة قوي البنيان ضخم العضلات رقيق الجبهة، عظيم الأنف، أسفل الوجه خارج إلى الأمام، لا يختلف كثيراً عن الانسان الحديث.

أما عن احتمال انقراضه بسبب عدم تقدمه صناعياً. أعتقد أن هذا الاحتمال ضعيف جداً. فها نحن اليوم نعيش في أواخر القرن العشرين وتقدم الحضارة الإنسانية في مختلف الميادين حيث وطىء الإنسان بقدميه أرض القمر. لا زال على سطح الأرض أجناس من البشر يعيشون العصر الحجري. فلقد عُثر حديثاً على قبائل وسكان في جزيرة غينيا الجديدة (بابوازي) وهي جزيرة كبيرة يبلغ طولها أكثر من (٢٠٠٠) ألفين كيلومتراً وعرضها حوالي (٧٠٠) سبع مئة كيلومتراً. عُثر هناك على سكان معزولة في الغابات والجبال يعيشون فعلاً العصر الحجري حيث إن معظم أدواتهم مصنوعة من الحجارة والعظام والخشب، ويجهلون تماماً صفة المعادن كما يجهلون كروية الأرض والقارات الخمس ووجود العرق الأبيض في البشر وعندما شاهدوا الإنسان الأبيض لأول مرّة ذهلوا وصدموا تماماً واعتقدوا أن أجدادهم الموتى قد بُعثوا من المقابر وابيضت ألوانهم.

هذا بشكل عام وجهة النظر العلمانية حول أصناف الحيوانات المختلفة على وجه الأرض وظهور الإنسان. وهي نظرة مادية محضة ترجع ذلك التطور الكيفي المستمر إلى مجرد الصدفة.

أما بالنسبة للنظرة الدينية سواء منها الإسلامية أو المسيحية أو اليهودية فهي لا تعترف بنظرية التطور خصوصاً ظهور الإنسان وانبثاقه من حيوان آخر كالقرد فإن ذلك مرفوض بتاتاً وهو مخالف للأصول الدينية التي تعتقد أن الله خلق الإنسان منذ البدء على أفضل مثال وفي أحسن تقويم ثم نفخ فيه من روحه وهذا الإنسان الأول هو آدم أبو البشر ومنه تناسلت البشرية جمعاء. ولدى المسيحية خلقه الله على صورته وكل الروايات والآيات الدينية تجمع على أن آدم خُلق من تراب. ﴿من طينٍ لازب﴾. ﴿من صلصالٍ كالفخار﴾. ﴿من حمأ مسنون﴾. وكلها عبارات تعني الطين وهو ما يوجد خصوصاً تحت الأماكن التي يستنقع بها الماء. والطين

لكثافته يمنع من تسرب الماء من خلاله.

وسمي آدم آدم لأنه من الأرض، والآدم هو اللون الأسمر كلون التراب. والروايات الدينية المختلفة تُرجع تاريخ آدم إلى ما قبل (٦٠٠٠ إلى ١٠,٠٠٠) سنة تقريباً.

فالنبي محمد جاء منذ (١٤٠٠) سنة. وعيسى (٢٠٠٠) سنة. وموسى منذ (٣٣٠٠) سنة.. وإبراهيم منذ (٣٥٠٠) سنة تقريباً.

إلى نوح ومن قبله آدم حوالي (٦٠٠٠ إلى ١٠,٠٠٠). ولكن هنا النظرة الدينية تواجه مشكلة حقيقية حول هذا التاريخ فعلماء الآثار والتنقيب عثروا على جماجم للإنسان الحديث يرجع تاريخها إلى ما قبل (٣٠ إلى ١٢٥) ألف سنة وهي مدة بعيدة جداً عن التاريخ الديني لوجود الإنسان على الأرض.

هذا ناهيك عن الجماجم التي عثروا عليها شرقي أفريقيا لكائن يعتبره علماء التطور الإنسان البدائي الأول يرجع تاريخه إلى ما قبل (٣ إلى ١,٧) مليون سنة. عُثر بجواره على أدوات من الحجارة والعظام كان يستخدمها للصيد أو لتقطيع اللحم وغير ذلك...

وهنا يحق لنا أن نتساءل ما هذا التناقض بين العلم والدين؟ هل هما سبيلان مختلفان أم أنهما متفقان في الجوهر ومختلفان في التفاصيل؟ أم أن الآيات والروايات الدينية بدائية ورمزية. وهل الله يستعمل الرمز في مسائل مهمة كهذه؟ أم أن الإنسان لم يكن ناضجاً في ذلك الزمان لتقبل حقائق فوق مستوى نضوجه الفكري كالولد الصغير عندما يسأل أباه عن شيء معقّد فيجيبه أبوه رمزياً وباختصار بكلام بسيط بمستوى فهمه.

فبعض المواضيع مثلاً يمكن لنا أن نفسرها بوجهين وجه بدائي بسيط ووجه علمي مفصل ولا تناقض في ذلك. كأن يقول مثلاً النصّ الديني

إن الله خلق آدم من تراب. والعلم الحديث يقول إن التراب المخلوق منه آدم هو أربع عناصر ذريّة هي الهيدروجين والكربون والآزوت والأوكسجين. ففي الوجه الأول الكلام بسيط يتناسب مع عقول وفهم أناس كانوا قبل بضعة آلاف سنة. فلو قيل لهم مثلاً أن آدم مخلوق من عناصر ذرّية كذا وكذا لما كان باستطاعتهم فهم ذلك.

أما النص العلمي الحديث فهو أكثر عمقاً ويتناسب مع عقول وفهم أناس اليوم وهكذا يكون كلا النصين صحيحاً في الجوهر ومختلف في التفاصيل ويمكن استخدام الاثنين كلٌ في زمنٍ من الأزمان.

طبعاً هنا أخذنا نصًّا يمكن تفسيره بوجهين. ولكن بماذا نفسر التناقض بين التطور في الأجناس وبين النص الديني المناقض لذلك. بين أن آدم هبط من السماء وبين أنه انبثق من الأرض من حيوان.

وبل حتى الروايات الدينية نفسها لا تخلو من تناقضات بعضها يقول أن الجنة التي خرج منها آدم وحواء هي موجودة في السماء وأن آدم قد هبط منها عقوبة له بسبب المعصية وأكله من الشجرة. بينما تذهب بعض الروايات إلى أن الجنة التي خرج منها آدم هي جنة من جنان الأرض وليس السماء ويُحدَّد مكانها بالعراق وسوريا اليوم وهي بلاد ما بين النهرين الفرات ودجلة. هذا ما تقوله التوراة والانجيل.

أما في الروايات الإسلامية الظاهر أنها جنة السماء كقول الله تعالى:

ـ بسمّ الله الرحمن الرحيم. **﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾** **﴿فأزلهما الشيطان عنها فأخرجها ممّا كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعضٍ عدوّ ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾**[1].

ـ كما جاء أيضاً في بعض الأخبار: أن آدم لما هبط من الجنة. هبط

---

(١) القرآن الكريم سورة البقرة آية ـ ٣٥ ـ ٣٦.

هو على الصفا وحواء على المروة. وهما صخرتان قرب الكعبة وزمزم، يسعى الحاج بينهما سبعة أشواط كانتا في الجاهلية مقدّستين.

- وجاء في حديث آخر عن الإمام جعفر الصادق سأله رجلٌ عن جنة آدم عليه السلام. فقال: جنة من جنان الدنيا تطلع فيها الشمس والقمر ولو كانت من جنان الآخرة لما خرج منها أبداً[1]:

الظاهر من هذا الحديث أنها في الأرض بلا شك. وهذا أقرب إلى المنطق العلمي.

ثم إن كلمة هبط لا تعني بالضرورة أنه هبوط بشكل عمودي من السماء إلى الأرض، يمكن أن نقول هبط أيضاً لشخص كان في الجبل أو على مرتفع ثم نزل وهبط إلى السهل إلى الوادي. أما كلمة جنة في اللغة العربية فإنها تطلق أيضاً على البستان، كما جاء في القرآن عبارة ﴿جنةٍ بربوة﴾ أي بمرتفع. أو كما جاء في ذكر آل فرعون بقوله: ﴿كم تركوا فيها من جناتٍ وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين﴾. والمقصود هنا بهذه الجنات بساتين ضفاف النيل.

أما بالنسبة للجماجم التي عُثر عليها شرقي القارة الافريقية. والتي يعتقد علماء التطوّر أنها لكائن بدائي هو فوق القرد ودون الإنسان يمثل حلقة الوصل في سلسلة التطوّر. تذكر بعض الأخبار والأحاديث الدينية أنه يوجد كائنات تشبه الإنسان ولكنها ليست من نسل آدم كحديث ورد عن الإمام جعفر الصادق أنه قال: إن أولاد بني آدم سموهم إنساً،

والناس كلهم ولد آدم ما عدا يأجوج ومأجوج. كذلك أيضاً ورد يأجوج ومأجوج في القرآن في سورة الكهف من آية (٩٢ حتى آية ٩٩) فمن هم يا ترى يأجوج ومأجوج؟ هل هم تلك الكائنات التي عُثر على جماجم منها شرقي إفريقية. أم أن المقصود بذلك إنسان (نيواندرتال). أم

---

(١) الكافي ج ـ ٣ ـ ص ـ ٢٤٧.

أن المقصود غير ذلك. فلقد وردت حديثاً أخبار من آسيا الوسطى وبالتحديد من منطقة تقع شمالي باكستان مع الحدود الأفغانية، تقول تلك الأخبار أنه شُوهد في الجبال كائن غريب الشكل منحني الظهر يكسو معظم جسمه الشعر، يشبه إلى حدٍ كبير إنسان (أوسترالوبيتك) والذي يرجع تاريخه إلى ما قبل (٢,٥ إلى ٣,٥) مليون سنة. مما دفع بعض الباحثين والعلماء المختصين بتاريخ الإنسان إلى التوجه إلى تلك المنطقة جمعوا خلالها شهادات متعددة خصوصاً من الرعاة في الجبال. وكانت تلك الشهادات في معظمها متطابقة فيما بينها تؤكد رؤية ذلك الكائن ومواصفاته. وإذا تأكد فعلاً يوماً ما وجود ذلك الكائن فإن ذلك سيكون تناقضاً صارخاً سيفرض على أصحاب نظرية التطوّر إعادة حساباتهم حول تطوّر وظهور الإنسان الحديث.

وفي الختام نقول إن الدلائل في عالم الطبيعة والآثار كثيرة تؤكد في معظمها نظرية التطوّر بما يتعلق بأجناس الحيوانات المختلفة على وجه الأرض. ولكن الشيء المرفوض بنظري هو أن يكون ذلك التطوّر مجرد صدفة دون أن يكون وراء ذلك إرادة ومشيئة إلهية.

بل الله هو الخالق لكل شيء فلا حدوث لخلقٍ جديد أو انقراض لجنسٍ ما، إلاّ بإذنه ومشيئته، فهو الموجّه لحركة التطوّر في عالم الطبيعة، بيده الوجود والعدم..

وهذا التطوّر الموجَّه هو السبيل الوحيد أمام الأديان. لأنه يعترف بحركة التطوّر وبخالقية الله في آنٍ واحد، ويُرجع الحركة إلى إرادته ومشيئته.

وهذا ما تبنته الكنيسة الكاثوليكية مؤخراً. ولكن بالنسبة لظهور الإنسان الحديث يجب التأني وعدم التسرّع في ضمه إلى سلسلة التطوّر لسبب عمق الهوّة بينه وبين الحيوان.

ثانياً فلو كان كذلك فهذا ماذا يعني من الناحية الدينية؟ هل أن الله

كان عاجزاً عن خلقه دفعة واحدة، ليخلقه تطوراً شيئاً فشيئاً نحو الأحسن بعد تجارب؟ طبعاً هذا يتنقض مع أزلية علم الله وقدرته. أم أن الله أراد بذلك أن يُري الإنسان أصله الذي انبثق منه كي يتواضع ويتعامل مع الله بمزيد من الحب والشكر على ما فضله وكرمه ورفعه فوق سائر الأجناس؟ الله أعلم.

ـ أبعاد الجسم ـ

إعلم أنه لأي جسم كان في عالم الوجود أبعاداً أربعة. سواء منها الأجسام الجامدة كالأرض أو الجبل أو الهرم أو المنزل. . . أم الحيّة منها كالإنسان والحيوان والنبات. كلها على حدٍ سواء تسمى أجساماً.

والأبعاد هي: الطول، والعرض، والعمق. ثم أضيفت إليها لاحقاً الزمن.

ولكن أعتقد أنه للجسم خمسة أبعاد وليس أربعة.

ثلاثة منها رياضية وهي: الطول، والعرض، والعمق.

وواحد منها فيزيائي وهو الزمن. (أي الأجل).

وواحد منها إلهي ميتافيزيائي وهو: الكتاب. (أي المشيئة).

جميع الأجسام في عالم الوجود تخضع لهذه الأبعاد الخمسة.

أما المخلوقات الغير مادية المجردة فهي لها بعدين فقط وهما: الرابع والخامس.

ـ إليك شرحها: الطول والعرض والعمق هي أبعاد معروفة. فلو أخذنا جسم الإنسان مثلاً. الطول هو من قمة الرأس إلى أسفل

القدمين. والعرض هو ما بين الأكتاف. والعمق هو ما بين الصدر والظهر. هذه الأبعاد الرياضية.

ـ **أما الزمن**: وهو أنه لكل جسم سواء جماداً كان أم حياً فإن له أجلاً وزمناً وعمراً وهذا الأجل هو منذ إنشائه وتحقق وجوده حتى فنائه وتحلله. مهما طال ذلك الزمن أم قصر. فللأرض أجلٌ. وللشمس أجلٌ. كما للإنسان والحيوان والنبات أجلاً. والله وحده هو العالم والمحدد لتلك الآجال. ففي كل لحظة في عالم الوجود تتكون أجسام وتفنى أجسام.

أما الله جل جلاله فلا أجل له يجري عليه. هو الأزل والأول والآخر والحي الذي لا يموت ولا يفنى.

وهذا الزمن التي تخضع له كل الأجسام هو زمن غير الزمن الناتج عن دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس. فهذا زمن آخر غير الأجل الذي تكلمت عنه، وهو مقياس زمني ليس إلاّ، لأن المقاييس الزمنية تختلف من كوكب لآخر، فإذا كان عمر أحد الأجسام على هذه الأرض سنة مثلاً، هو نفسه قد يكون سنتان على كوكب آخر إذا كان طول النهار هنالك (١٢) اثنا عشر ساعة بدلاً من (٢٤) أربعة وعشرين هنا. وقد يكون عمره (٦) ستة أشهر في كوكب آخر إذا كان طول النهار هنالك (٤٨) ثماني وأربعين ساعة. إذا الفرق واضح بين عمر الجسم وأجله الأصلي وبين المقاييس الزمنية المختلفة هنا وهناك.

ـ **وأما الكتاب**: وهو أنه لكل جسم من الأجسام أو حتى روح مجردة من الأرواح في إيجادها أو عدمها مشيئة إلهية قضت ذلك. حتى لو تحقق ذلك الإيجاد والعدم على يدي الإنسان. فهو ليس بخارج عن مشيئة الله وقضائه وقدره فبمشيئته خلق كل شيء في الوجود. كل جسمٍ وكل روح وبمشيئته خلق الأبعاد من الطول والعرض والعمق والزمن. وبمشيئة الحياة والموت لكل روح ونفس فلا تحقق لأي جسم كان بأبعاده الأربعة إلاّ وبُعد الله الخامس يجري عليه قبل أيّ شيء. ولا فناء لأي جسم

كان بأبعاده الأربعة إلاّ وبعد الله الخامس يجري عليه قبل فنائه.

ولقد أشار الإمام علي عليه السلام إلى هذه الأبعاد الخمسة في إحدى خُطبه التي وردت في كتاب نهج البلاغة. وذلك منذ أربعة عشر قرناً مضى.

ـ قال عليه السلام: الحمد لله المعروف من غير رؤية، والخالق من غير منصبة، خلق الخلائق بقدرته، واستعبد الأرباب بعزته، وساد العظماء بجوده. وهو الذي أسكن الدنيا خلقه، وبعث إلى الجن والأنس رسله ليكشفوا لهم عن غطائها وليحذّروهم في ضرّائها، وليضربوا لهم أمثالها، وليبصروهم عيوبها، وليهجموا عليهم بمعتبرٍ من تصرّف مصاحّها وأسقامها، وحلالها وحرامها، وما أعد الله للمطيعين منهم والعصاة من جنةٍ ونارٍ وكرامةٍ وهوانٍ. أحمده إلى نفسه كما استحمد إلى خلقه. جعل لكل شيء قدراً، ولكل قدرٍ أجلاً، ولكل أجلٍ كتاباً[1].

يقصد الإمام هنا عليه السلام بكلمة (قدراً) الطول والعرض والعمق.

ويقصد بكلمة (أجلاً) الزمن.

وبكلمة (كتاباً) المشيئة الإلهية. وهي البعد الخامس. بل هي بحسب الترتيب يجب أن تكون البعد الأول لكل جسم وهي حقاً كذلك.

ـ قال الإمام علي عليه السلام: ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله ومعه وبعده.

ولتوضيح البعد الخامس أكثر يمكن لنا أن نشبّه ذلك بإنسان يريد أن يبني بيتاً، فللبيت كما نعلم أبعاد ثلاثة، كما للبيت أيضاً زمنٌ وعمرٌ محددٌ قبل فنائه وتحلل عناصره وتفككها ولكن قبل أن يوجد هذا البيت بأبعاده الأربعة وتحققه واقعياً في الخارج. لا بد لهذا البيت من أن يتحقق

---

(١) نهج البلاغة (شرح عبده) ـ ص ـ ٣٩٤.

أولاً في فكر الإنسان الذي سيهندسه وسيبنيه وهي النيّة والإرادة المسبقة العازمة على إيجاده وتحقيقه. وهكذا تماماً مشيئة الله وإرادته. فمشيئة الإنسان أيضاً هي غير مستقلة تماماً ولا نافذة. بل هي بدورها خاضعة لمشيئة الله وإرادته.

والكلمة التي يرددها المسلمون كثيراً، هي كلمة «إن شاء الله» والتي تعني إذا أراد الله وأذِنَ. وهذا يعني أنه قد يشاء وقد لا يشاء. فكثيراً ما يريد الإنسان فعل شيءٍ ما ثم تأتي عوامل وأسباب تمنع الإنسان من تحقيق وتنفيذ مخططاته وإرادته. فالإنسان ليس حراً ومستقلاً في فعل ما يريد من إيجادٍ وعدم للأجسام. فالوجود مُلك الله لا مُلك البشر لذلك قيل في بعض الأحاديث أفعال البشر مخلوقة خلق تقدير لا خلق تكوين. فمشيئة الله هي الحاكمة المطلقة.

أما نحن البشر فمشيئتنا محدودة ومقيدة غير مطلقة. فنحن البشر لم نشأ وجودنا كذلك عدمنا. كما لم نشأ ولادتنا وحياتنا، ذكراً أم أنثى، في القرن العاشر أم العشرين أم الثلاثين.. إنساناً أم حيواناً أم نباتاً أم جماداً...

قال تعالى: ﴿**وما تشاؤون إلاّ أن يشاء الله رب العالمين**﴾. صدق الله العلي العظيم.

ـ أبعاد النبات ـ

إعلم أن النبات هي الدرجة الأرفع بعد الجماد. فجميع الأجسام النباتية كالأشجار والحيوانات والإنسان كلها على حدٍ سواء. فهي مشتركة في نفس الأوصاف ونفس الأبعاد.

فمن أهمّ أبعاد الأجسام النباتية هي: الحياة والنموّ والتكاثر. كما أن لها قوى متعددة منها: الجاذبة والهاضمة والدافعة.

ـ أما الحياة فهي من الأبعاد الأساسية للنبات وهي التي يقابلها الموت. فهي حيّة وليست جامدة كالحجارة والمعادن.

ـ **وأما النموّ**. فهو ما نراه من أن الأجسام النباتية ليست مستقرّة على حالةٍ ثابتة من الطول والعرض والعمق بل هي أجسام تنمو وتزيد في أبعادها فهي تنمو تماماً كما تنمو أجسام الحيوانات والإنسان مع مرور الزمن حتى تصل إلى كمالها واستكمال حركتها وخروجها من حدّ القوّة إلى حدّ الفعل.

ثم تتراجع بعد ذلك نحو الضعف والوهن وتموت فتصبح هشيماً تذروه الرياح. وإن تلك الحركة شبيهة بحركة الإنسان والحيوان. يعتقد الفلاسفة أنه وراء هذه الحركة نفساً وليست ناتجة عن صدفة أو عن حركة

ميكانيكية أو غير ذلك. وهكذا فقد أثبتوا لهذه الأجسام النباتية نفساً هي الدافع والمحرك لها.

ـ أما التكاثر فهي ليست أجسام فردية فقط تحيا وتموت بل هي تتكاثر كما تتكاثر الحيوانات والبشر بالتناسل. فسواء بواسطة البذور أم بواسطة مدّ الجذور والفروع حواليها أو بالتفريخ كنباتات الموز والقصب وغيرها من أصناف. أو بواسطة البيض كما لدى الطيور وبعض الحيوانات كالبرمائيات أو بواسطة النكاح كالحيوان والإنسان فهي كلها تسمى تكاثراً. وذلك من أجل إبقاء النوع بعد فناء الأصل.

ـ وأما القوة الجاذبة للأجسام النباتية: فهي أن النباتات تجذب وتتنفّس غاز ثاني أوكسيد الكربون في الجو وكذلك الماء والمواد المعدنية في الأرض ثم تمتصّها وتتغذى بها وتنمو وتتربّى بهذه المواد المجذوبة من الخارج. وكذلك الإنسان والحيوان يقوم بجذب الأوكسجين والماء والغذاء من أجل النموّ والحياة.

ـ **وأما الهاضمة**. فهي كما لدى بعض النباتات ولدى الحيوان والإنسان. فهي ليست مواد جاهزة مصنعة تمتصها الأجسام. بل هنالك غذاء من نوع خاص لهذه الأجسام ولا بدّ من هضمه وامتصاص العناصر الصالحة به والمفيدة ثم دفع ورمي ما هو غير مناسب للجسم.

وإن مثل هذه العملية. لا بد لها من جهاز مناسب يقوم بهذه العملية الكيميائية. وهي المعدة والتي تمثل مصنعاً كيميائياً وظيفته هضم وتحليل وفرز تلك المواد ثم بعد ذلك يقوم الكبد وهو ما يعتقد الفلاسفة أنه مركز النفس النباتية والتي تنبعث منه. فهو يمتص المواد الصالحة بعد الهضم وهو الدمّ. ثم يدفعها إلى القلب ومنه إلى الخلايا في سائر أنحاء الجسم.

كما أنه توجد الهاضمة لدى بعد أنواع النباتات والتي تعيش في المناطق الاستوائية والتي لها معدة كمعدة الإنسان. وهو عبارة عن جيب مملوء بسائل محلّل وهاضم وهذا السائل له رائحة سكرية تجذب الحشرات

ثم إن تلك الحشرات تقع بداخل ذلك الجيب في ذلك السائل ولا تستطيع بعد ذلك الخروج منه ثم يقوم السائل بهضم الحشرات التي تقع به وبتحليل أجسامها ثم امتصاص النبتة لتلك المواد وتتغذى بها.

وبعض النباتات الأخرى لها نفس الشيء ولكن ينبعث منها رائحة كريهة كرائحة الجيفة وتقوم بجذب الذباب الأزرق ثم ايقاعهم في الجيب ومن ثم هضمهم ولون النبتة أحمر اللون يشبه تماماً لون الحيوان الميت الآخذ في التحلل.

كما يوجد لبعض النباتات فخ مفتوح ينغلق على الحشرة عندما تسير عليه لا تستطيع الخلاص منه ثم يهضمها بعد ذلك وتمتص النبتة موادها وتتغذى بها. وذلك الفخ بواسطة شعيرات ينغلق عندما تُمسّ تلك الشعيرات بأي جسم خارجي. بينما سقوط الأمطار ولو بغزارة على تلك الشعيرات لا يؤدي إلى انغلاقه. بل يبقى مفتوحاً.

ـ **وأما الدافعة**: حيث تقوم النباتات والأشجار بدفع غاز الأوكسجين إلى الخارج وإطلاقه في الهواء الطلق بعدما أن تمتص الأشجار ذرات الكربون التي كانت ملتحمة مع ذرات الأوكسجين وكانتا معاً يشكلان غاز ثاني أوكسيد الكربون.

كما أن أجسام الحيوانات والإنسان تقوم بدفع ما لا يستفيد منه الجسم خارجاً. وذلك بعد اكتمال عملية الهضم وامتصاص المواد الغذائية منه يقوم الجسم بدفع ما تبقى من زوائد كالتفل والبول إلى خارج الجسم.

يبقى أن أذكر أن الخلايا النباتية تمثل العنصر الأساسي في الأجسام النباتية ولقد تكلمت عنها عندما تكلمت عن (نظام الخلايا العجيب) راجع ظهور الحياة والإنسان على وجه الأرض.

أما بالنسبة للنباتات أعتقد أن مركزها الرئيسي ونقطة انبعاثها إنما هو في الساق تحت الجذع في أسفله فوق الجذور عند أصولها. فمن تلك

النقطة يتوجه فرع وينمو نحو الأعلى ويتوجه فرع وينمو نحو الأسفل وهي الجذور. ومن هناك يتوزع الغذاء إلى أعلى وإلى أسفل.

ـ **فوائد النباتات والأشجار**: إن للنباتات والأشجار فوائد كبيرة جداً على الإنسان والحيوان. فلولاها لما استطاعت هذه المخلوقات من العيش والبقاء.

فمن أهم فوائدها أنها تطلق لنا غاز الحياة للتنفس وهو الأوكسجين. وهي بنفس الوقت تمتص الغازات السامة في الهواء وخصوصاً غاز ثاني أوكسيد الكربون المنبعث من فوهات البراكين والمصانع والمحركات... إلخ. ولولا الأشجار لكان الجو مليئاً بالسموم والدخان والهواء غير صالح للتنفس.

ـ ومن فوائدها أيضاً الغذاء. فكل ما يأكله الإنسان من ثمار وخضار وخبز وألبان ولحوم وعسل... إلخ. الكل مصدره من النباتات والأشجار بشكل مباشر أو غير مباشر فهي تمثل المصدر الأساسي للغذاء للإنسان والحيوان. وحتى الأسماك في البحار فهي تتغذى من النباتات البحرية تحت الماء.

ـ ومن فوائدها أيضاً أنها سبب لتلطيف الجو وخفض درجات الحرارة خصوصاً في الأماكن الجافة والحارة. حيث إن نسبة الحرارة أقل والرطوبة أعلى بين الأشجار من الأماكن التي لا أشجار بها. وإن التبخر للرطوبة المتصاعدة من الأشجار سبب لتشكيل الغيوم ثم سقوطها من جديد أمطاراً.

ـ ومن فوائدها أيضاً إنها علاجٌ للأمراض المختلفة ولقد بقي الإنسان ومنذ آلاف السنين يتعالج بها. فقط في هذا القرن ظهرت الأدوية الحديثة الكيماوية والتي كثير منها مضر على صحة الإنسان بعكس النباتات فليس لها ضرر على الإنسان.

كما أن الأدوية الكيميائية باهظة الثمن خصوصاً بالنسبة لشعوب العالم الفقيرة. بينما الأعشاب الطبيّة تنمو وتزرع في كل مكان وهي بمتناول كافة البشر وتحت أقدامهم.

ـ ومن فوائدها أيضاً الأخشاب والتي تستخدم في كثير من المجالات. كبناء البيوت وصناعة الموبيليا وصناعة الفحم للتدفئة وطهي الطعام... وغير ذلك من الأدوات الخشبية التي يستخدمها الإنسان في حياته.

ـ ومن فوائدها أيضاً أنها زينة وروعة في جمالها وكذلك أزهار النباتات المختلفة والورود والرياحين فهي تصاحب الإنسان في أفراحه وأتراحه. وكذلك استخراج الزيوت منها لصناعة العطور وأدوات التجميل وغير ذلك من مصنوعات متعددة.

ـ ومن فوائدها أيضاً يوجد بعض أنواع النباتات وتحتوي على مواد مخدّرة وتستعمل في تخدير الجسم في المستشفيات وقبل إجراء العملية الجراحية أو قبل معالجة الأسنان وهذه المادة هي التي تعرف (بالبنج) وذلك من أجل إزالة الاحساس لدى الإنسان قبل إجراء العملية وهذه المادة ساعدت كثيراً الإنسان على تخفيف الآلام بل وإزالتها نهائياً عند إجراء العملية.

بينما بعض الناس أخذ يستعمل بعض أنواع النباتات لأغراض محرّمة كالمخدرات والتي تسبب خطراً كبيراً على المجتمع.

حيث إن كثيراً من الشعوب تعاني من هذه الآفة المدمّرة للفرد والشخصيّة والمسببة لمشاكل كثيرة. عائلية واجتماعية. وكذلك بالنسبة للخمر المستخرج من ثمرات الأعناب والنخيل... وغيرها فإنه أيضاً يحدث مشاكل كثيرة للإنسان. ويذهب الادراك والوعي.

ـ ومن فوائدها أيضاً إنها تثبّت كثبان الرمل وتوقفها عن الزحف

خصوصاً في المناطق الصحراوية والمجاورة للأماكن الزراعيّة حيث إن الرمال تزحف سنوياً مسافات لا بأس بها وتحول المزارع إلى كثبانٍ من الرمل. والسبب في ذلك هي الرياح الحاملة لحبات الرمل. بينما الأشجار تشكل حاجزاً أمام الرياح والتي تخفف سرعتها. وتتكسر العواصف عندها وتمنعها من نقل الرمال معها.

كما أن الأشجار الصحراوية لها جذور طويلة مما يجعلها تثبّت كثبان الرمل في أماكنها ولا تسمح للرياح بجرفها.

ـ ومن فوائدها أيضاً خصوصاً الأشجار التي تغطي الجبال والمنحدرات والتلال. فهي تثبت التربة في أماكنها وتمنعها من الانجراف. لأن سقوط الأمطار الغزيرة على التلال والمنحدرات الجبلية سرعان ما تتحول الأمطار إلى سيول جارفة تدمر القشرة الأرضية وتجرف التربة الصالحة وترمي بها بعيداً.

وتترك المنحدرات خنادقَ وحفراً وشقوقاً غير صالحة لشيء يصعب إصلاحها وإعادتها كما كانت سابقاً.

ـ ومن فوائدها أيضاً إنها مطهرة للهواء حيث إن بعض الأشجار والنباتات ينبعث منها روائح وغازات تقتل الجراثيم وتنفي الحشرات المزعجة كالذباب والبعوض وغيرها. كما تنفع كثيراً صحة الإنسان ويستحب غرس هذه الأشجار قرب البيوت. خصوصاً أشجار الصنوبر والسرو والصفصاف والكينا والحامض وكذلك نباتات الزعتر والنعنع والورد.

كما أنّ ضخ عدة نقاط من زيت هذه الأنواع من الأشجار والنباتات في المنزل خصوصاً في المدن حيث إن الأشجار قليلة أو معدومة. فإنها تطهر وتقتل كافة الجراثيم بنسبة (١٠٠/ ١٠٠) مئة بالمئة بعد مرور بضعة ساعات فقط على بخّها.

ومن فوائدها أيضاً أنها خضراء اللون. خصوصاً للعين فإن اللون الأخضر مريح جداً للنظر ويبعث على الارتياح في النفس.

ـ الغاية الأساسية من خلق النباتات والأشجار:

وبعدما علمنا فوائد النباتات والأشجار العظيمة على الإنسان والحيوان معاً وبشكل خاص الإنسان. وذلك لأن الأشجار ليست فوائدها ترجع إلى نفسها. فالأشجار لا تأكل ثمارها.

كما أن البهائم والحيوانات ليست هي التي تأكلها وذلك لأن البهائم تدب على أربع قوائم فهي تأكل العشب في الأرض بينما الأشجار فهي مرتفعة عن الأرض وبعيدة عن متناول البهائم. فهي تستفيد بعض الحيوانات منها كالطيور والعصافير. ولكن الغاية منها هو الإنسان بدرجة أولى.

فالواجب على الإنسان الاهتمام بالأشجار وبمحيطه الذي يعيش به. فالمدن التي ليست بها أشجار وحدائق ومزدحمة بالسكان تبعث على التعب النفسي حيث إن المقابر أجمل منها.

وهي أيضاً كما علمت مضرة على بصحة الإنسان. فيجب غرس الأشجار قدر المستطاع، فهي ضرورية لإيقاف التصحّر خصوصاً في الأماكن المهددة بزحف الرمال إليها.

صحيح أن الإنسان يقف ضعيفاً وعاجزاً أمام سنن الطبيعة وقوانينها ولكن يجب أن لا يعينها بسلوكه وسوء تصرفاته. يبقى أن أشير إلى أن حياتنا على هذه الأرض هي بين صحراءين صحراء الرمال في الجنوب وصحراء الجليد في الشمال تارة يزحف علينا الجليد من الشمال وتارة تزحف علينا الرمال من الجنوب.

وهذه الدورة هي أشبه بفصلين يحدثان كل (١٠٠,٠٠٠) مئة ألف

سنة تقريباً ومنطقة البحر الأبيض المتوسط هي الحدود الفاصلة بين ذلك المد والجزر. وليس بغريب أن يكون هذا هو السبب أن أقدم وأعرق حضارات العالم ولدت ونشأت في هذه المنطقة. ولقد مضى العصر الجليدي منذ عشرة آلاف سنة تقريباً.

أما الآن فنحن نعيش في العصر الصحراوي الرملي والذي بلغت به درجة الحرارة ارتفاعاً لا يعرفه الإنسان من قبل. وهذا المدّ والجزر هو أيضاً سبب هجرة السكان في الجنوب إلى الشمال في العصر الصحراوي الرملي. وفي الشمال إلى الجنوب في العصر الجليدي عندما تعود الصحراء خضراء نضرة.

أما المناطق الاستوائية فهي بشكل عام لا تتأثر كثيراً بذلك التغير في الشمال والجنوب، فهي دائماً غابات كثيفة ذات مناخ حار ورطب وذلك منذ ملايين السنين.

ولكن ها هي الآن تشهد تغيراً لأول مرّة في تاريخها بفعل يد الإنسان الآخذ عددهم بالتزايد يوماً بعد يوم. فهي بداية تصحّر قد بدأت تظهر هنا وهناك بسبب قلع الأشجار عشوائياً، فإذا وقعت الكارثة فسيكون من الصعب جداً إعادة إصلاحها.

ـ أبعاد الحيوان ـ

اعلم أن الحيوان يقع في المرتبة الثانية بعد النبات في المخلوقات الحيّة. ويتوسط بينهما بعض الحيوانات البسيطة كالديدان والأصداف...

وللحيوان قوى وغرائز متعددة.

ـ أما القوى الرئيسة لدى الحيوان فهي خمس قوى: البصر والسمع والذوق والشم واللمس.

ـ وأما غرائز النفس الحيوانية فهي أيضاً متعددة. فمن أهم هذه الغرائز الشهوة والغضب. وحب الذات. والدفاع عن النفس. وحب البقاء والفرار من الموت.

ـ وأما السجايا فهي أخلاق متعددة يتمتع بها بعض الحيوانات وبما في ذلك الإنسان منها سجايا خير ومنها سجايا شرّ وهي أخلاق غير صادرة عن نيّة والآن أبدأ بشرح هذه القوى والغرائز والسجايا ووظائفها ومنافعها والحكمة من وجودها.

فكما علمت فيما سبق أن النبات يصل إليه غذاؤه وحوائجه بدون أي مشقّة حيث يصله شعاع الشمس والمطر والغاز الذي يتنفسه وكذلك

المواد المعدنية تحت جذوره في الأرض فهو مغروسٌ بها. فلهذا فإن النبات والشجر أجسام حيّة ثابتة.

أما الحيوان فهو بعكس ذلك فهو جسم حيّ متحرك. فالحركة هي من أهم أبعاد الحيوان. وخلف كل متحرك سبب محرّك. ألا وهي النفس الحيوانية بغرائزها ودوافعها.

وإذا كان لا بد للحيوان من الحركة بحثاً عن منافعه في عالم الطبيعة ذات الطبيعة المتعددة والتضاريس الملتوية والمتعرّجة كان لا بدّ لهذا الجسم الحيواني من قوى وجوارح وأدوات تخدمه وتساعده في تأمين حوائجه. والوصول إلى مآربه وتحيطه علماً بما يحيطه من منافع ومخاطر. فكان لا بد من الجوارح والحواس الخمس والأيدي والأرجل والقوى المختلفة. والتي يتلمّس بها العالم الخارجي ومحيطه الطبيعي. فلولا هذه الأسباب والجوارح التي خلقها الله (ج) وزود بها الحيوان واقصد بكلمة حيوان الحيوان والإنسان معاً لأن هذه الأدوات والجوارح تسمى قوى حيوانية ولأن الإنسان أيضاً نفس حيوانية كالحيوان تماماً.

أقول فلولا هذه الجوارح لما استطاع الإنسان من الحركة في عالم الطبيعة. ولكان أشبه بأعمى أصم مزكوم يتخبّط في ليلة ظلماء. فلا يخطو بضعة خطوات حتى يسقط في هاوية ويموت. فلهذا خلق الله (ج) الحيوان وجهّزه بأرقى وأروع الجوارح والأجهزة ذات التقنية العالية والتي عجز الإنسان عن تقليدها رغم التقدم العلمي والصناعي الباهر الذي وصل إليه في هذا القرن.

فهذه الجوارح والأعضاء خاضعة خضوعاً تاماً للنفس ومسخرة لطاعتها تحت أوامرها وإرادتها. وبعض هذه الجوارح تأدي وظيفتها حتى بدون أي إرادة صادرة عن النفس.

مثال على ذلك أن السمع يأتي بالأصوات بدون إرادة والعين كذلك ترى بدون إرادة أما تحريك العين يميناً أو يساراً فذلك ناتج عن إرادة

والشم أيضاً يشم بدون إرادة واللمس أيضاً وما يشعر به الإنسان من حرّ أو برد أو ما إذا لمس الجسم شيئاً فإن الشعور بذلك ناتج عن غير إرادة إذاً الحواس الخمس مجبرة على العمل وأداء مهامها. ولكنها بنفس الوقت خاضعة ومسخرة تحت الإرادة للنفس وإن جميع الأفعال الاختيارية صادرة عن إرادة.

وإن تحريك أي جارحة أو عضو يلزم لذلك أمر وإرادة. ثم إن للحواس الخمس والأعضاء اتصال مباشر بالجهاز العصبي الدماغ فهي تودي إليه كافة المحسوسات الخارجية ومن الجهاز العصبي إلى النفس، فللنفس علاقة وثيقة وخفيّة بالدماغ. فكل ما يرد إلى النفس من الخارج أو يصدر عنها من فعل إلى الخارج. فهو لا بدّ وأن يمرّ في الجهاز العصبي.

ـ ردود الأفعال الصادرة عن النفس بلا إرادة:

اعلم أن للنفس طائفة من ردود الأفعال صادرة عن غير إرادة بل هي غريزية في معظمها ووقائية للجسم. وحافظة للحيوان من التلف أو الضرر.

ـ **أما بالنسبة للبصر**: فإذا ما تعرّض لضوء قويّ جداً فإن العين فوراً وبسرعة كبيرة تقفل جفونها وتصرف بوجهها عن ذلك الضوء كي لا تتضرّر الشبكة في العين. لأن الشعاع الكثيف إذا دخل العين فإنه يسبب العمى.

أو ما إذا كان الجوّ مليئاً بالغبار أو ما إذا مرّ شيءٌ أو جسمٌ أمام العين. فإنها سرعان ما تغمض جفونها كي لا تتأذى وكل هذه الردود من الأفعال إنما هي عفوية بلا إرادة.

ـ **وأما بالنسبة للسمع**: فإذا ما سمع الحيوان أصواتاً قوية جداً كالانفجارات أو كالصرير الذي يحدث من جرّاء احتكاك بعض الأجسام مع بعضها البعض فإن الحيوان سرعان ما يفرّ ويهرب من ذلك المكان أمّا

الإنسان فكردة فعل أولى فإنه يضع أصابعه في أذنيه.

ـ **وأما بالنسبة للشم**: فإذا شمّ الحيوان رائحة كريهة وخصوصاً الإنسان فإنه يتأذى ويستكره ذلك ويعلم أن ذلك الشيء الخبيث الباعث لتلك الرائحة مضرٌّ بصحّته فإذا ما شم الإنسان رائحة الطعام ووجدها عفنة علم فوراً إن ذلك الطعام ضار للصحة.

وهو هكذا فعلاً مضر. وكذلك ما إذا شمّ روائح الغازات السامة. كما أنه يوجد بعض الغازات السامة التي ليس لها أي رائحة كغاز ثاني أوكسيد الكربون. فالإنسان أيضاً يشعر بها ويحس بضيق ويعلم أنه يوجد نقص في الأوكسجين.

فالرائحة الخبيثة والكريهة أيضاً تستخدمها بعض الحيوانات للدفاع عن نفسها حيث ليس لها قدرة على مواجهة أعدائها ولكي لا يفترسها أحد تقوم تلك الحيوانات بإفراز رائحة كريهة جداً عند مواجهة الخطر. مما يؤدي إلى فرار الحيوان المهاجم وهروبه من الرائحة الكريهة. وهذا ما تفعله أيضاً بعض الحشرات.

أما عن حب بعض أصناف الحيوانات للرائحة الكريهة. كالحيوانات الآكلة للجيف كالضبع والثعلب والكلب والخنزير وبعض أنواع النسور. فإن ذلك من أجل حكمة أرادها الله. وهي أن تلك الحيوانات تنفتح شهوتها عند شم الروائح الخبيثة وتأكل الجيف. فهي تقوم بعملية تنظيف وتطهير للطبيعة كي لا يتلوث الهواء وتنتشر الأمراض الخطيرة والقاتلة وتقضي على البشرية.

ـ **وأما بالنسبة للذوق**: فإن الحيوان عندما يتناول في فمه شيئاً مرّاً أو مزاً أو شديد الملوحة أو الحموضة. فإن الحيوان سرعان ما يرمي ذلك من فمه. وذلك لأن بعض هذه المأكولات وخصوصاً المرّة الطعم فإنها مضرّة وأكثرها سامّة وتؤدي إلى الموت. ولهذا فإن الحيوانات كالبقر والغنم والحمير وغيرها تعلم جيداً النباتات السامة والمرّة. فهي تحيد عنها ولا

تأكلها. وذلك بدون أن تتعلّم ذلك من أحد.

ـ **وأما اللمس**: فهناك ردود فعل تصدر عن الحيوان عندما تلمسه بعض الأجسام حتى ولو لم ير تلك الأجسام. فإذا ما مسّته شوكة أو دبوس في ظهره فإنه فوراً يحدث منه ردة فعل سريعة تجعله ينكمش عن ذلك الشيء الحادّ.

ولولا هذه الردة للفعل عندما يمسّ الجسم شيئاً حادًّا لكان تعرض الجسم للتلف والضرر والموت ولكان يلقي الإنسان والحيوان مثلاً ظهره على رمح أو يدوس برجله مسماراً أو غير ذلك من أشياء... وكذلك تماماً بالنسبة للحرارة والبرودة تصدر عن الحيوان ردود أفعال عندما يمسّ مثلاً جمراً أو ثلجاً أو يتناول طعاماً أو شراباً حاراً جداً أو بارداً.

ومن بين الأفعال الغير اختيارية للحيوان التنفّس ونبضات القلب. أما التنفّس فهو الفعل الذي يمدّ الجسم بالأوكسجين وأما نبضات القلب فهو الفعل المحرّك للدورة الدموية والذي يمدّ خلايا الجسم كافة بالأوكسجين. والذي لا يستطيع الحيوان العيش بدونه حتى ولو لبضعة دقائق. فالأوكسجين هو الأكثر ضرورة بالنسبة للجسم قبل أي شيء آخر.

فلهذا السبب كان مثل هذا الفعل أي التنفّس ونبضات القلب أفعال مستقلة وغير ناتجة عن إرادة الحيوان. لأنها لو كانت خاضعة لإرادة الحيوان لوقع التقصير من جانبه بسبب السهو أو النوم أو غير ذلك ولأدى ذلك التقصير ولو لبضع دقائق إلى الموت وخراب الجسم.

إذاً فهي حكمة إلهية عظيمة أن جعل هذه الأفعال الأساسية للحيوان تحدث عن غير إرادة. وكذلك تماماً بالنسبة للشعور بالعطش والجوع فهي مشاعر تنبّه الحيوان على أنه هنالك نقصاً وحاجةً في الماء والطعام واللذان يمثلان حاجة ضروريّة ماسة للجسم والذي قوامه بهما. فلولا هذا الشعور لحدث الإهمال ولما علم الحيوان أنه بحاجة إلى الماء والطعام. فلولا هذه المشاعر لأدى ذلك أيضاً إلى الموت والتلف. وكذلك تماماً بالنسبة للنوم

فهو فعل خارج عن إرادة الحيوان. فكما نعلم كل جسم بحاجة إلى النوم والراحة إلى ما يقارب ثماني ساعات كل أربعة وعشرين ساعة. ولولا ذلك لأصيب الجسم بالإنهيار إذا بقي الحيوان مستيقظاً حسب إرادته لسبب من الأسباب.

إذاً فجميع هذه الأفعال والردود من الأفعال التي ذكرتها هي بأجملها غير اختيارية وغير ناجمة عن إرادة الحيوان. وذلك من أجل حكمة إلهية اقتضت ذلك. لعلم الله (ج) المسبق بعدم قدرة الحيوان على القيام بمثل هذه الأفعال دون أن يحدث تقصيراً بها أو إهمالاً من جانبه.

أما الغرائز: فاعلم أن للغرائز فوائد كثيرة ومتعددة فهي التي تدفع الحيوان وتحركه للقيام بأفعال ضرورية ومهمة جداً. فغريزتي الشهوة والغضب هما اسمان لكل ما يشتهيه الحيوان والإنسان وما يغضبهما. إلا أنه للإنسان مشتهيات ومغضوبات أخرى يتميّز بها. أتركها لوقت الحديث عن أبعاد الإنسان.

ـ فمن أهم شهوات النفس الحيوانية شهوة البطن وشهوة الفرج والمجامعة. وهي مشتهيات تأتي في لذّة. فهي تدفع الحيوان إلى القيام بها طلباً للذّة بينما هي في نفس الوقت من أهمّ الأفعال وأكثرها حكمة وفائدة. لأنه لو لم يكن في تناول الطعام لذّة لما تناوله الحيوان. وفي ذلك خراب للبدن وتلف.

وكذلك بالنسبة لشهوة المجامعة لو لم يكن في قضائها لذّة لما فعلها الحيوان وفي ذلك قضاء على النسل وانقراض للجنس. فمن هذه الناحية للنفس الحيوانية الكل سواء فهي غرائز فطرية فطر الله المخلوقات عليها فهي موجودة لدى كافة الحيوانات ولدى الإنسان بدون أي فارق فهي سواء لدى الحيوان ولدى الإنسان فهي تسمى نفساً حيوانية.

ـ **وأما الغضب**: فهو أيضاً من الغرائز المهمة في النفس الحيوانية.

وهي الغريزة التي تدفع وتحرك الحيوان والإنسان معاً للقيام بأفعال ضرورية ومهمة.

فمن أهم أسباب الغضب لدى النفس الحيوانية هو الدفاع عن النفس عند تعرضها للخطر أو لعدوان خارجي. وأيضاً تغضب النفس الحيوانية عندما تتعرض الأشياء الذي يحبها الحيوان إلى خطر كغضب الأم دفاعاً عن صغارها. والأب عن عائلته والأخ عن أخيه. وكذلك أيضاً يغضب الحيوان عندما يتعرّض ما يملكه للخطر والعدوان والاغتصاب. كأن يسرق ماله أو تغتصب أرضه أو تنتهك حدوده.

فكل هذه الأشياء المتعددة تغضب الحيوان والإنسان معاً وهو غضب النفس الحيوانية. وهذا الغضب تظهر ملامحه على الحيوان والإنسان. فهو في القلب خاصة حيث تزداد نبضات القلب ويحمرّ الوجه ويرتعش الجسم أو بعض أطرافه وتتسارع وتيرة التنفس.

ثم إنه وإن كانت الغرائز الحيوانية غرائز داخلية بالنفس. إلاّ أن مهيجاتها خارجية. فهي تنفعل عندما يتحسّسها الحيوان بإحدى حواسه. فمثلاً عندما يرى الحيوان المأكولات والفواكه الشهيّة تتحرّك شهوة الأكل بداخله.

وعندما يرى امرأة شبه عريانة كذلك شهوة المجامعة تتحرك بداخله. فالغرائز ومهيجاتها الخارجية هي أشبه بالحديد والمغناطيس. فلا الغرائز هي التي تندفع نحو الشيء المهيّج. ولا الشيء المهيّج هو الذي يجذب النفس. بل الاثنين يتفاعلان مع بعضهما البعض. والواحد دون الآخر لا يندفع ولا ينجذب ولا يجذب. وهذا الشيء يحدث في كل الغرائز الحيوانية الشهوانيّة والغضبيّة منها. لكل مهيجاتها.

وقد تتحرك أيضاً الغرائز وتنفعل عن غير طريق المحسوسات والمهيجات الخارجية. بل تنفعل عن إعادة استذكار مهيجات في الذاكرة حدثت سابقاً. حيث كلما تذكرها انفعلت الغرائز منها عن جديد.

وقد تنفعل أيضاً الغرائز ليس عن طريق اتصالها حسيّاً بمهيجاتها الخارجية. ولا عن إعادة استذكار لما في الذاكرة. بل تنفعل عن طريق الرؤية في المنام. حيث يرى كما يرى في اليقظة ويأكل ويجامع ويغضب ويبكي ويضحك. . . إلخ.

وهنا تختلف درجة الوضوح في الرؤية في المنام فبعضها غبِشة غير واضحة وبعضها منامات أكثر وضوحاً وبعضها شديدة الوضوح. إلاّ أني لا أعتقد أن الرؤيا في المنام مهما كانت صافية وواضحة تعادل الرؤية الحسيّة أثناء اليقظة. ليس هنا مكان البحث في هذا الموضوع، نرجئه إلى الفصل القادم، الذي يهمنا هنا هو فقط ذكر انفعال الغرائز ومهيجاتها في حالات متعددة.

بقي أن نعلم أن للغرائز أوقاتاً مختلفة من العمر تنفتح بها. فكافة النفوس كذلك. سواء منها النباتية أو الحيوانية أو الإنسانية. لها حركات جوهرية تكاملية تخرج بها النفس من القوة إلى الفعل.

فأول شيء يتحرك في الحيوان هو نبضان القلب داخل رحم الأم ثم بعد خروجه أول ما ينفتح من القوى الحيوانية هو السمع والشم حيث إن الطفل يعلم جيداً رائحة والدته فهو يهدأ ويطمئن عندما يسمع صوتها ويشم رائحتها.

ثم بعد ذلك اللمس والذوق والبصر. وأول ما يتفتح من الغرائز هي شهوة البطن والمأكل ثم الغضب ثم شهوة المجامعة عند الرابعة عشر تقريباً. هذا بالنسبة للنفس الحيوانية لدى الإنسان.

أما بالنسبة للنفس الحيوانية لدى سائر الحيوانات. فلكل نوع من الحيوانات له أوقاته الخاصة به. مثلاً بعض أنواع الحيوانات تتفتح قواها وغرائزها قبل الإنسان بكثير فبعض أنواع الحيوانات يسير على قدميه بعد دقائق معدودة فقط من خروجه من الرحم. والقرد تتفتح قواه وحواسه

الخمس قبل الطفل بكثير. فلكل نوع من الحيوانات حركته الجوهرية الخاصة به.

فالغرائز بشكل عام هي القوى التي تهدي الحيوانات إلى أفعالها ومصالحها. نظراً لعدم امتلاكها للعقل أو لقوى فكرية تستنبط بها منافعها ومصالحها. فلولا هذه الغرائز الدافعة لها في أفعالها والمرشدة لها. لحارت الحيوانات وضاعت وكان مصيرها الفناء المحتّم. فكما أن الحديد والمغناطيس يهتديان ويتجاذبان ولو في الظلام الدامس كذلك أيضاً الحيوانات بفضل غرائزها تهتدي دوماً إلى أفعالها ومصالحها ومنافعها.

وأما السجايا: فهي أخلاق تتمتّع بها بعض أنواع الحيوانات وهذه السجايا ليست كالغرائز الأساسية والتي هي موجودة ومغروزة بكافة أنواع الحيوانات كغريزة الشهوة والغضب. بل هي أخلاق غريزية تختلف بين نوع وآخر من الحيوانات. منها أخلاق خير ومنها أخلاق شرّ ولكن بأجمعها سجايا تصدر من الحيوان على وجه الإجبار ولا تصدر منه عن نيّة أو تفكر أو اكتساب. وكذلك يوجد منها لدى الإنسان.

عن الإمام أبي عبدالله عليه السلام قال: إن الخلق منيحة يمنحها الله عز وجل خلقه، فمنه سجيّة ومنه نيّة فقلت: فأيتهما أفضل؟ فقال: صاحب السجيّة، هو مجبول لا يستطيع غيره وصاحب النيّة يصبر على الطاعة تصبراً، فهو أفضلهما[1].

كما أنه يوجد بعض أنواع الحيوانات والتي تشترك مع الإنسان في كثيرٍ من الغرائز وهذه الصفات منها حسنة ومنها قبيحة. حيث إننا نجد مثلاً من يوصف بالاحتيال كالثعلب ومنهم من يوصف بالافتراس والعدوان كالذئب والسباع ومنهم من يوصف بالاختيال وحب الظهور كالطاووس ومنهم من يوصف أنه شجاع كالأسد ومنهم من يوصف أنه غبيّ كالحمار

---

(١) أصول الكافي ج ـ ٢ ـ ص ـ ١٠١.

ومنهم من يوصف بالتلوّن كالحرباء ومنهم من يوصف بالحرص كالنملة ومنهم من يوصف بالطمع كالغراب... إلى آخره. فالأمثلة على ذلك كثيرة.

كما جاء في حديث أن في الديك خمس أخلاق من أخلاق الأنبياء.

ـ عن الإمام أبي الحسن عليه السلام أنه قال: **إن في الديك خمس خصال من الأنبياء: السخاء والشجاعة والقناعة والمعرفة بأوقات الصلوات وكثرة الطروقة والغيرة**[1].

فكما نرى من كل هذه الأمثلة أن الفارق الوحيد بين الحيوان وبين الإنسان اللذين يتمتعان بنفس هذه الأخلاق هو الجسم والشكل الخارجي. فالإنسان الذي أخلاقه مثل هذه الأخلاق الخبيثة لا يستحق أن يكون شكله وصورته إنسانية فهو متستّر بصورة يخدع بها الناس بينما باطنه غير ذلك.

فهكذا إنسان مكانه حظيرة الحيوانات وليس المجتمع الإنساني ولهذا السبب قيل أن الروح لكل إنسان تتجسّم في عالم البرزخ والقيامة بحسب أخلاقها وتظهر على حقيقتها. ليس هنا موضع الكلام عن المعاد ولكن فقط لنبين الأخلاق المشتركة بين بعض الحيوانات وبعض البشر.

بقي نقطة مهمّة لا بدّ من إيضاحها وهي أن جميع الأخلاق لدى الإنسان خيرها وشرها ما هي إلا ردود فعل وصدور أحكام من الإنسان على غريزتي **الشهوة والغضب** فلكل إنسان ميزانه الخاص وأخلاقه. والأخلاق هي المحركة والمظهرة والمنتجة للأفعال المختلفة. فللسلوك العقلاني (٧٥) خمسة وسبعين خُلقاً تسمى بجنود العقل.

وللسلوك الجهلاني (٧٥) خمسة وسبعين خُلقاً تسمى بجنود الجهل. أرجىء الحديث عنها إلى حين التحدث عن العقل.

وفي الختام نقول إن كافة أفعال الحيوان إنما هي ناتجة عن غرائزه

---

(١) فروع الكافي ج ٦ ـ صفحة ـ ٥٥٠.

المختلفة وحتى أفعاله الناتجة عن أخلاق وسجايا هي أيضاً أفعال غير اختيارية. يقوم بها الحيوان بشكل اجباري. فالحيوان مسيّر غير مخيّر. فهو لهذا السبب غير مكلّف وغير محاسب على أفعاله. فلا مجازى ولا معاقب. فالحيوانات هي كآلة تفعل أفعالها مجبرة. ليس لها ميزان عقلي تختار به بين طريقين.

قال تعالى عن الإنسان، **﴿إنا هديناه النجدين إما شاكراً وإما كفوراً﴾**. صدق الله العظيم وهذا هو التكليف الذي أُسقط عن الحيوانات وخصّ الله به الحيوان الناطق العاقل ألا وهو الإنسان. فلذلك هو محاسب على أفعاله وأخلاقه ما لم يُخضعها لميزان العقل الذي منحه الله إياه واحتجّ به عليه.

ـ أبعاد الإنسان ـ

إعلم أن الإنسان هو أشرف المخلوقات الحيّة على وجه الأرض. فهو يأتي في المرتبة الثالثة بعد النبات والحيوان. ونقدر أن نقول أن الجسم ذو الصورة أشرف من المادة الهيولانية. والنبات أشرف من الجسم. والحيوان أشرف من النبات والإنسان أشرف من الحيوان. فالإنسان يمتاز عن غيره بنفسه الناطقة الإنسانية فهي أشرف من النفس الحيوانية والنباتية. وللنفس الناطقة الإنسانية غرائز متعددة يتمتع بها كافة البشر على حدٍّ سواء.

وهذه الغرائز هي: غريزة حب الاستطلاع.

غريزة حب الخير.

غريزة حب الجمال.

غريزة حب الله والتوجّه إليه.

وهذه الغرائز هي منشأ جميع الأفعال التي يتميّز بها الجنس البشري من بين سائر المخلوقات الحيّة. كما يوجد أيضاً مشاعر وميول أخرى لدى الإنسان تظهر في فترات مختلفة من حياته أو في كل فترات حياته. كحب المال وحب الجاه.

ـ أما غريزة حب الاستطلاع: فهي الغريزة التي تدفع الإنسان إلى طلب العلم والمعرفة والبحث عن أسرار الحياة وفك ألغاز الطبيعة ومعرفة الحكمة من كل شيء ومعرفة من أين أتى إلى هذا العالم. ولماذا أتى. وإلى ماذا يكون مصيره.

وهي الغريزة التي مشى بها الإنسان على سطح القمر وهي التي يرصد بها الفلك والمجرات والنجوم والكواكب.

وهي التي اكتشف بها الذرّة.

وهي سبب التصوّر والتفكّر والاختراعات كافة..

فالنفس الناطقة الإنسانية بهذه الغريزة تحاول أن تتوصل إلى السيطرة الكاملة فكرياً وعلمياً على عالم الوجود ومعرفة أوله وآخره.

ما يحويه من مخلوقات وظواهر شهودية وغيبية. والبحث عن خالقه ومبدعه. ومعرفة صفاته وأفعاله...

فهذه الغريزة هي أساس جميع العلوم كافة التي توصل إليها الإنسان. وأساس ما يطمح إليه ولم يتوصل إليه بعد. فهي عطشانة إلى العلم والمعرفة عطشاً شديداً لا ترتوي. كلما شربت علماً. ازدادت عطشاً. ولكن أعتقد أن الله جل جلاله سيرويها يوماً من معرفته حقائق ترويها.

ربما ذلك بعد الموت الله أعلم. وحتى ذلك اليوم. المعرفة الإنسانية ماضية في التقدم بفضل البحث والاستطلاع عبر الأجيال والزمان.

فكما ذكرت فإن هذه الغريزة موجودة لدى كافة البشر على حدٍ سواء. إلا أنه ليس الكل يستعملها لكسب العلم والمعرفة. فالبعض يستعملها للمعرفة وفهم العالم وحقائقه. والبعض يستخدمها فقط من أجل تحقيق مطالب نفسية كالحصول على الثراء أو السلطة أو للتفوق أو للشهرة

والسمعة.. إلى آخره. والبعض الآخر ليس له أي اهتمام بهذه الغريزة والحصول على العلم والمعرفة. فهي مخدرة لديه وفي حالة من الخمول فهي رهن القوة. ليس لصاحبها أي رغبة في إخراجها إلى الفعل أو إنمائها.

ـ أما غريزة حب الخير: فهي غريزة ذات طابع إنساني اجتماعي. وهو حب الخير للجميع وطلب العدل والأمن والأخلاق الفاضلة بين بني البشر. وليس حب الخير الفردي وحب الذات والأنانية. فعكس هذه الغريزة هو الشر الجامع لمساوىء العيوب كالكفر والنفاق والتخريب والظلم وسائر الأخلاق الرذيلة والأفعال القبيحة.

وللأسف الشديد أن هذه الغريزة ليست فقط لدى كثيرٍ من الناس معطلة ولكنها ميتة أيضاً لدى بعض الشعوب والحضارات التي تختبىء تحت ستار حقوق الإنسان وحب الخير للبشرية. بينما هي في نفس الوقت سبب لكافة الشرور والمصائب التي تعاني منها أكثر دول العالم كالحروب والفقر والمرض والمجاعة وعدم الأمن. فالشعارات الفارغة كحقوق الإنسان وغيرها من شعارات إنسانية محبّة للخير تتناقض تماماً مع الاستكبار على الغير والاستعمار ونشر الحروب وبيع السلاح وإفقار الغير وتجويعه وحصاره واستخدام كافة الوسائل لإخضاعه واستعباده ونهب مقدراته واحتكار الخيرات والعلم. ونشر الضلال والفتن والتوتّر بين الدول.

أما حقوق الإنسان وغريزة حب الخير فهي كما يراها الإسلام تماماً. وكما غرزها الله بالنفس الإنسانية وفطرها عليها. وسأذكر بعض الأحاديث التي جاءت حول هذا الموضوع على لسان الرسول الأكرم وأهل بيته الطاهرين عليهم جميعاً الصلاة والسلام. والتي تعلّم البشرية معنى حب الخير والأخوّة بين البشر والشعور بالآخرين.

ـ عن أبي عبدالله عليه السلام أنه قال: إنما المؤمنون اخوة بنو أب وأم

وإذا ضرب على رجل منهم عرق سهر له الآخرون[1].

ـ وعنه عليه السلام أيضاً أنه قال: المسلم أخو المسلم هو عينه مرآته ودليله لا يخونه ولا يخدعه ولا يظلمه ولا يكذبه ولا يغتابه[2].

ـ وعنه عليه السلام أيضاً أنه قال: قلت له ما حق المسلم على المسلم قال: سبع حقوق واجبات ما منهن حق إلا وهو عليه واجب، إن ضيع منها شيئاً خرج من ولاية الله (ج) وطاعته ولم يكن لله (ج) فيه من نصيب، قلت له جعلت فداك وما هي؟ قال يا معلّي إني عليك شفيق أخاف أن تضيّع ولا تحفظ وتعلم ولا تعمل قال: قلت له: لا حول ولا قوة إلا بالله، قال: أيسر حقّ منها أن تحبَّ له ما تحبُّ لنفسك وتكره له ما تكره لنفسك؛ والحق الثاني أن تجتنب سخطه وتتبع مرضاته وتطيع أمره؛ والحق الثالث أن تعينه بنفسك ومالك ولسانك ويدك ورجلك؛ والحق الرابع أن تكون عينه ودليله ومرآته؛ والحق الخامس أن لا تشبع ويجوع ولا تروى ويظمأ ولا تلبس ويعرى؛ والحق السادس أن يكون لك خادم وليس لأخيك خادم فواجب أن تبعث خادمك فيغسل ثيابه ويضع طعامه ويمهّد فراشه، والحق السابع أن تبرّ قسمه وتجيب دعوته، وتعود مريضه، وتشهد جنازته؛ وإذا علمت إن له حاجة تبادره إلى قضائها ولا تلجئه أن يسألكها ولكن تبادره مبادرة، فإذا فعلت ذلك وصلت ولايتك بولايته وولايته بولايتك[3].

وعنه عليه السلام أيضاً أنه قال: ما عُبد الله بشيء أفضل من أداء حق المؤمن[4].

ـ وعن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أنه كان يقول: إن لله خلقاً عن يمين العرش بين يدي الله وعن يمين الله وجوههم أبيض من الثلج وأضوأ من

---

(١) أصول الكافي ج ـ ٢ ـ ص ـ ١٦٥.
(٢) أصول الكافي ج ـ ٢ ـ ص ـ ١٦٦.
(٣) أصول الكافي ج ـ ٢ ـ ص ـ ١٦٩.
(٤) أصول الكافي ج ٢ ـ ص ـ ١٧٠.

الشمس الضاحية، يسأل السائل ما هؤلاء؟ فيقال: هؤلاء الذين تحابُّوا في جلال الله[١].

عن أبي عبدالله عليه السلام أنه قال: يحق على المسلمين الاجتهاد في التواصل والتعاون على التعاطف والمواساة لأهل الحاجة وتعاطف بعضهم على بعض حتى تكونوا كما أمركم الله عز وجل ﴿رحماء بينهم﴾ متراحمين مغتمّين لما غاب عنكم من أمرهم على ما مضى عليه معشر الأنصار على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[٢].

وعنه أيضاً عليه السلام أنه قال: من زار أخاه في الله قال الله عز وجل: إياي زرت وثوابك عليَّ؛ ولست أرضى لك ثواباً دون الجنة[٣].

عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: إن لله عز وجل جنّة لا يدخلها إلاّ ثلاثة: رجل حكم على نفسه بالحقّ، ورجل زار أخاه المؤمن في الله، ورجل آثر أخاه المؤمن في الله[٤].

ـ وعنه أيضاً عليه السلام أنه قال: إن المؤمنين إذا التقيا فتصافحا أدخل الله عز وجل يده بين أيديهما وأقبل بوجهه على أشدّهما حباً لصاحبه، فإذا أقبل الله عز وجل بوجهه عليهما تحاتت عنهما الذنوب كما يتحاتُّ الورق من الشجر[٥].

ـ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إذا التقيتم فتلاقوا بالتسليم والتصافح وإذا تفرّقتم تفرّقوا بالاستغفار[٦].

ـ عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: تبسّم الرجل في وجه أخيه حسنة

---

(١) أصول الكافي ج ـ ٢ ـ ص ـ ١٧٣.
(٢) أصول الكافي ج ـ ٢ ـ ص ـ ١٧٥.
(٣) أصول الكافي ج ـ ٢ ـ ص ـ ١٧٦.
(٤) أصول الكافي ج ـ ٢ ـ ص ـ ١٧٨.
(٥) أصول الكافي ج ـ ٢ ـ ص ـ ١٧٩.
(٦) أصول الكافي ج ـ ٢ ـ ص ـ ١٨١.

وصرف القذى عنه حسنة، وما عُبد الله بشيء أحب إلى الله من إدخال السّرور على المؤمن[١].

ـ وعن رسول الله ﷺ أنه قال: إن أحب الأعمال إلى الله عز وجل إدخال السرور على المؤمنين[٢].

ـ وعن أبي عبدالله عليه السلام أنه قال: من أحب الأعمال إلى الله إدخال السرور على المؤمن: إشباع جوعته أو تنفيس كربته أو قضاء دينه[٣].

ـ وعنه أيضاً عليه السلام أنه قال: قضاء حاجة المؤمن خيرٌ من عتق ألف رقبة وخير من حملان ألف فرس في سبيل الله[٤].

ـ وعنه عليه السلام أيضاً أنه قال: تنافسوا في المعروف لإخوانكم وكونوا من أهله، فإن للجنة باباً يقال له: المعروف، لا يدخله إلا من اصطنع المعروف في الحياة الدنيا، فإن العبد ليمشي في حاجة أخيه المؤمن فيوكل الله عز وجل به ملكين: واحد عن يمينه وآخر عن شماله، يستغفران له ربّه ويدعوان بقضاء حاجته، ثمّ قال: والله لرسول الله ﷺ أسرُّ بقضاء حاجة المؤمن إذا وصلت إليه من صاحب الحاجة[٥].

ـ عن أبي الحسن عليه السلام أنه قال: إن لله عباداً في الأرض يسعون في حوائج الناس، هم الآمنون يوم القيامة، ومن أدخل على مؤمن سروراً فرّح الله قلبه يوم القيامة[٦].

ـ عن أبي عبدالله عليه السلام أنه قال: قال الله عز وجل: الخلق عيالي،

---

(١) أصول الكافي ج ـ ٢ ـ ص ـ ١٨٨.
(٢) أصول الكافي ج ـ ٢ ـ ص ـ ١٨٩.
(٣) أصول الكافي ج ـ ٢ ـ ص ـ ١٩٢.
(٤) أصول الكافي ج ـ ٢ ـ ص ـ ١٩٣.
(٥) أصول الكافي ج ـ ٢ ـ ص ـ ١٩٥.
(٦) أصول الكافي ج ـ ٢ ـ ص ـ ١٩٧.

فأحبهم إليَّ ألطفهم بهم وأسعاهم في حوائجهم[1].

هذه هي معنى الأخوة الحقيقية وحب الخير للآخرين والاحساس والشعور بالغير والتضامن والتعاطف كما أرادها الله وفطر عليها. وشرّعها في دينه الحنيف. وهذه الأحاديث هي قليلٌ من كثير مما جاء في الأخبار والسنن المطهرة.

وأما غريزة حب الجمال: فهي الغريزة التي تدفع الإنسان إلى حب الجمال والزينة والرسوم والفنون المختلفة. كفن الرسم وزخرفة البناء والديكور والحدائق. وهذه الغريزة هي خاصة بالنفس الإنسانية. ومنذ آلاف السنين راح الإنسان يزيّن مسكنه وأدواته ومأكله وملبسه فلا يزال إنسان اليوم يعثر في الحفريات والآثار على ما يدل على تأصل هذه الغريزة في الإنسان القديم. فرسوم الحيوانات ومشاهد للصيد على جدران الكهوف. وعلى العظام والأدوات الخشبيّة والفخارية لهي دليل واضح على هذه الغريزة والتي لم يشاهد مثلها من أفعال لدى الحيوانات فلم نشاهد مثلاً قرداً يرسم أو ينحت أو يصنع...

نعم يوجد بعض الأفعال لدى بعض أنواع الحيوانات والحشرات ولكنها أفعال غريزية على نمط واحد وغير صادرة عن تفنن أو تصوّر. ومثالاً على ذلك النحل في بناء بيوتها المسدسة الشكل أو بيوت النمل أو الزنانبير أو أعشاش الطيور.

فهي جميعها أفعال على مثال واحد ونمط محدد فلا يمكن أن ننسبها إلى غريزة حب الجمال بل هي أفعال إجبارية لا اختيار بها.

فللإنسان انجذاب شديد نحو الجمال. والجمال لا يقتصر فقط على الأشكال والألوان الجميلة بل يشمل ذلك المسموعات والروائح الجميلة. فالنفس الإنسانية تكره الشيء البشع أو الشيء الغير منظّم والغير موجود

---

(١) أصول الكافي ج ـ ٢ ـ ص ـ ١٩٩.

في مكانه المناسب وخصوصاً في الأشياء الهندسية الشكل فالإنسان لا يحب أن يرى مثلاً خطّاً أعوجاً. أو خطين غير متوازيين. أو مثلثاً مكسور الزاوية. أو مربعاً معوجةً إحدى أضلاعه. أو دائرة غير مستديرة الشكل تماماً. أو أنفاً طويلاً في أحد الوجوه أو أعضاء أخرى غير متناسبة مع بعضها البعض. فالإنسان يعشق الجمال خصوصاً المناظر الطبيعية الخلابة كالجبال والأنهار والأشجار والزهور وزقزقة العصافير وخرير الماء وحفيف الأشجار وغيرها من مناظر وأصوات جميلة. وكذلك أيضاً حب الإنسان للوجوه والأجسام الجميلة. وما الجنة وجزاؤها إلا جمالاً.

حيث أبلغ القرآن الكريم في وصف جمال الجنة وحورها وقصورها وأنهارها وأشجارها حتى قال أنه فيها من الجمال ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت كرامة وجزاءً للمؤمنين. ويوجد أيضاً جمالات أخرى غير حسيّة بل جمالات معنوية كقول أحد الأئمة عليهم السلام الجمال في العقل وقول آخر عليه السلام الجمال في اللسان. ومن أجمل الجمالات هو جمال الله جل جلاله وأسمائه الجميلة فهو سبحانه وتعالى خالق الجمال ومصدره. ولكن البشر يتفاوتون فيما بينهم في إدراك هذا الجمال. فلكل إنسان مذاقه وادراكه.

ـ **مخاطر حب الجمال**: يجب أن نعلم أن لحب الجمال والزينة مخاطر جسيمة جداً. فإبليس لعنه الله وبعدما أن غضب الله عليه لرفضه السجود لآدم عليه السلام كما أمره الله جل جلاله. فكان أول ما قاله لعنه الله أنه أقسم بعزّة الله (ج) أنه سيغوي بني آدم وسيزيّن لهم في الأرض حتى يكون أكثرهم كافرين. فعدو الله كلامه لا غموض فيه أنه سيزيّن وسيغرّ الناس بالجمال الكاذب والزينة الفانية. فما زهد المؤمنين بالحياة الدنيا وجمالها وزينتها إلا لهذا السبب أنه جمال مموّه وكاذب غير دائم وحذراً من إبليس وحبائله وشباكه المنصوبة لبني آدم. والتي تؤدي بالواقع بها إلى جهنم وبئس المصير. فجهلاء أهل الدنيا والحضارة المادية بسبب جهلهم وعماهم يعتقدون أن المؤمنين يكرهون الجمال والشهوات والملذات.

وأنهم لهذا السبب دائموا الحزن والزهد والتعبد وجهاد النفس. بل الحقيقة هي أن المؤمنين بسبب بالغ حبهم للجمال والجنة ونعيمها الدائم الخالد يضحّون بشهوات الدنيا المحرمة ويتجنبون مكروهاتها وبعض حلالها خوفاً من أن تجرهم إلى المعاصي والذنوب ويخسروا الجنة ونعيمها وجمالها الدائم. فهي بالنسبة إليهم أمنية الأمنيات ومحط الآمال ورغبة الرغائب وزينة الزينات ولذة اللذائذ.

فإبليس لعنه الله عالم من علماء النفس فهو يعلم جيداً غرائز الإنسان ودوافعه ورغباته فهو يأتي بني آدم ويخدعهم عن طريقها. تارةً بالمال وتارةً بالنساء وتارةً بالشرف وحب الجاه والشهرة والرئاسة. وتارةً بالغضب وتارةً حتى عن طريق الدين فيلبس عمامة ويكثر التسبيح والذكر... إلخ.

فالحبائل والمصائد لديه كثيرة ومتعددة. فعاشق الشيء ومحبه أعمى العقل حيث تغلب عليه الشهوة والرغبة ولا يهتدي للصواب والرأي السليم.

ولهذا السبب قال الإمام عليه السلام: الزينة تصدف عن البيّنة. حيث إن الجاهل لا ينظر إلاّ إلى المظاهر الخارجية. ولا يلتفت إلى الجوهر. وكذلك في اختيار الزوجة فإن كثيراً من الشباب ينخدعون بالشكل الخارجي والزينة. ولا ينظرون إلى الجوهر والأخلاق وصفات الروح وجمالها. فجمال الدنيا جمال مغشوش غير خالص وغير دائم على حاله. كما قال الله تعالى: **﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون﴾** (ص).

وقال تعالى: **﴿واعلموا إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله**

ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ (ص).

ـ **غلظة بعض النفوس وعماها عن ادراك الجمال**: إعلم أن حب الجمال تختلف درجته بين قوم وقوم وحضارة وأخرى ولقد كان لدى بعض الحضارات اهتمام فائق بالفن والجمال أكثر من غيرهم من الحضارات فمن هذه الحضارات حضارة بلاد ما بين النهرين (العراق وسوريا). وحضارة الفينقيين (لبنان). وحضارات مصر وفارس واليونان والروم.

بينما نجد شعوباً وأقواماً أقل اهتماماً بالجمال حيث ليس له موقع مرموق لديهم.

أما النفوس المتخدرة والعقول العمياء عن رؤية الجميل وأسمائه الجميلة وهو الله خالق الجمال فهم الكفار الذين غرّهم الشيطان وزين لهم الدنيا حتى أعمتهم عن جماله الجميل فنسوه وأنكروه فأمرضت عقولهم وأغلطت نفوسهم ودنّست قلوبهم فهم صمّ بكمٌ عميٌ عن جماله عامهين.

ـ غريزة حب الله والتوجه إليه: إعلم أن غريزة حب الله والتوجه إليه هي من أهم الغرائز التي أودعها الله (ج) في مخلوقاته فهي تأله إليه وتطلبه فطرياً وتشعر أن لها خالقاً ومبدعاً ومربياً يرعها. لأنه لو لم تكن هذه الغريزة موجودة في المخلوقات لكان ذلك عبثاً أن يخلقها الله (ج) ثم لا تدركه ولا تشعر به ولا تعلم من خلقها ومن أنعم عليها بالوجود وسائر النعم إذا فهذا الشعور بالله هو شعور فطري وليس ناتجا عن تعلم أو اكتساب أو أدلة وبراهين فهو شعور موجود لدى جميع العالم. لدى العاقل والجاهل والمؤمن والكافر والكبير والصغير. على حدٍ سواء. فالتدين والاعتقاد بوجود خالق. هي ظاهرة عالمية حيث نجد الآيات والمعتقدات المختلفة. فالكل متفقون على هذا الشعور وهو الانجذاب العفوي نحو الخالق. إلا أن الاختلاف بين هذه الأديان المختلفة إنما هو اختلاف في التفاصيل وليس اختلافاً في الجوهر.

ولقد حاولت الفلسفة الماركسية الشيوعية حذف هذا الشعور

والاعتقاد حيث دمرت أماكن العبادة وفرضت الكفر بالله ودعت إليه. حيث كلمة لينين المشهورة (الدين أفيون الشعوب)..

فبالرغم من كل هذا لقد فشلت الشيوعية من استئصال هذه الغريزة من أعماق البشر. حيث انهارت الشيوعية بعد أقل من قرنٍ من الزمان على انشائها. وعادت تلك الشعوب من جديد إلى أحضان الدين. فللدين والإيمان بالله جذور عميقة في التاريخ البشري. فلا تزال الآثار والحفريات وأعمال التنقيب تشهد على عمق جذور هذه الغريزة لدى بني البشر ومنذ قديم الزمان. حيث كان الإنسان القديم كما الإنسان المعاصر لديه أفعال عقائدية ومراسيم دينيّة. فهي غريزة أبينا آدم عليه السلام وذريته وفطرته التي فطره الله عليها منذ خلقه وحتى الآن. لا تبديل لخلق الله. فهي غريزة قد تقوى وقد تضعف بسبب المحيط الاجتماعي. إلا أنه لا يمكن حذفها بتاتاً.

يقول الأستاذ الشيخ جعفر السبحاني في كتابه (معالم التوحيد): من المعلوم أن فطرية الإيمان بالله لا تعني بالضرورة أن يكون الإنسان متوجهاً إلى الله دائماً ملتفتاً إليه متذكراً إياه في جميع حالاته وآناء حياته اليومية، إذ رب عوامل تتسبب في اخفاء هذا الاحساس في خبايا النفس وحناياها وتمنع من تجليه، وظهوره على سطح الذهن، وفي مجال الوعي والشعور.

وأما عندما يرتفع ذلك الحجاب المانع عن الفطرة فإذا بالإنسان يسمع نداء فطرته بوضوح. أجل هذه حقيقة لا تنكر فعندما يواجه المرء حوادث مخيفة نجده يتوجه إلى الله، ويستنجد به بحكم فطرته طالباً منه تيسير عمله، وتسهيل أمره. عندما تقع للإنسان حوادث خطيرة كهجوم الأمواج العاتية على السفينة التي يركبها في عرض البحر، أو حدوث عطل فني في الطائرة التي يمتطيها في الجو، أو انحراف السيارة التي يستقلها، أو يتعرض لهجوم سيل كاسح على قريته أو مدينته.

أقول عندما يواجه الإنسان أحد هذه المخاطر نراه يتوجه من فوره وبصورة تلقائية وفطرية لله (ج)، وتحدث لديه حاله عرفانية قلبية، يطلب فيها من الله سبحانه الخلاص والنجاة. انتهى[1].

ويتابع أيضاً في مكانٍ آخر من كتابه. فيقول: يتعين علينا الآن أن ننبه القارىء الكريم بعدة نقاط نراها ضرورية في المقام: الأول الفرق بين التوحيد الفطري والتوحيد الاستدلالي:

١ ـ طريق الفطرة.

٢ ـ طريق الاستدلال.

والمراد من «طريق الفطرة» هو أن كل إنسان يشعر في قراره ضميره، ومن تلقاء نفسه بانجذاب نحو الله، وميله العفوي الفطري إليه دون أن يكون في ذلك متأثراً ببرهان، أو خاضعاً لدليل، أو نابعاً من تعليم معلم، أو دعوة أحد، أو ما شابه ذلك من المؤثرات الخارجية.

والمقصود بالطريق الثاني (أي التوحد الاستدلالي) هو أن يجد المرء طريقه إلى معرفة الله عبر الاستدلال وإقامة البراهين العقلية والفلسفية فلا يكون دليله في هذا السبيل، إلا تلك البراهين ليس إلا. وقد يحدث خلط وإلتباس بين هذين الطريقين وهذين النوعين من «التوحيد» لذلك لا بد من التلميح إلى ما يساعدنا إلى التمييز بين «الفطري» و «غير الفطري» من الأمور. وهذا هو ما نبينه في النقطة الثانية التالية:

الثانية: كيف نميز العمل الفطري عن غير الفطري؟.

يصدر من الإنسان في حياته نوعان من الأفعال:

١ ـ الأفعال الفطرية.

٢ ـ الأفعال العادية.

---

(١) معالم التوحيد ـ ص ـ ٤٩.

والأفعال الفطرية هي تلك الأفعال التي تنبع من جبلة الإنسان وفطرته وغريزته. كالتنفس، والدفاع عن النفس عند مواجهة الخطر.

وهذه الأعمال لا تختلف عما يفعله الحيوانات من أعاجيب الأفعال بحكم الغريزة وتحت هداية الفطرة وتأثير الجبلة ودون أن تخضع في شيء من ذلك لأي عامل خارجي عن وجودها.

والأفعال العادية هي التي لا يكون لها أية جذور غريزية باطنية بل يقوم بها الإنسان تحت تأثير العوامل الخارجية عن ذاته.

ويتابع فيقول: يمكن تمييز الأمر الفطري عن الأمر غير الفطري بمعونة العلامات الثلاثة:

١ ـ حيث أن الأمور الفطرية ذات جذور غريزية باطنية لذلك فهي تتصف بالشمولية والعمومية فليس أحد من أبناء البشر يفقدها ويخلو منها.

٢ ـ الأمور الفطرية تتحقق بوحي الفطرة وهدايتها، ولا تحتاج إلى تعليم معلم.

٣ ـ كل فكرة أو عمل تكون له جذور فطرية لا تخضع لتأثير العوامل السياسية والاقتصادية والجغرافية بل هي تعمل وتتحقق بعيداً عن نطاق هذه العوامل وتأثيرها.

٤ ـ الدعايات المكثّفة والمستمرة ضد الأمور الفطرية يمكن أن تضعفها وتحد من نموها ولكن لا تتمكن ـ أبداً ـ من استئصالها والقضاء عليها بالمرة.

هكذا تكون الأمور الفطرية بينما الأمور العادية ـ على العكس ـ فهي محلية. وهي تتأثر بالعوامل والمؤثرات المحيطية والبيئية. وهي تخضع لتعليم معلم.

وأخيراً هي مما تتمكن الدعايات المضادة من استئصالها بالمرة. انتهى.

إذا غريزة حب الله والتدين هي غريزة ثابتة ومتأصلة في النفس الإنسانية. وليست مكتسبة أو وليدة العوامل الخارجية.

٥ ـ وأخيراً أختم ببعض الأحاديث الصادرة عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم. والأئمة الأطهار عليهم الصلاة والسلام والتي تتحدّث عن الفطرة وغريزة حب الله والتوجه إليه.

ـ عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: ما من مولود إلا يولد على الفطرة ثم أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ثم قال: فطرة الله التي فطر الناس عليها.

ـ وعن أبي عبدالله عليه السلام أنه قال: فطرهم على التوحيد.

ـ وعن الباقر عليه السلام أنه قال: فطرهم على معرفة أنه ربهم ولولا ذلك لم يعلموا إذا سئلوا من ربهم ومن رازقهم.

ـ وسئل الصادق عليه السلام: ما تلك الفطرة؟ قال: هي الإسلام.

ـ وسئل أيضاً عليه السلام: عن المعرفة من صنع من هي؟ فقال عليه السلام: من صنع الله، ليس للعباد فيها صنع.

ـ وجاء عن الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة في أول خطبة فيه قال: عليه السلام: فبعث الله فيهم رسله وواتر إليهم أنبيائه ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكّروهم منسيّ نعمته، ويحتجّوا عليهم بالتبليغ ويثيروا لهم ذفائن العقول.

ـ بقي أن نشير إلى أنه وإن كانت معرفة الله (ج) والتوجه إليه فطريّة. فلا بد من أنبياء مرشدين ومعلمين يرشدون البشر إلى خالقهم ويُعلمونهم

بذاته وصفاته وأفعاله وشرائعه كي لا يقع الناس في الشرك والضلال والعقائد المنحرفة وعبادة الأصنام. . . إلخ.

٦ ـ **وأما غريزة حب المال**: فهي الغريزة التي تدفع الإنسان إلى تكديس الثروة والمنافع. وكلمةُ مال: تشمل كل ما يملكه الإنسان من ماديات كالذهب والأراضي والأنعام والأموال النقدية. . . إلخ.

وذلك لأن النفس الناطقة الإنسانية تعتقد أن جمع المال والمُلك وكثرته، أشياء جالبة للسعادة أو سببٍ لها بينما تعتقد النفس أن الفقر والنقص في المال سبب للشقاء والحزن أو أنها تعتقد أن كثرة المال جالبة للأمن والطمأنينة بينما النقص وقلة المال عامل خوف وخطر وعدم إيجاد ما يحتاجه البدن من حوائج. وذلك لأن البدن يمثّل مركب النفس.

فهي شديدة الاهتمام به وبتأمين حوائجه ورفع نواقصه. هذا سبب من أسباب حب المال في النفس. ويوجد أيضاً سبباً آخر لحب المال. وهو من أجل إشباع الشهوات الحسيّة الحيوانية ومدّها بما يكون سبباً لهذه الملذات من مآكل فاخرة ومناكح ومراكب فخمة وقصور وحدائق وخدم وحشم وتكاثر وتفاخر. . . إلخ.

فإن تأمين كل هذه المطالب يلزمها أموالاً طائلة وحرصاً شديداً. وقد يحدث أيضاً العكس وهو أن تكون كثرة الأموال لدى الإنسان سبباً في استدراجه إلى الخوض في الشهوات المختلفة.

فكما نرى يوجد دافعان مختلفان لسبب حب المال الأول منبعه النفس الناطقة الإنسانية وهذا حب مشروع.

والثاني حب منبعه النفس الحيوانية للملذات والشهوات الحسيّة. وهو ما يسمى الحرص. والحرص كما سنعلم لاحقاً أنه خلقٌ من أخلاق الجهل وجندي من جنوده.

ويوجد أيضاً سبباً آخر لحب المال وهو من أجل فعل الخير ونفع

الآخرين وصرفه في الوجوه المستحبة والمشاريع الخيرية المختلفة.

وسأعطي ثلاثة أحاديث مختلفة تبيّن الفرق في حب المال.

ـ جاء في حديث عن أبي عبدالله عليه السلام أنه قال: أن سلمان الفارسي رضي الله عنه كان إذا أخذ عطاءه رفع منه قوته لسنته حتى يحضر عطاؤه من قابل فقيل له: يا أبا عبدالله أنت في زهدك تصنع هذا وأنت لا تدري لعلك تموت اليوم أو غداً فكان جوابه أن قال: مالكم لا ترجون لي البقاء كما خفتم علي الفناء، أما علمتم يا جهلة أن النفس قد تلتاث على صاحبها إذا لم يكن لها من العيش ما يعتمد عليه فإذا هي أحرزت معيشتها اطمأنّت.

فكما نرى هذا سبب من أسباب حب المال وهو ما أشرت إليه سابقاً وهو من أجل إحراز الأمن والطمأنينة ورفع القلق والشعور بالخوف والخطر. أو تجهزاً خوفاً من نوائب متوقعة.

ـ **الثاني**: وهو الحب الذي منبعه النفس الحيوانية للملذات والشهوات الحسيّة. قال أمير المؤمنين عليٌ عليه السلام: المال مادة الشهوات.

ـ **الثالث**: هو حب المال من أجل فعل الخيرات ونفع الآخرين. قال رجل لأبي عبدالله عليه السلام: والله إنا لنطلب الدنيا ونحب أن نؤتاها فقال: تحب أن تصنع بها ماذا؟ قال: أعود بها على نفسي وعيالي وأصل بها وأتصدق بها وأحج وأعتمر فقال عليه السلام: ليس هذا طلب الدنيا هذا طلب الآخرة.

ـ **وأما غريزة حب الجاه والشرف**: فهي الغريزة التي تدفع الإنسان إلى طلب المنزلة المرموقة ونيل الاحترام والشرف بين الناس. فالأنفس الشريفة تأبى الذل والخسة وبل تفضل الموت بشرف وعز على الحياة بذل وهوان. طبعاً فإن شرفها أو ذلها شيء نابعٌ من عقيدتها وفلسفتها للحياة. قال تعالى: ﴿**ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين**﴾ وشرف النفس أو ذلها هو شيء مرتبطٌ أيضاً بأفعالها.

فالمؤمنون أحرار. فكلما وطىء الإنسان بقدمه على شهواته وغرائزه الحيوانية كلما كان أكثر حريّة وأكثر عزاً وشرفاً. وكلما كان أكثر حباً لشهواته وأهوائه كلما كان أكثر عبودية وذلاً وخسةً وتملقاً. وهذا حال أكثر أهل الدنيا. فالشريف شريف في كل أحواله وحالاته وإن فُرضت عليه الذلة وإن افتقر أو أُسر. والذليل ذليل في كل أحواله وحالاته وإن شُرّف وكُرّم.

فللوصول للشرف والعزة هنالك أفعال وواجبات شاقة لا بد من فعلها. لكي يصبح الإنسان شريفاً ووجيهاً.

وأما الأذلاء والجهلاء يحاولون الوصول إلى الشرف عن طريق الرياء والتصنّع ويحبون أن تنسب لهم صفات أخلاقية هم ليسوا من أهلها. فما هذا السلوك إلا نفاقاً وكذباً يظهر بوضوح ويعرفه العقلاء والمؤمنون أهل الفراسة.

ـ قال الله تعالى مخاطباً نبيّه الأكرم الأشرف ﷺ في ليلة المعراج: يا أحمد هل تدري لأي شيء فضلتك على سائر الأنبياء، قال: اللهم لا، قال: باليقين وحسن الخلق وسخاوة النفس ورحمة بالخلق، وكذلك أوتاد الأرض لم يكونوا أوتاداً إلاّ بهذا. صدق الله العلي العظيم[1].

ـ فجميع هذه الغرائز في النفس الناطقة الإنسانية هي تماماً كغرائز النفس الحيوانية تتفتح في فترات مختلفة من عمر الإنسان فبعضها أشد وضوحاً من بعض. ولذلك يمكن أن نشبهها بالشجرة وفروعها حيث يوجد فروع أكبر من فروع، وبعضها أكثر ظهوراً من بعضها الآخر... إلخ.

ـ وأما عن سبب تسميتها بالنفس الناطقة. فإن ذلك نسبةً للنطق وشدة تميزها بهذه الصفة عن غيرها من سائر الحيوانات. إذ إنه ليس

---

(١) ارشاد القلوب ـ ص ـ ٢٠٥.

للحيوانات نطق وتكلم معقّد وحروف وكلمات وجُمل كما لدى الإنسان. فللحيوانات فقط صرخات موجزة ومحدودة جداً تعبّر بها عن شيء محبوب أو مكروه أو خطرٍ ما... إلخ.

بينما بالنسبة للإنسان فإن الكلام يعتبر الوسيلة الأقل مشقّة والأبلغ وسيلة في التعامل والتفاهم والإتصال مع الطرف الآخر من استعمال الإشارات بالأيدي والتي تسبب تعباً للطرفين خصوصاً للطرف الآخر الناظر لأنه يلزمه دائماً المتابعة للطرف الآخر بصرياً.

ثم إن التكلم سهل جداً وذلك لأن المتكلم يستخدم الهواء الخارج من الرئتين على كل حال. ولا يلزمه سوى تحريك اللسان والشفاه بينما تبقى سائر الأعضاء والجوارح حرّة لعملٍ آخر في آنٍ واحد معاً.

ـ وأما بالنسبة للشهوة والغضب في النفس الإنسانية فهما يختلفان عن الشهوة والغضب في النفس الحيوانية. فللإنسان شهوات وأهواء متعددة كحب المال والجاه والشرف والترأس والسلطة وحب الجمال. وغير ذلك من شهوات عقلية كحب الله والأخلاق والخير والمؤمنين... إلخ.

وأما الغضب الإنساني: هو الغضب لله (ج) والمبادىء والعقائد والأخلاق والقيم والمقدسات... إلخ.

ـ وهكذا يكون للإنسان ثلاثة أنفس: نفس ناطقة ـ ونفس حيوانية ـ ونفس نباتية. وهذا لا يعني ثلاثة أنفس بحسب العدد. ولكن المقصود نفس واحدة لها ثلاثة قوى مختلفة. فللنبات نفس واحدة وللحيوان نفسان وللإنسان ثلاثة والاختلاف بينهم إنما هو اختلاف درجة.

وأما مكان الروح من البدن فهي سلطانها على سائر البدن ولكن مكان ظهورها هو الجهاز العصبي الدماغ.

وهكذا سائر أنواع الحيوانات. ولقد لاحظ العلماء ارتباطاً كبيراً بين

حجم الدماغ لدى الحيوانات وبين ذكائها فكلما كان الحيوان دماغه أكبر كلما كان أكثر ذكاء. وليس المقصود أكبر بحسب الوزن ولكن المقصود أكبر مقارنة مع وزن البدن وحجمه. فنسبة حجم ووزن دماغ الإنسان إلى بدنه نسبة من أكبر النسب من بين كافة الحيوانات. بينما لو أخذنا القرد فنسبة دماغه إلى جسمه أقل مما لدى الإنسان. والفيل والحوت كذلك أيضاً قليلة مع حجمهم. وهذا ما يظهر بوضوح علاقة الروح بالجهاز العصبي الدماغ.

ـ أطوار النفس وخروجها من القوة إلى الفعل...

قال الفيلسوف الإسلامي الجليل صدر الدين الشيرازي: فالنفس الآدمية ما دام كون الجنين في الرحم درجتها النفوس النباتية على مراتبها، وهي إنما تحصل بعد تخطي الطبيعة درجات القوى الجمادية، فالجنين الإنساني نبات بالفعل، حيوان بالقوة لا بالفعل، إذ لا حسّ له ولا حركة. وكونه حيواناً بالقوة فصله المميز عنه عن سائر النباتات الجاعل له نوعاً مبايناً للأنواع النباتية، وإذا خرج الطفل من جوف أمه صارت نفسه في درجة النفوس الحيوانية إلى أوان البلوغ الصوري، والشخص حينئذٍ حيوان بشري بالفعل، إنسان نفساني بالقوة، ثم تصير نفسه مدركة للأشياء بالفكر والرويّة مستعملة للعقل العملي، وهذا إلى أوان البلوغ المعنوي والرشد الباطني باستحكام الملكات والأخلاق الباطنة، وذلك في حدود الأربعين غالباً، فهو في هذه المرتبة إنسان نفساني بالفعل وإنسان ملكي أو شيطاني بالقوة، يحشر في القيامة إما مع حزب الملائكة، وإما مع حزب الشيطان وجنودهم، فإن ساعده التوفيق وسلك مسلك الحق وصراط التوحيد، وكمل عقله بالعلم، وظهر عقله بالتجرد عن الأجسام يصير ملكاً بالفعل من ملائكة الله الذين هم في صفة العالمين المقربين، وإن ضلّ عن سواء السبيل وسلك مسلك الضلال والجهال يصير من جملة الشياطين، أو

يحشر في زمرة البهائم والحشرات[1].

ـ اختلاف النفوس في تربيتها وفي مطالبها:

كنا ذكرنا سابقاً أن بني الإنسان كافة خلقوا على حدٍ سواء ومنحوا نفس القوى والغرائز الفطريّة، إلا أن للإنسان قدرة على الاختيار لسلوكه كما للتعلم والتأدب منذ الصغر على يد والديه عامل كبير في اختيار السلوك وكذلك في المدرسة ومناهجها التعليمية وكذلك المحيط والبيئة والمجتمع الذي يعيش به الإنسان لكل هذه العوامل دورٌ هامٌ في بناء النفس وسلوكها.

فالنفس الإنسانية يمكن أن نشبهها بشجرة لها فروع وأغصان مختلفة وهذه الفروع تمثل غرائزها المتعددة فلو اهتمينا بأحد فروعها أكثر من غيره فإن ذلك الفرع سيكون أكثر ظهوراً ونضارةً عن غيره بينما لو قطعنا سائر الفروع وتركناه وحده فإنه سينمو وسيشبّ ويكبر على حساب غيره.

أما الفروع الأخرى فستبقى موجودة ولكنها ستبقى في تأخر وضعف مقارنةً مع الغصن والفرع الرئيسي. وهكذا تماماً الغرائز لا يمكن استئصالها أبداً من النفس الإنسانية، نعم يمكن تحجيمها وإضعافها ولكن لا يمكن بتاتاً القضاء عليها، ولقد أشار الإمام علي عليه السلام إلى هذا الموضوع بقوله: أحيى عقله وأمات نفسه. أي أماتها عن الشهوات وحجّمها ولم يهتم بها فكانت النتيجة أحياء العقل ونموه ونشاطه عندما أزيلت العوائق من أمامه وسُمح له بالعمل. فمثلاً: لو اهتم الإنسان من أيام صغره وتربيته على تنمية غريزة معينة من غرائزه فإنه سيكبر ويصبح عالماً خبيراً وماهراً بها. فمثلاً الاهتمام بغريزة حب الاستطلاع تقوده حتماً إلى اكتساب العلوم والمعارف المختلفة وغريزة حب الخير تقوده إلى أن يكون عالماً أخلاقياً وإنسانياً. وغريزة حب الجمال تقوده إلى الفن.

---

(١) الحكمة المتعالية ج ـ ٨ ـ ص ـ ١٣٦.

وغريزة حب الله تقوده إلى أن يصبح عالماً به عابداً له. . . إلخ.

وأما الشهوات والأهواء فإنها تقوده إلى أن يصبح حيواناً بهيمياً. والغضب يقود إلى أن يصبح سبعاً مفترساً. طبعاً الإسلام بشرائعه الإلهية زان الإنسان بأفضل ميزان وأحكم التقنين فما حرّم وما حارب إلاّ ما هو ضار وغير لائق بالإنسان وما حلل وشجّع إلاّ على ما هو نافع وخيّر ولائق بالإنسان وكرامته.

كما أن الهموم، المختلفة تشتت الفكر وتسبب الضياع والانحراف عن منارات الهدى. فالهم هو توجه النفس توجهاً كاملاً نحو أمر من الأمور والاشتغال به وصرف الفكر عما سواه ممّا هو أكثر وجوباً وأكثر أهمية. فتكون مرتبطة بأمور جزئية حقيرة.

ومن أخس الهموم هو همّ الشهوات الحيوانية طيلة الوقت. وصرف الفكر في كيفية تحصيل تلك الشهوات والوصول إليها من مآكل ومناكح وأموال وقصور ومراكب. . وقد تقود هذه المشتهيات إلى ارتكاب أبشع الذنوب في سبيل الوصول إليها.

ثم همّ الترأس ونيل الجاه والمنصب والشهرة. وصرف الفكر في كيفية تحصيل ذلك من تعلم الأسباب المؤدية إلى ذلك كعلم الكلام والأفعال والحركات والمظاهر المختلفة لنيل إعجاب من هو فوقه في المنزلة أو الآخرين.

وهذه المشتهيات أيضاً قد تقود إلى أبشع الذنوب في سبيل الوصول إليها كالنفاق والخيانة وحتى القتل. . . إلخ.

ففي هذه الحالات والهموم التي ذكرتها يكون الإنسان بها منقاداً انقياداً تاماً لغرائزه التي تسيره. فهو إنسان مستهلك.

نعم يوجد هموم ومطالب إنسانية إيجابية. كصرف الفكر في فعل الخير وخدمة الآخرين بصدق. أو تعلم العلوم النافعة كالطب والفلك

والهندسة والاجتماع . . . إلخ .

ومن أشرف الهموم التي يمكن أن يهتم بها الإنسان هي معرفة الله والبحث عن الحقيقة بكلمة موجزة هي الفلسفة .

إذا الهموم هي : حيوانية ـ إنسانية ـ نظرية ـ عملية ـ إبداعية ـ ولا أقصد من ذلك أن الإنسان يجب أن يتوجه إلى شيء معين فقط ويترك الأمور الأخرى . بل يجب الاعتدال فللنفس حقها وللمجتمع حقه ولله حقه والتوازن في الواجبات شيء والاهتمام بشيء حقير سخيف طيلة العمر شيء آخر .

قال الإمام علي عليه السلام : للمؤمن ثلاث ساعات : فساعة يناجي فيها ربه . وساعة يرمُّ معاشه . وساعة يُخلّي بين نفسه وبين لذتها فيما يَحلُّ ويجمل . وليس للعاقل أن يكون شاخصاً إلاّ في ثلاث : مرمَّةٍ لمعاش . أو خطوة في معادٍ . أو لذةٍ في غير محرم[1] .

ـ في معنى القلب وحقيقته وأنه ليس محملاً للنفس الحيوانية البخاريّة ولا مجملاً للنفس الناطقة الإنسانية : ذهب الفلاسفة إلى أن هنالك في جانب الجسم أمور ثلاثة : القلب ـ الروح الحيوانية البخارية ـ الروح المجردة أو النفس الناطقة الإنسانية .

أما القلب فهو معروف وهو الذي يقع في الصدر إلى اليسار والذي وظيفته ضخ الدم في العروق وسائر أنحاء البدن، وهو مركب للنفس الحيوانية أوالروح البخارية، الباعثة على الحياة والحسّ والحركة والتي توجد لدى سائر الحيوانات، وتكون هذه الروح البخارية بدورها مركباً للروح المجردة أو الناطقة . وهكذا تكون النفس الحيوانية برزخاً بين القلب والنفس الناطقة المجردة .

---

(١) نهج البلاغة (شرح عبده) ص ـ ٧٤٩ .

أعتقد أن هذا الكلام غير صحيح للأسباب التالية: أولاً في أن القلب وهو الموجود في الجانب الأيسر من الصدر والذي وظيفته ضخ الدم في عروق البدن. فهذا كلام صحيح لا خلاف فيه وهذا ما أكده العلم الحديث والقديم.

وأما في أنه محمل للنفس الحيوانية أو الروح البخارية الباعثة على الحياة والحسّ والحركة فهذا ما نشك به. صحيح أن الناظر للقلب للوهلة الأولى يعتقد بأن ذلك الجسم هو منبع الحياة بسبب حركته ونبضه. ولكن الحقيقة هي أن نبضانه وحركته ليست منبعثة منه بل هو ينبض بأمر من الدماغ وإن كل نبضة من نبضاته لا يمكن أن تقع إلا بإشارة كهربائية غير اختيارية يرسلها الدماغ إلى عضلات القلب فهو أشبه بمضخّة تعمل بمحرك عضلي ولقد اكتشف العلم الحديث بأن كافة عضلات الجسم في تقلصها وتمددها بحاجة إلى إشارات من الدماغ وإن العضلات بأسرها موصولة بالدماغ بواسطة شرايين الجهاز العصبي ولا تعمل إلاّ بإذنه. يعني بإرادة النفس.

وأما بأن القلب هو محمل للنفس الحيوانية البخارية. فنتسائل ما هو ذلك البخار وما هي تركيبته الكيمائية وأين مكانه؟ فلقد فحص علماء الطب القلب بدقة وشرّحوه وحللوه فلم يجدوا شيئاً.

ثم إن البخار مهما كان لا يمكن أن يكون هو النفس الحيوانية وأن تكون له كل تلك الأفعال والغرائز الحيوانية.

وأما بأن ذلك البخار أو النفس الحيوانية هي بدورها محمل للنفس الناطقة الإنسانية فهذا أيضاً كلام غير صحيح. والجواب الذي ينسف كل هذه الادعاءات هو أن علماء الطب الحديث والجراحة أجروا عمليات زراعة لقلب جديد. حيث استأصلوا القلب بكامله وزرعوا مكانه قلباً اصطناعياً بلاستيكياً ومعدنياً. ومع هذا لم يمت الإنسان ولم تزل غرائزه الحيوانية وحياته وحسّه وحركته. ولم تزهق نفسه وهذا ما يؤكد بأن القلب

هو مجرد مضخّة للدم وليس محملاً لا للنفس الحيوانية ولا للناطقة الإنسانية، نعم هناك بعض الأحاسيس والانعكاسات على القلب والتي يشعر بها الإنسان. مثلاً: إذا خاف الإنسان أو تعرّض للخطر يزداد خفقان القلب ونبضاته وذلك بحسب التفكير للإنسان وأما الطمأنينة فهي بالعكس أي الهدوء فجميع هذه الردود من الأفعال من ناحية القلب إنما هي بسبب ما يجري في الفكر. فالقلب دائماً يتبع الفكر ويتأثر به وليس العكس وكذلك في الإيمان والشك فالإيمان هو الطمأنينة والشك هو القلق والاضطراب. وكذلك الشجاعة والجبن والغضب والحلم. أو ما إذا توقع مكروهاً ما فإن القلب يتأثر بذلك.

ثم إن الأحاديث الإسلامية حول موضوع القلب ليس المقصود منها دائماً ذلك العضو الذي في الصدر فكلمة قلب تعني أيضاً قلب الشيء وداخله ولقد أشير في أحاديث كثيرة إلى العقل باستخدام كلمة قلب.

جاء في حديث للإمام موسى الكاظم عليه السلام لهشام، فقال له: يا هشام إن الله يقول ﴿**إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب**﴾ يعني العقل[1].

وأكرر ما قلته سابقاً بأن جميع أرواح الحيوانات وبما في ذلك الإنسان، لهذه الأرواح والأنفس علاقة وثيقة بأجهزتها العصبية (الدماغ) فهو مركز الأنفس والأرواح ومحملها. وسلطانها على سائر البدن وأعضائه وقواه. فهي الحاملة له وليس هو الحامل لها. والله العالم.

ـ في أنواع الادراكات:

اعلم أن أنواع الادراكات ثلاثة: حسّي، وخيالي، وعقلي.

ـ فالحسّي هو الاتصال المباشر بين الحاس والمحسوس، أي اتصال الحواس الخمس بالعالم الموضوعي المحسوس المادي.

---

(١) تحف العقول ـ ص ـ ٢٨٤.

ـ والخيالي هو إدراك المحسوسات الداخلية وهي التي حفظتها الذاكرة بعدما أن أدركتها حسياً سابقاً بالحواس الخمس. كما باستطاعته تركيب بعضها مع بعض...

ـ والعقلي هو إدراك لمعنى غير محسوس بل معقول لكن لا يدركه كليّاً بل مضافاً إلى جزئي محسوس ومحدد.

أما العقلي بنظر التصوف والعرفان هو إدراك لمعنى غير محسوس بل معقول بشكل كلي ومجرد عن الحس والخيال والوهم.

فهذه الادراكات الأربعة مترتّبة تدريجياً في التجرد عن المادة.

ـ قيمة هذه الإدراكات الأربعة ومدى قدرتها على إدراك الحقائق والإحاطة بها.

الحس: إعلم أن الحسّ له القدرة على إدراك المحسوسات الماديّة كافة ضمن حدود وشروط معينة مثلاً: في البصر يتطلب أن يكون الضوء موجوداً وأن يكون الجسم لا قريباً جداً ولا بعيداً وإن أي خلل في هذه الشروط يجعل إدراك الشيء غير كامل وغير دقيق إذاً للإدراك درجات متفاوتة بحسب الشروط فمثلاً نظرة الإنسان إلى القمر بالعين المجردة قبل غزوه كانت تختلف درجتها على ما أصبحت عليه بعد غزوه والاقتراب منه والهبوط على ظهره حيث أدرك الإنسان ببصره حقائق أخرى جديدة. وكذلك في النظر إلى المادة قبل وجود المجهر وبعده... إلخ.

كما يجب أن نشير إلى أن الحواس تعاني من نقاط ضعف كثيرة مما يجعل قيمتها ناقصة وغير كاملة. مثلاً: العصا داخل الماء يراها البصر مكسورة، والحقيقة إنها غير مكسورة.

والجسم الأبيض اللون يراه البصر على أنه أكبر من الجسم الأسود اللون.

والجسم الذي يدور حول نفسه بسرعة يراه البصر على أنه مستدير الشكل، والحقيقة أنه يمكن أن لايكون مستدير الشكل تماماً.

وكذلك أيضاً في كافة أفعال السحر فهي ترتكز في معظمها على خدع البصر.

وكذلك فإن البصر والحسّ يرى أن الأرض ثابتة ومسطحة وأن الشمس والفلك والنجوم هي المتحركة وهي التي تدور حول الأرض. والحقيقة هي بعكس ذلك تماماً.

إذا نستطيع أن نقول أن قيمة أن نقول إن قيمة الحواس الخمس ناقصة وغير كاملة ولا تستطيع إدراك الحقائق على ما هي عليه إلا بشكل محدود وضمن شروط معينة. وكذلك يمكن أن نقيس سائر الحواس الخمس في إدراكاتها.

ـ **الخيال**: أما الخيال فهو أيضاً عاجز عن إدراك الحقائق فهو كالحسّ تماماً والحسّ هو المموّن له كافة صور المحسوسات. الفارق الوحيد هو أن إدراكاته مجردة عن المادة ولكنها كالحسيّة تماماً إلاّ أنني أعتقد أنها أقل صفاء ونقاء. فمثلاً: لو رأينا صورة حسيّة ثم تخيلناها فيما بعد فإن الخيال غير قادر على أن يراها بنفس الصفاء والنقاء الحسّي.

يبقى أن نشير إلى أن للخيال قدرة على استحضار الصور متى شاء. بلا مكان وبلا زمان تستطيع مثلاً أن تتخيّل صورة الكعبة والنجف والقدس ومشهد أو أيّ صورة أخرى بعيدة عنك. تستطيع أن ترى كل ذلك في بضعة ثواني. أما إذا أردت ذلك حسياً فإنه يستلزم أيّاما طويلة أو ساعات. بحسب وسيلة النقل التي تستخدمها. إذا للادراك الحسّي شروط متعددة أهمها مكانيّة وزمانيّة. بعكس الخيال فهو لا يحتاج لهذه الشروط.

ـ **العقل**: أما العقل فهو بإمكانه إدراك حقائق غيبية خارج نطاق الحس يستنبطها من مقدمات أولية منطقية مؤكدة وصحيحة والتجربة تأتي

فيما بعد لتؤكد أو تنفي صحة أو خطأ استنتاجاته والتجربة تطبق فقط على الأمور المادية المحسوسة والتي بمتناول الإنسان وليس على الأمور المجرّدة والمعنوية لاستحالة ذلك. ولقد شرحت ذلك أول الكتاب (انظر مصادر المعرفة وحصولها في النفس).

أما الوهم فهو يُعتبر عقلٌ ساقط لا قيمة له استنتاجاته أوهام ليست مبنية على مقدمات منطقية كبعض الأوهام القديمة التي كانت تعتقد أن الأرض على ظهور فيلة أو على قرون ثور أو أنها مسطحة ولها أطراف لو تجاوزها الإنسان لسقط إلى أسفل. أو أن الشمس تغيب في البحر أو تذهب لتغيب في مكانٍ ما. . .إلخ. من خرافات وأوهام مختلفة.

فالوهم كما نرى قيمته ساقطة لا يمكن الاعتماد عليه في إدراك حقائق غيبية.

ـ أما العقل حسب المذهب الصوفي والعرفاني فهو المدرك لمعاني غير محسوسة وغير منتزعة في مقدمات أولية فهو مدرك للمعاني الكليّة المجردة عن الحسّ والخيال والوهم. وهو بحسب اعتقادهم أن الإنسان العاقل الذي صفت نفسه وطهر عقله بالرياضات والمجاهدات النفسية يصبح قادراً على الاتصال بعالم الغيب والملائكة وعالم الملكوت وذلك حتى قبل الموت في هذا العالم.

إليك مثالاً على تلك الادراكات: يقول العرفاء بأن طائراً قدسياً يسمونه العنقاء ولا يشكون في وجوده مكانه جبل قاف صفيره يوقظ الراقدين في مراقد الظلمات، وصوته ينبه الغافلين عن تذكر الآيات نداؤه ينتهي إلى سماع الهابطين في مهوى الجهالات المترددين كالحيارى في تيه الظلمات النازلين في عالم الهيولى والهاوية الظلماء والقرية الظالم أهلها، ولكن قلّ من يستمع إليه ويصغي لندائه ويعرف صداه، لأن أكثرهم عن السمع لمعزولون، وعن آيات ربهم معرضون، صمٌّ بكمٌ عميٌ فهم لا يعقلون، هو مع جميع الخلق وهم ليسوا معه.

وكل من له علّة الاستسقاء أو فيه مرض السوداء يستقي بظلاله، وكذا من به من علّة ماليوخوليا ينتفع بسماع صفيره بل الأمراض والعلل الممرضة كلّها يزول بخواص أجنحته ورياشه إلا مرض واحد مهلك وهو الجهل الراسخ المركب بالعناد، وله الطيران صعوداً ونزولاً من غير حركة وانتقال، وله الذهاب والمجيء من غير تجدد حال وارتحال، وإليه القرب والبعد من دون مسافة ومكان ولا تغيّر وزمان، منه ظهرت الألوان في ذوات الألوان وهو مما لا لون له، وكذا الأمر في باب الطعوم والروائح، ومن فهم لسانه يفهم جميع ألسنة الطيور، ويعرف كلّ الحقائق والأسرار، مستوكره المشرق ولا يخلو عنه ذرّة في المغرب، الكل به مشتغل وهو من الكلّ فارغ، والأمكنة مملوءة منه وهو خال عن المكان، العلوم والصنائع مستخرجة من صفيره والنغمات اللّذيذة والأغاني العجيبة والأرغنوان والموسيقارات المطربة وغيرها مستنبطة من أصول هذا الطير الشريف الذات المبارك الاسم.

كل من يتعوذ بريشة من رياشه يجوز في النار آمناً من الحرق، ويعبر على الماء مصوناً من الغرق بل استكمال جميع الخلق بأنحاء كمالاتهم ووصول السالكين إلى مآربهم وحاجاتهم بتأييد هذا الطير القدسي[1].

هذا نموذج من الإدراك العقلي لمعاني عقلية كليّة مجردة عن المادة والخيال والوهم بحسب نظر التصوف والاشراق

هذه هي الادراكات الثلاثة للنفس الناطقة الإنسانية بحسب درجتها في المرتبة.

يبقى أن أذكّر بأن الإدراكات الثلاثة يمكن لها أن تخطىء في إدراكاتها وهذا ما جعل البعض لا يؤمن إلا بالتجربة.

مما أدى إلى إنشاء المدرسة العلمانية. وهي التي ترفض كل علم

---

(١) الحكمة المتعالية ج ـ ٩ ـ ص ـ ١٤٤.

وكل خبر لا تثبت صحته التجربة.

وهنا افترق العلم الحديث والإيمان. بينما العلم لا يؤمن إلا بالدليل المحسوس والتجربة. الإيمان بدوره اعتقاد بلا دليل محسوس وبلا تجربة.

وأما الإدراك الرابع العقلي المجرد هو أيضاً ليس عليه دليل فلا نستطيع معرفة قيمته في إدراك الحقائق. أقصد بذلك الاشراق.

ـ النفس ومراتبها المختلفة وترقيها في الإدراكات:

إن أول شيء يحدث إنما هو دخول النفس عند الولادة هذا العالم الحسّي. ثم بعد ما أن تتعرّف على محسوساته وماهياته وخصائصه كافة، تصبح عندئذٍ النفس عالماً خيالياً، ثم بعد ذلك تواصل ترقيها فتصل إلى درجة المعقولات.

أما لدى التصوف والاشراق فهي بنظرهم تواصل ترقّيها فتصل إلى درجة إدراك المعقولات المجردة كلياً فتصبح عندئذٍ عالماً عقلياً متصلة به وهو عالم الملكوت.

فالنفس قبل تحصيل المحسوسات والأوليات تسمى عقلاً هيولانياً.

وأما بعد تحصيلها ذلك ووصولها إلى مرتبة الخيال، تسمى عقلاً بالملكة.

وأما بعدما تصل إلى درجة إدراك المعقولات المجردة جزئياً وهي المرتكزة على مقدمات منطقية، عندئذٍ تسمى عقلاً بالفعل.

وأما عندما تصل إلى درجة العلم الكامل في إدراك كافة النظريات والمعقولات والأدلة والبراهين كافة، وحلّ كل معضلة والجواب على كل سؤال بلا تذكر وبلا رويّة، عندها تسمى عقلاً مستفاداً.

وأما ما إذا أدركت المعقولات المجردة بشكل كلي واتصلت بعالم

الملكوت سواء قبل الموت أو بعده، عندئذٍ تسمى عقلاً فعالاً.

ـ أما الحكمة فلقد قسمها العلماء إلى نظرية وعملية.

أما النظرية فهي العلم الأعلى أو علم ما بعد الطبيعة. والعلم الأوسط وهو علم الرياضيات. والعلم الأدنى وهي العلوم الطبيعية.

ـ وأما الحكمة العملية فهي تهذيب الأخلاق، وتدبير المنزل، وسياسة المدن.

ـ فالنفس الناطقة كلما تكاملت وتجوهرت كلما قلّت علاقتها بالبدن وحاجتها إليه فهي بحاجة إليه في البداية حتى تصل إلى مرتبة العقل المستفاد، أما بعد ذلك فلم تعد بحاجة إليه في نشاطها الفكري الداخلي. وبما أننا نعيش في هذا العالم الحسيّ والمادي فلا بد لنا من البدن وأعضائه لكي تنجز النفس أفعالها المختلفة.

بنظري الإنسان وحتى آخر يوم في حياته يبقى يتعلم ما يجهله. والمعرفة الإنسانية لا زالت تواصل سيرها وتوسع آفاقها يوماً بعد يوم وجيلا بعد جيل. حتى العقل المستفاد هو ناقص ويجهل أمور كثيرة ربما سموه مستفاداً لأنه تعلم وأحرز العلوم الدينية وما جاء في الكتب المقدسة وما تحمله من تفسير عن عالم الوجود فهي بنظرهم حقائق مطلقة كاملة.

أما في وجهة نظر المدرسة العلمانية هي ليست بحقائق مطلقة. بل تحتوي على كثير من المعلومات الخاطئة.

ـ دور العقل في تنظيم الغرائز، ومنشأ الأخلاق:

إعلم أن النفس الإنسانية في المراحل الأولى من تكاملها وتطورها كنفوس الأولاد والشباب تتفتح غرائزها ودوافعها المختلفة بدءاً بالحيوانية ثم الإنسانية ومقابل هذا التفتح في الغرائز الدافعة لم تكن عندها النفس الناطقة قد ترقّت بعد أو أحرزت علومها ومعارفها العقلية فإنه لا بد لها من

ارتكاب سلسلة من الأخطاء من الإفراط والتفريط في سلوكها وتعاملها مع هذه الغرائز المختلفة. فالأخطاء وبنتائجها المضرة على الإنسان تجعله شيئاً فشيئاً يفكر ويغيّر سلوكه وأفعاله جذرياً وتجعله باحثاً عن العلم والحكمة التي بها يعلم أو يستنبط الخير من الشر والحسن من القبيح من الأفعال وتتبدل الأخلاق من سيئة إلى حسنة وتعتدل النفس في أفعالها وتصرفاتها وتستمر هكذا في ترقيها حتى تبلغ كمالها الإنساني اللائق بها فعندها تكون قد أحرزت الحكمة العلمية والعملية ونالت الحريّة.

أما الأنفس التي لا تتهذب عملياً بالأخلاق فهي تبقى دائماً مستعبدة لغرائزها وشهواتها رهن الإفراط والتفريط وقيد العبوديّة، ناقصة الكمال، لا وبل قد تتكامل في الجانب السلبي المعاكس للفضائل والخير. فتصبح جاهلة جامعة لمساوىء الأخلاق والشر، وفاعلة لأقبح الذنوب. وإن كانت عالمة ومحرزة للحكمة النظرية.

إذاً فجميع الأخلاق الحسنة منها أم القبيحة جميعاً مصدرها غريزتا الشهوة والغضب.

فالحريّة هي الاعتدال والاستعلاء على هذه الغرائز، بينما العبوديّة هي الخضوع والانقياد لهذه الغرائز والشهوات.

قال النبي الأكرم ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». كما فرض الإسلام على الإنسان جهاد النفس، فما جهاد النفس إلا للجم هذه الغرائز والميول والشهوات وتدريب الإنسان نفسه على الصبر وترويضها حتى يكفّ شرها وتصبح النفس مطيعة خاضعة لميزان العقل وأوامره، وأن يصبح الإنسان سيد نفسه لا عبداً لها. فإذا حصل ذلك يكون ذا إرادة وعزم وثبات وحريّة فيصمد أمام نفسه وأمام الأعداء.

ـ يقول صدر الدين الشيرازي قدس سره الشريف: كما أن للإنسان صورة ظاهرة حسنها بحسن الجميع واعتداله وقبحها البعض فضلاً عن الجميع فكذلك الصورة الباطنة لها أركان لا بد من حسن جميعها حتى

يحسن الخلق وتحصل الحكمة والحرية وهي أربعة معان: قوة العلم، وقوة الغضب، وقوة الشهوة، وقوة العقل والعدل بين هذه الأمور؛ فإذا استوت هذه الأركان الأربعة التي هي مجامع الأخلاق التي تتشعب منها أخلاق غير محصورة اعتدلت وتناسقت وحصل حسن الخلق، أما قوة العلم فأعدلها وأحسنها أن تصير بحيث تدرك الفرق بين الصدق والكذب في الأقوال، وبين الحق والباطل في الاعتقادات، وبين الجميل والقبيح في الأعمال؛ فإذا انصلحت هذه القوة واعتدلت من غير غلوّ وتقصير حصلت منها ثمرة هي بالحقيقة أصل الخيرات ورأس الفضائل وروحها، قال تعالى ﴿**ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً**﴾ وقال أيضاً ﴿**ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم**﴾ بعد قوله: ﴿**ويعلمهم الكتاب والحكمة**﴾ فهذه الحكمة ثمرة الحكمة بالمعنى الأول، وهي كلما كانت أكثر وأشد فهي أفضل بخلاف المعنى الأول.

وأما قوة الغضب فاعتدالها أن يصير انقباضها وانبساطها على موجب إشارة الحكمة والشريعة وكذلك قوة الشهوة، وأما قوة العدالة فهي في ضبط قوة الغضب والشهوة تحت إشارة الدين والعقل، فالعقل النظري منزلته منزلة المشير الناصح، وقوة العدل وهي القدرة التامة منزلتها منزلة المنفذ والممضي لأحكامه وإشاراته، وقوتا الغضب والشهوة هما اللذان تنفذ فيهما الحكم والإشارة، وهما كالكلب والفرس للصياد حيث ينبغي أن يكونا في الحركة والسكون والقبض والبسط والأخذ والترك مطيعين له منقادين لحكمه.

وأما قوة الغضب فيعبّر عن اعتدالها بالشجاعة والله تعالى يحب الشجاع؛ فإن مالت إلى طرف الإفراط سمي تهوراً، وإن مالت إلى النقصان سميّ جبناً.

ويتشعب من اعتدالها وهو الشجاعة خلق الكرم والنجدة والشهامة والحلم والثبات وكظم الغيظ والوقار وغير ذلك وأما إفراطها فيحصل منه

خلق التهوّر والصلف والبذخ والاستشاطة والكبر والعجب، وأما تفريطها فيحصل منه الجبن والمهانة والذلة والخساسة وضعف الحميّة على الأهل وعدم الغيرة وصغر النفس.

وأما الشهوة فيعبّر عن اعتدالها بالعفّة، وعن إفراطها بالشِّرة. وعن تفريطها بالخمود، فيصدر من العفة السخاء والحياء والصبر والمسامحة والقناعة والورع وقلّة الطمع والمساعدة، ويصدر عن إفراطها الحرص والوقاحة والتبذير والرياء والهتك والمجافاة والملق والحسد والشماتة والتذلل للأغنياء واستحقار الفقراء وغير ذلك.

وأما قوة العقل والحكمة فيصدر عن اعتدالها حسن العدل والتدبير، وجودة الذهن وثقابة الرأي، وإصابة الظن والتفطن لدقائق الأعمال وخبايا آفات النفوس، وأما إفراطها فتحصل منه الجربزة والمكر والخداع والدهاء، ويحصل من ضعفها البله والحمق والغباوة والانخداع؛ فهذه هي رؤوس الأخلاق الحسنة والأخلاق السيئة المعبر عنها في حديث عذاب القبر برؤوس التنين، ومعنى حسن الخلق في جميع أنواعها الأربعة وفروعها هو التوسط بين الإفراط والتفريط والغلوّ والتقصير فخير الأمور أوسطها، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم، قال تعالى: ﴿**ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط**﴾ وقال: ﴿**والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً**﴾ وقال: ﴿**أشداء على الكفار رحماء بينهم**﴾ ومهما انحرف بعض هذه الأمور عن الاستقامة إلى أحد الجانبين فبعد لم تتم مكارم الأخلاق[1].

في ذكر حديث جنود العقل والجهل:

عن الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام أنه قال لهشام بن الحكم في حديث طويل حول العقل جاء في بعض فقراته قال: يا هشام أعرف

(١) تحف العقول ص ـ ٢٩٥.

العقل وجنده، والجهل وجنده تكن من المهتدين، قال هشام: فقلت جعلت فداك لا نعرف إلاّ ما عرّفتنا؟.

فقال عليه السلام: يا هشام إن الله خلق العقل وهو أول خلق خلقه الله من الروحانيين عن يمين العرش من نوره فقال له: أدبر، فأدبر. ثم قال له: أقبل، فأقبل. فقال الله جل وعزّ: خلقتك خلقاً عظيماً وكرمتك على جميع خلقي. ثم خلق الجهل من البحر الأجاج الظلماني، فقال له: أدبر، فأدبر. ثم قال له: أقبل، فلم يقبل. فقال له: استكبرت فلعنه. ثم جعل للعقل خمسة وسبعين جنداً، فلما رأى الجهل ما كرّم الله به العقل وما أعطاه أضمر له العداوة فقال الجهل: يا رب هذا خلق مثلي خلقته وكرمته وقويته وأنا ضدّه ولا قوة لي به أعطني من الجند مثل ما أعطيته؟ فقال تبارك وتعالى: نعم، فإن عصيتني بعد ذلك أخرجتك وجندك من جواري ومن رحمتي، فقال: قد رضيت فأعطاه الله خمسة وسبعين جنداً فكان مما أعطى العقل من الخمسة والسبعين جنداً: الخير وهو وزير العقل وجعل ضده الشرّ وهو وزير الجهل.

الإيمان، الكفر،	التصديق، التكذيب،	الاخلاص، النفاق،
الرجاء، القنوط،	العدل، الجور،	الرضا، السخط،
الشكر، الكفران،	اليأس، الطمع،	التوكل، الحرص،
الرأفة، الغلظة،	العلم، الجهل،	العفة، التهتك،
الزهد، الرغبة،	الرفق، الخرق،	الرهبة، الجرأة،
التواضع، الكبر،	التؤدة، العجلة،	الحلم، السفة،
الصمت، الهذر،	الاستسلام، الاستكبار،	التسليم، التجبّر،
العفو، الحقد،	الرحمة، القسوة،	اليقين، الشك،
الصبر، الجزع،	الصفح، الانتقام،	الغنى، الفقر،
التفكر، السهو،	الحفظ، النسيان،	التواصل، القطيعة،
القناعة، الشره،	المواساة، المنع،	المودة، العداوة،
الوفاء، الغدر،	الطاعة، المعصية،	الخضوع، التطاول،

السلامة، البلاء،	الفهم، الغباوة،	المعرفة، الإنكار،
المداراة، المكاشفة،	سلامة الغيب، المماكرة،	الكتمان، الإفشاء
البرّ، العقوق،	الحقيقة، التسويف،	المعروف المنكر،
التقيّة، الإذاعة،	الإنصاف، الظلم،	التقى، الحسد،
النظافة، القذر،	الحياء، القحة،	القصد، الإسراف،
الراحة، التعب،	السهولة، الصعوبة،	العافية، البلوى،
القوام، المكاثرة،	الحكمة، الهوى،	الوقار، الخفّة،
السعادة، الشقاء،	التوبة، الإصرار،	المحافظة، التهاون،
الدعاء، الاستنكاف،	النشاط، الكسل،	الفرح، الحزن،
الإلفة، الفرقة،	السخاء، البخل،	الخشوع العجب،
صون الحديث، النميمة،	الاستغفار، الاغترار،	الكياسة، الحمق

يا هشام: لا تجتمع هذه الخصالة إلا لنبيّ أو وصيّ أو مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان، أما ساير ذلك من المؤمنين فإن أحدهم لا يخلو من أن يكون فيه بعض هذه الجنود من أجناد العقل.

حتى يستكمل العقل ويتخلص من جنود الجهل، فعند ذلك يكون في الدرجة العليا مع الأنبياء والأوصياء عليهم السلام، وفقنا الله وإياكم لطاعته[1].

فكما نرى من هذا الحديث فإن الأفعال الإنسانية كافة قد تكون حسنة وقد تكون قبيحة، وهذا التميّز بين الحسن منها والقبيح منها والعلم حاصل عن طريق اكتساب وتجارب واستنباط. فالعلم بالأخلاق هو بالعقل النظري، والعمل والتخلف بها هو بالعقل العملي.

ـ فالمدرك لذلك يسمى عاقلاً ـ وكذلك الفاعل لها يسمى أيضاً عاقلاً بشرط أن يكون فعله لها ناتج عن قصد وليس عن طريق الصدفة ـ والأفعال

---

(١) الحكمة المتعالية ج ـ ٩٠ ـ ص ـ ٨٨ ـ ٨٩ ـ ٩٠ ـ ٩١.

نفسها أيضاً قد تسمى عقلاً كما رأينا في هذا الحديث حيث أطلق عليها جنود العقل.

فهذا هو العقل وإدراكاته المختلفة الحاصلة به والتي منها فطرية ومنها كسبية ومنها استنباطية وكلها راجعة إلى نفس واحدة وهي النفس الناطقة الإنسانية.

وأخيراً نقول لا يكفي للنفس بأن تكون عالمة نظرياً بالحسن والقبيح وعلم الأخلاق وغيرها فقط، فلا بد لها من أن تلتزم عملياً وتتخلّى عن مساوىء الخلاق وتتحلّى بمكارم الأخلاق لأنه إذا ترك لها العنان فإنها تستعصي وتتهاون وتتمرد وتتراخى فتخلد إلى البدن وشهواته، فتفقد حريتها وترجع إلى عبوديّة الشهوات والأسر والذل.

ـ في معنى التقوى:

فإذا علمت بعد هذا أن النفس الإنسانية جوهر غير ثابت على حال وأن النفس قد تسقط من القمة إلى الأسفل وقد تترقى من الأسفل إلى القمة وذلك بحسب نواياها وأفعالها وما يرد عليها من الخارج، فكان لا بد من وقائها وحراستها وتحصينها بحصن التقوى من المخاطر فهي حقاً تستحق ذلك من الحراسة المشددة فهي كنز من أغلى الكنوز لأن أي إهمال في صيانة حصنها فإن النتيجة ستكون انفتاح ثغرات هنا وهناك ما يجعلها عرضةً لمخاطر الأعداء، والأعداء هم جنود الجهل والشيطان والذين همهم الوحيد هو احتلال القلعة الصامدة وتحويلها إلى حصن شيطاني خاضع لسيطرتهم ومسكون بجنود الجهل والشيطان إذاً التقوى هي السور الواقي لقلعة النفس. فيجب الحذر من أي تسلل لأنه إذا اتخذ العدو موطىء قدم له بالداخل فإن المعركة ستكون حامية. قد ينتصر بها الشيطان والجهل وجنوده. لا سمح الله.

إذاً فالتقوى هي غض الحواس والقوى عن المحارم والمكروهات

وبعض المباحات كي لا تُستدرج النفس شيئاً فشيئاً إلى الكبائر. كما يوجد درجات أخرى للتقوى منها تقوى حب الدنيا وتقوى حب الذات، غير ذلك من درجات عالية للتقوى تتحلى بها أنفس السالكين بحسب منازلهم.

فلا يكفي للتقوى غض الجوارح.

فأولاً: يجب غض الجوارح وهذه مهمة ووظيفة كل إنسان.

ثانياً: إزالة جميع المهيجات الخارجية المحرمة واستبدالها بمنشطات روحية وهذه وظيفة الحكومة الإسلامية من إيجاد الجو العام الهادىء والسليم.

ثالثاً: تقوى القلب وهي إزالة التفكر واللهج بالمحرمات من الداخل باصلاح النيّة. لأن الخطر لا يأتي دائماً من الخارج فشيطان الداخل أيضاً خطير جداً الوسواس الخناس والنفس الأمارة بالسوء قرينة الشيطان التي يجب جهادها. والذي سماه الرسول الأكرم ﷺ الجهاد الأكبر. فهو الأصعب والأخطر.

ثم إنه ليس شيىء أكثر هدماً للنفس من حب الدنيا والشهوات والأماني والآمال وارتكاب الذنوب.

فسقوط حصن التقوى يعني سقوط النفس وانهيارها وذلها واستعبادها، وسقوط الأفراد يعني سقوط المجتمع، وسقوط المجتمع يعني سقوط الأمة، وسقوط الأمة يعني الفناء.

هذا بالإضافة إلى سخط الله وعذابه لسقوط الإنسان من مرتبة العقل والمنزلة الرفيعة التي كرّمه الله سبحانه وتعالى بها إلى مرتبة الحيوانية ومنزلة البهيمية إلى أسفل السافلين.

ـ وأخيراً أقول إن النفس الإنسانية كما جاء في الأديان وخصوصاً في الإسلام نشأت متعددة منها قبل البدن وهو عالم الذرّ، ومنها بعد البدن هو عالم البرزخ، ومنها العودة من جديد إلى البدن وهو يوم البعث

والنشور للحساب. وأخيراً عالم الآخرة وخلود النفس إما في الجنة وإما في النار.

ولقد قررت التوقف والاقتصار على ما ذكرته حول النفس من ذكر قواها وغرائزها وأطوارها لأن ذلك شيءٌ تحت حيطة الإنسان وبمتناول إدراكاته وعليه أدلة وبراهين. دون تجاوز ذلك واقتحام الغيوب أو التكهّن والتوهّم. فهو أمثل. قال تعالى: ﴿**يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا**﴾. صدق الله العلي العظيم. وصدق رسوله الكريم. والله العالم.

ـ الله ـ (ج)

عندما ينظر الإنسان إلى نفسه وجسده وإلى ما حوله إلى الشمس والقمر والنجوم وإلى الليل والنهار وإلى الجماد والنبات والحيوان والإنسان وإلى ما في الوجود من آيات مذهلة يطرق الفكر سؤال: من أين كل هذا؟ ومن أبدع وخلق كل هذا الخلق وهذا الجمال؟ وما هي تلك القدرة وتلك العظمة؟ سؤال يطرحه كل إنسان وللجواب على هذا السؤال هنالك جوابان: جواب فطري غريزي. وجواب عقلي استدلالي.

أما الفطري وهو الجواب الذي لا يحتاج إلى أدنى تفكير وهو ما أودعه الله بفطرة بني البشر كافة يوم الخلق وهو جواب ومعرفة بديهية غريزية يعلمها ويشعر بها كل إنسان دون تعلمها من معلم أو من أحد، وهي معرفة الله جل جلاله والانجذاب نحوه والشعور بوجوده. وإنما سمي الله إلهًا لأن القلوب تأله إليه وتطلبه وتتوجه إليه. حتى الكافر هو أيضاً كالمؤمن مفطور على معرفة الله وما كفره إلاّ لعوامل جعلته يعمى ويحتجب عن هذه المعرفة الفطرية ولكنها تتجلى وتظهر في ظروف ومناسبات تجعله يشعر ويُدرك بوضوح وجود خالقه كأن يواجه مثلاً خطر الموت في حادث ما.

أو أن يتعرض لظلم فادح أو لحكمٍ جائر عندها يتولد لدى الإنسان

شعور أنه لا بد من وجود إله قوي عادل بصير سميع يعيد الحق ويحكم بالعدل. والشعور بالله لا يتجلى فقط عند مداهمة الخطر أو التعرض لحادث رهيب. بل يتجلى أيضاً عند اللذة أو رؤية الجمال وإن كان ذلك بدرجة أقل من مداهمة الخطر: (انظر أبعاد الإنسان ـ غرائز النفس الإنسانية).

وأما الجواب العقلي الاستدلالي. وهو ما تشهد به الآيات الساطعة في عالم الوجود في الآفاق والأنفس من قدرة وإبداع وإتقان وحسن تدبير وتنظيم بالغ الدقة. وما تشهد به سنن الطبيعة وهو أنه لكل حادث مُحدث ولكل سبب مسبب ولكل أثر مؤثر وهو ما تؤكده السنن والتجارب ويصدقه العقل والمنطق.

قد يقف الإنسان مذهولاً أمام لوحة فنية زيتية لأحد الفنانين وكم يُعجب بجمالها وبصفات راسمها وذلك دون أن يكون قد رآه على الإطلاق. وإذا كان هذا هو حال لوحة زيتية لا يتجاوز طولها وعرضها ذراعاً وما بداخلها لا يعدو أن يكون خربشات لبعض الألوان. فكيف لنا أن لا نذهل من لوحة الوجود العملاقة التي رسمتها يد القدرة الإلهية هذه اللوحة ذات الأبعاد المتعددة الطول والعرض والعمق و... والتي نحن جزء بسيطاً منها ونعيش بداخلها والتي تحوي بداخلها أجمل المناظر الطبيعية الخلابة وأطيب الروائح العطرة والنغمات المطربة وسائر المدركات الحسيّة والعقليّة فهي الدالة والشاهدة على عظمة وقدرة مبدعها وخالقها وجماله وجلاله وسائر صفاته وكمالاته. فالوجود لا ينفك عن ثلاث احتمالات إما نحن الخالقين له وإما الصدفة هي الخالقة له وإما الله هو الخالق. الجواب على الاحتمال الأول: لسنا نحن الخالقين له ولا لأنفسنا وهذا شيء بديهي لا يحتاج إلى دليل أو شرح نحن الفقراء حتى إلى أبسط الأمور التي نحيا بها كالهواء والماء... فلو اجتمع كافة بني البشر بعلمائهم ومهندسيهم وخبرائهم واتفقوا جميعاً على خلق أو إحداث بعوضة ما استطاعوا ذلك ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً. بل حتى خلية واحدة

حيّة من تلك البعوضة لا يستطيعون ذلك. وإذا كان هذا هو حال البشرية جمعاً والتي يصل تعدادها بضعة مليارات نسمة، بالعجز عن خلق بعوضة أو خلية منها، فإن الصدفة أعجز من ذلك على خلقها. فإذا أصبحنا على يقين بأنه لسنا نحن الخالقين للعالم ولا الصدفة هي الخالقة له فلم يعد يبقى أمامنا سوى الاحتمال الثالث وهو وجود إله خالق غني مطلق عليم قدير هو الخالق والمبدع. وقد يطرح الفكر سؤالاً آخر وهو: الله من خلقه؟

صحيح أن مبدأ قانون العليّة مبدأ صحيح لا شك فيه وهو ما تشهد به سنن الحياة وهو شيء ظاهر بكثرة في عالم الطبيعة وهو أنه لكل علة معلول ولكل أثر مؤثر ولكل سبب مسبب ولكل حادث مُحدث ولكل صنع صانع ولكل بناء بانٍ وهذا المبدأ ينطبق على كل شيء في الوجود ما عدا الله سبحانه وتعالى الغني المطلق بذاته عمن سواه وهذا أمر لا تناقض به على الإطلاق. قد يسأل سائل كيف أن أبسط الأشياء من حوادث وأسباب وأثر يلزم أن يكون لها مُحدث ومسبب ومؤثر. وكيف الله بعظمته وكمالاته... كيف يمكن أن يكون بلا أولية لا خالق له غنيٌ بنفسه. وللجواب على ذلك أمامنا ثلاث احتمالات لا مفر من اختيار أحدها وهي:

أولاً: إمّا أن تكون سلسلة العلل والمعاليل متصاعدة بخط مستقيم لا نهاية لها وهو أن يكون لكل حادث محدث ولكل مخلوق خالق ولخالق الخالق خالق ولخالق خالق الخالق خالق وهكذا جرّ إلى ما لا نهاية فهذا الاحتمال كما نرى يرفضه العقل ولا يقبله.

وأما الاحتمال الثاني وهي أن تكون سلسلة العلل والمعاليل بشكل دائرة أو حلقة مغلقة وهي التي تدور بها العلل والمعاليل بشكل متلاحق ويكون كل واحد منها بنفس الوقت علة ومعلول خالقا ومخلوقا غنيا وفقيرا.

وهذا الاحتمال أيضاً غير منطقي لأنه لا بد لهذه الحلقة من بداية

وأي علة من عللها تكون هي البادئة وكيف تكون بادئة وهي فقيرة إلى ما قبلها.

وهذا التناقض والجدل يشبه قصة الدجاجة والبيضة. نعم يوجد حلقات في عالم الطبيعة ولكنها ليست حلقات مغلقة بشكل تام بل هي شبه مغلقة ولو كانت مغلقة لكانت غنية بذاتها مثالاً على ذلك دورة المياه حيث إن البحار تتبخر بفعل أشعة الشمس الساطعة على مساحاته الشاسعة فيتصاعد منه بخار فإذا ارتفع البخار في الجو تحول إلى غيوم ثم الغيوم تساقط أمطارها على الأرض وسفوح الجبال فتسيل منها أنهار وينابيع ثم تنحدر المياه إلى البحر. فهذه الحلقة أو الدورة تبين لنا كيف أن شعاع الشمس على البحار علة التبخر والبخار علة الغيوم والغيوم علة الأمطار والأمطار علة الأنهار والينابيع وكيف أن الماء يعود إلى البحر بفعل الجاذبية الأرضية وهكذا دوران فإن هذه الحلق كما نرى ليست مغلقة تماماً بل هي مرتبطة بعلل أخرى فشعاع الشمس الذي هو علة التبخر مصدره من قلب الشمس وهو نتيجة للانفجارات النووية في جوفها. بل حتى الشمس نفسها هي جزء من حلقة أكبر فهي تدور حول وسط المجرّة والمجرّة بدورها جزء من نظام أكبر إلى هذا الحدّ وصل علم الفلك بينما الفكر الإنساني بإمكانه مواصلة السير وهو سينتهي لا محال إلى الاحتمال الثالث وهو الانتهاء عند العلة الرئيسية لكافة العلل وسبب الأسباب والمنبع الرئيسي الغني المطلق فياض الوجود وهو الله تقدست أسماؤه.

وهكذا بعدما وصلنا إلى الاحتمال الحق والذي يؤيده العقل ويرضى به ننتقل الآن إلى التعرف على ذاته وصفاته وأفعاله وأهدافه ومطالبه في الخلق.

ـ **أما ذاته**: إعلم أن العقل والفكر الإنساني عاجز تمام العجز عن الإحاطة بجوهر ذاته ومعرفة كيفيتها المقدسة. فالإحاطة بذاته شيء ممتنع على العقول لعجزها وضعفها وعدم تحملها لذلك. فالله جل جلاله يأبى أن

يكون معقولاً مكيفاً محدداً متناهياً في عقول خلقه الضعيف فهي عاجزة حتى عن الإحاطة والعلم بمخلوقاته وغيوبه وملكه وملكوته فكيف بها تطلب الإحاطة بجوهر ذاته. فنزّه سبحانه عن ذلك وعن أن تدركه الحواس الخمس أو العقول والقلوب والأوهام أو أن تحيط بذاته.

إن ذلك العجز من أجل حكمة اقتضت ذلك كي لا يصاب بنو آدم بالغرور والعجب والفتور فالله جل جلاله هو الباقي إلى الأبد هم الهموم وغاية العقول وحديث الدهور وأمل الآملين وبحث السائلين ومطلب الحائرين هو الأول والآخر الأزل قبل كل شيء قبل أن تكون سماوات ومجرات ونجوم وكواكب قبل الزمان والمكان وقبل الحركة. لم يلد ولم يولد وليس له شبيه ولا شريك. فلا سبيل لرؤيته لا في الدنيا ولا في الآخرة فكل ما يقع عليه الفكر والوهم والخيال من صورة أو كيفية فهو ليس كذلك أوجب على العقول معرفته وامتنع عن أن تنال ذاته. ظهر لها بعظيم قدرته وبشواهد آياته البديعة في الآفاق والأنفس. هو الصمد ذاته واحدة متفردة لا متركبة ولا متبخرة هو الحق أحق وأبين مما تراه العيون.

ـ **وأما صفاته**: فهو العالم بلا تعلم والمبدع الخالق بلا تدبر وبلا تفكر وبلا تجارب وهو العالم المربي بلا توكل وبلا تفويض ولا تقصير ولا إهمال هو الحي الذي لا يموت يحيي ويميت وهو السميع البصير بلا جوارح ولا أدوات وهو العلي العظيم القدير القوي صفاته كلها لم تزل منذ الأزل كما هي عليه بلا زيادة ولا نقصان لا قبل الخلق ولا بعده صفاته لا نامية ولا مكتسبة ولا متطورة كل واحدةٍ منها عين الأخرى ليست متفرقة في أماكن مختلفة كصفات خلقه كلها ذاته. عالم الغيب والشهادة لا يخفى عليه ذرة في ملكه وملكوته يعلم ما في القلوب والأفكار والضمائر الكل عنده شهود هو المحيط بكل شيء علماً وقدرةً بلا أعوان وبلا عساكر وبلا أدوات سلطانه نافذ في كل زمان ومكان بلا حركة ولا انتقال. سميع بلا أذن بصير بلا عيون متكلم بلا لسان هو الكامل صاحب الجلال والجمال.

ـ **وأما أفعاله**: فهو الخالق مفيض الوجود ومخرجه من العدم مكون الأكوان خالق المكان والزمان والفضاء ومجراته وشموسه وكواكبه وهو القائم عليه والمنظم حركته وواضع قوانينه خالق الأنس والجان والملائكة وخالق الجماد والنبات والحيوان والإنسان وخالق النفوس والأرواح وما لا نعلم. خالقِ الحياة والموت والبعث والنشور خالق النور والظلمة وخالق المُلك والملكوت والدنيا والآخرة وكل ما هو مادة ومجرد. وخالق جميع الصفات حسنها وقبيحها وخالق الخير والشر والطاعة والمعصية والعلم والجهل وآدم وإبليس وخالق الأنبياء وأعدائهم والمؤمن والكافر وخالق أفعال العباد خيرها وشرها بلا جبرٍ ولا تفويض كل شيء بإذنه وبمشيئته فلا فعل ولا حركة إلا من بعد إذنه وبقضائه وقدره خالق الإنسان مختاراً مسؤولاً. وإبليس عاصياً بمشيئة. هو الفاعل لما يشاء وكيف يشاء ومتى يشاء. كل شيء له فقير وهو الغني عن كل شيء بيده الوجود وحفظه وبيده العدم وفناؤه. فلا امتناع لأحد منه ولا مهرب لأحد منه أفاض الوجود من العدم. لا خالق سواه صاحب الملك والسلطان.

وأما أهدافه ومطالبه: في البدء لم يكن شيئاً. لا وجود ولا عوالم ولا أكوان ولا مكان ولا زمان ولا ملائكة ولا جان ولا إنس ولا أرواح ولا دنيا ولا آخرة. فكان وحده ولا أحد سواه منذ الأزل. قال جل جلاله في حديثٍ قدسيّ: «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أُعرف فخلقت لذلك الخلق».

ومن هذا الحديث القدسيّ نستنتج نقطتان الأولى أنه كان مخفياً والثانية أنه أحبّ أن يُعرف. ولا يعني ذلك أنه كان مخفياً غير موجود بل كان موجوداً ولكن لا يوجد طرف ثاني لكي يُدركه.

وهذا لا يعني أنه فقير إلى ذلك لأن يُدرك أو يعرف فإن ذلك لا يزيده ولا ينقصه شيئاً. ولم يكن ذلك أيضاً لوحشة أراد أن يستأنس. فالمستوحش فقيرٌ للانس والله جل جلاله ليس كذلك. والنقطة الثانية أنه

أحب أن يُعرف. فهذا الحب ما هو وما هدفه وهل هو لذة له؟ فالله سبحانه وتعالى ليس كخلقه فهو ليس له غرائز كغرائز البشر فنقول غريزة كذا وحب كذا كغريزة حب الجمال وغريزة حب الذات وحب الحياة وحب المال. . . إلخ فالله سبحانه وتعالى منزهاً عن كل هذه الغرائز ولكن يمكن أن نقول أن له محبوبات ومبغوضات. ولا يعني ذلك أنه ينفعل كانفعالات البشر بردود الأفعال فهو ليس كذلك ولا ينفعل عن فعل أو حركة أو حدث من خلقه. فهو العالم بالأمور قبل وقوعها كما بعد وقوعها. ولكن الله سبحانه وتعالى أحب أشياءً وأرادها واصطفاها لنفسه وجعلها حرماً على غيره. كالكبر والعظمة والعبودية له.

عن أبي جعفر عليه السلام قال: العزّ رداء الله والكبر إزاره. فمن تناول شيئاً منه أكبّه الله في جهنم[1].

وله أيضاً مبغوضات. كالشرك به. والكفر به.

قال تعالى ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به**﴾.

إذاً فمن بين محبوباته أنه أحب أن يُعرف فخلق لذلك الخلق وأفاض الوجود وفطره وخلق الملائكة والأرواح والانس والجان والحيوان. فأصبح مُدركاً معلوماً. وذلك بما أودع مخلوقاته من العقول لمعرفته. فأشرفهم لديه أكثرهم به علماً وله خشوعاً وعبودية.

وهنا أيضاً لا يكفي أن يكون مُدركاً ومعلوماً من خلقه فقط. ولكن هناك مطلب آخر له. وهو عبودية الخلق له. قال تعالى ﴿**وما خلقت الانس والجن إلا ليعبدون**﴾. إذاً فهو أيضاً أحبّ أن يُعبد وأن يُعظّم وأن يخشع له الخلق. ولكي يكون مستحقاً للعبادة من خلقه. فواجب أن تكون هذه المخلوقات فقيرة ومحتاجة إليه في خلقها وانشائها وبقائها ودوامها وسدّ حوائجها وفقرها واعطائها منافعها ودفع مضارّها وأخطارها. ولا أحد سواه

---

(١) أصول الكافي ج ـ ٢ ـ ص ـ ٣٠٩.

قادرٌ على ذلك من سدّ حوائجها وفقرها إلا هو.

إذاً فبيده أسباب العبودية ومنه تطلب الحوائج وبه تدفع الأخطار وله يتضرع الخلق. لأن المخلوقات لو كانت غنية في ذاتها ومخلوقة بدون فقر وحاجة إذاً لاستغنت عنه ولما توجهت إليه لسدّ نقصها وحوائجها. فبهذا الفقر الذاتي حصلت العبودية. فلو لم يكن كذلك إذاً لانصرفت عنه. ولو وجدت إلها آخر يسد فقرها أكثر إذاً لتوجهت نحوه. ولو كان غيره أكثر إنعاماً إذاً لعُبد الثاني دون الأول. ولكنّ الله سبحانه وتعالى هو الواحد الأحد الفرد الصمد صاحب المُلك والسلطان بلا منازع. ولا يعني ذلك أنه متسلّط قاهر بظلم كما يجبر السيد عبده على الخدمة ويصفد في الأصفاد والجنازير.

فالله ليس كذلك والظلم لا يليق بالقوي. فهو ليس دكتاتورياً فالله منزه عن ذلك فالعبادة لا يمكن أن تحصل بالقوة والجبر. فهو سبحانه وتعالى أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين صحيح أنه استعبد الخلق ولكنه ليس ظلماً بل خلق الخلق وأكرمه وتغمده بالنعم العظام وجعل الإنسان خالداً مؤبداً في نعيمه وجنانه وبل حتى رفعه إلى درجة عالية جداً في الجنة.

وهو قول المؤمن للشيء كن فيكون. وأي نعمة وسلطان أكبر من ذلك غير سلطانه سبحانه وتعالى إذاً فلا مفر ولا اختيار لنا إما الوجود وإما العدم. وطبعاً لا أحد يحب العدم. وذلك بسبب غريزة حب البقاء التي غرزها الله في خلقه. صحيح أيضاً أنه خلقنا بدون أن يستشيرنا وجعلنا مخلدين أيضاً كذلك بمشيئته واختار صورنا أيضاً بمشيئته ذكراً أو أنثى بمشيئته. ولو أراد أن يعدمنا من الوجود فلا مانع له فنحن له مسلمون مستسلمون راضون بمشيئته وهذا هو معنى الإسلام على حقيقته وهو الخضوع وقبول هذه الحقائق والأصول والقوانين الإلهية. بلا تمرد ولا عناد فلا مهرب نواصينا بيده فنحن له مسلمون.

وأما الكافرون الرافضون والمتمردون على مشيئته كثير منهم عند المصائب والبلايا والنقص في النعم والحاجات يجأرون بالكفر. ويقولون نحن لم نطلب منه أن يخلقنا ومنهم من يقدم على الانتحار ويعتبر الله (ج) ظالماً لأنه خلقه للألم والمصائب فالانتحار والموت بزعمهم واعتقادهم يضع حداً للألم والمصائب والصعوبات وبذلك يمكنهم الراحة بالموت. ولكن هذا غير ممكن فالإنسان ليس إعدامه من الوجود بيده فهو غير قادر على ذلك ولو كان الموت هو الراحة إذاً لكان الإنسان خالقاً لها لأن الموت أيضاً هو في الخلق ولكان الإنسان قادراً على استبدال حالة بحالة أخرى. ولكن الحقيقة حتى الموت فهو ليس فناءً وليس راحة فهو أفظع وأكثر بلاء لأنه ما هو إلا الدخول إلى عالم البرزخ وهو أكثر سعادة أو بلاء لأهله. إذاً الموت والانتحار هرباً من سلطان الله جل جلاله وملكه ومشيئته فما هو إلا وهمٌ.

إذاً فلا سعادة ولا راحة إلا بالإقبال على هذا الخالق العظيم الرحيم الكريم والعبودية له والاستسلام فبيده أسباب السعادة والخلود والنعيم والعز والجمال والجلال. فهو المانح لذلك ولا يحصل ذلك إلا بالإيمان به والحب له والخشوع والطاعة والعبودية التامة له. وتجنب معاصيه وما يبغضه وما لا يحبه. فهذا هو السبيل الوحيد. وهذا ليس عبادة التجّار. فلا مفر من التعامل معه فهو المجازي والمضاعف للأجر والجزاء وجاعل السيئة سيئة والحسنة بعشر حسنات.

وأما عبادة الأحرار أعتقد أننا لسنا بأحرار اللهم إلا إذا تجردنا عن أبداننا وحوائجنا ومطالبنا من جنب المنافع ودفع المضار والمصائب والأخطار وأصبحت أرواحنا غنيةً عن الله (ج) في سدّ أي فقرٍ وحاجة فعندها نكون أحراراً فنعبد الله (ج) بدون مقابل وبدون أن يكون لنا حاجة. ولكن هذا شيءٌ مستحيل قال رسول الله ﷺ: «الفقر سواد الوجه في الدارين». إذاً فلهذا خلق الله (ج) الوجود وأفاضه ولهذا خلق الخلق وأفقره في إيجاده وبقائه وسعادته وكماله.

قال تعالى ﴿وما خلقت الانس والجن إلا ليعبدون﴾.

ولا أقصد بهذه الحرية الحرية الجزئية بل أقصد بذلك الحرية المطلقة.

وأما بالنسبة للحرية الجزئية فهي موجودة ويمكن للإنسان اكتسابها كما قال أمير المؤمنين علي عليه السلام ما عبدت الله خوفاً من ناره ولا طمعاً في جنته. إنما وجدته أهلاً للعبادة. فكل من كانت علاقته البدنية أضعف وعلاقته العقلية أقوى كان أكثر حرية. ومن كان بالعكس كان أكثر عبودية للشهوات. وهكذا يتضح الفرق بين الحرية المطلقة والحرية الجزئية. فالله وحده الحرّ المطلق وجميع الخلق عبيدهُ حتى الملائكة والعقول والأنبياء والخلق كافة.

ـ وأخيراً أختم بهذا الحديث والذي يبين الله في خلقه.

عن حبيب السجستاني قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: إن الله عز وجل لما أخرج ذرية آدم عليه السلام من ظهره ليأخذ عليهم الميثاق بالربوبية له وبالنبوة لكل نبيّ فكان أول من أخذ له عليهم الميثاق بنبوّته محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم قال الله عز وجل لآدم: أُنظر ماذا ترى قال: فنظر آدم عليه السلام إلى ذرّيته وهم ذرّ قد ملأوا السماء قال آدم عليه السلام يا رب ما أكثر ذرّيّتي ولأمر مّا خلقتهم؟ فما تريد منهم بأخذك الميثاق عليهم؟ قال الله عز وجل: يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ويؤمنون برسلي ويتبعونهم.

قال آدم عليه السلام: يا رب فمالي أرى بعض الذرّ أعظم من بعض. وبعضهم له نور كثير وبعضهم له نور قليل وبعضهم ليس له نور؟ فقال الله عز وجل: كذلك خلقتهم لأبلوهم في كلّ حالاتهم قال آدم عليه السلام: يا رب فتأذن لي في الكلام فأتكلّم؟ قال الله عز وجل: تكلم فإن روحك من روحي وطبيعتك من خلاف كينونتي. قال آدم عليه السلام يا رب فلو كنت خلقتهم على مثال واحد وقدر واحد وطبيعة واحدة وجبلّة واحدة وألوان

واحدة واعمار واحدة وارزاق سواء لم يبغ بعضهم على بعض ولم يكن بينهم تحاسد ولا تباغض ولا اختلاف في شيء من الأشياء قال الله عز وجل: يا آدم بروحي نطقت وبضعف طبيعتك تكلّفت ما لا علم لك به وأنا الخالق العالم. بعلمي خالفت بين خلقهم وبمشيئتي يمضي فيهم أمري وإلى تدبيري وتقديري صائرون لا تبديل لخلقي إنما خلقت الجن والانس ليعبدون وخلقت الجنة لمن أطاعني وعبدني منهم واتّبع رسلي ولا أبالي وخلقت النار لمن كفر بي وعصاني ولم يتّبع رسلي ولا أبالي وخلقتك وخلقت ذرّيّتك من غير فاقة بي إليك وإليهم وإنما خلقتك وخلقتهم لأبلوك وأبلوهم أيكم أحسن عملاً في دار الدنيا في حياتكم وقبل مماتكم فلذلك خلقت الدنيا والآخرة والحياة والموت والطاعة والمعصية والجنة والنار

+ وكذلك أردت في تقديري وتدبيري وبعلمي النافذ فيهم خالفت بين صورهم وأجسامهم وألوانهم وأعمارهم وأرزاقهم وطاعتهم ومعصيتهم. فجعلت منهم الشقي والسعيد والبصير والأعمى والقصير والطويل والجميل والدميم والعالم والجاهل والغني والفقير والمطيع والعاصي والصحيح والسقيم ومن به الزَّمانة ومن لا عاهة به.

فينظر الصحيح إلى الذي به العاهة فيحمدني على عافيته وينظر الذي به العاهة إلى الصحيح فيدعوني ويسألني أن أعافيه ويصبر على بلائي فأثيبه جزيل عطائي. وينظر الغني إلى الفقير فيحمدني ويشكرني وينظر الفقير إلى الغني فيدعوني ويسألني وينظر المؤمن إلى الكافر فيحمدني على ما هديته فلذلك خلقتهم لأبلوهم في السراء والضراء وفيما أعافيهم وفيما أبتليهم وفيما أُعطيهم وفيما أمنعهم وأنا الله الملك القادر. ولي في أن أمضي جميع ما قدّرت على ما دبّرت ولي أن أغيّر من ذلك ما شئت إلى ما شئت وأقدّم من ذلك ما أخّرت وأؤخر من ذلك ما قدّمت وأنا الله الفعال لما أريد لا أُسأل عمّا أفعل وأنا أسأل خلقي عمّا هم فاعلون[1]. ـ انظر فصل البلاء ـ.

---

(١) أصول الكافي ج ـ ٢ ـ ص ـ ٩.

ـ الأنبياء ودعوة الإنسان إلى عالم الآخرة ـ

تعددت الدعوات والمدعو واحد. دعوات إلهيّة على لسان أنبيائه ورسله، تدعو الإنسان في هذه الحياة القصيرة على الأرض إلى حياة أبدية خالدة في جنات عرضها السماوات والأرض. فهو لا يرضى سبحانه وتعالى لهذا الإنسان الذي كرّمه وشرّفه على سائر المخلوقات ونفخ فيه من روحه واسجد له ملائكته أن يرضى بالذل في هذه الحياة الحقيرة المنقطعة. أو أن يجهل خالقه والحكمة من إيجاده. فكانت رحمة من الله لهذا الإنسان أن بعث إليه رسله منذ فجر الإنسانية وكلها تدعوه إلى أمر واحد هو الإيمان بإله الكون وتوحيده وعبادته وتعريف الناس به وهدايتهم إلى سبيله ونوره وأن يجهزوا أنفسهم للقائه القريب وهم مطهرين قلوبهم وأخلاقهم وأفعالهم من كل شرٍ وذنب ودنس. وأن يعدوا العدة لذلك بالأفعال الحسنة والنوايا الصادقة وباليقين وأن يتقربوا إليه قبل لقائه بالصلاة والصيام والتقوى والإخلاص... وأن يكونوا فيما بينهم إخوة متحابين متعاونين متراحمين كالجسد الواحد حباً وأخوّة صادقة بكل معنى الكلمة لا فرق بينهم لا في اللون ولا في اللغة ولا في العرق ولا في القومية ولا في الوطن. الكل عشاق الله يتقربون إليه أكثر فأكثر بحبهم المتبادل. كما قال تعالى ﴿**إنما المؤمنون اخوة**﴾.

ودعوات أخرى دنيوية مادية جوفاء خاوية في حياة منقطعة بلا روح ولا هدف. لا تؤمن لا بإله ولا بأنبياء ورسل ولا بحياة بعد الموت. يولد بها الإنسان للأكل والشرب كما تفعل البهائم. يحسب نفسه كأنه خالد. ثم يقضي أيامه فيموت. ترى المستجيبين لهذه الدعوة الفارغة يسعون طوال حياتهم القصيرة للنيل إلى أقصى درجة ممكنة من اللذات والشهوات المختلفة. مما يدفع إلى الحرص الشديد والتزاحم والأنانية والحسد والعداوة وفعل أقبح الذنوب شراً في سبيل الوصول إلى أهدافهم كالنفاق والرياء وحتى القتل وشهادة الزور... إلخ. من شرور ومساوىء الأخلاق. ولما لا؟ ما دام لا يوجد أي عقيدة أو رادع ديني أو ضمير إنساني. فالحياة بنظرهم وجدت عبثاً بلا هدف كما يقول الكفار نموت ونحيا وما يهلكنا إلاّ الدهر.

سبحان الله هل كان محمد وعيسى وموسى وإبراهيم وغيرهم من رسل وأنبياء عليهم جميعاً الصلاة والسلام هل كان هؤلاء العظماء أناسا كاذبين فيما جاؤوا؟ أم أنهم افتروا واختلقوا الدين؟ أم تحملوا أشد العذاب والتكذيب والحياة المرّة من أجل دنيا رخيصة كانوا بها أسوأ الناس حالاً؟ معاذ الله أن يكون ذلك فلقد أجمعت البشرية على حُسن سيرتهم وتواضعهم وزهدهم في الحياة الدنيا. هم الذين قالوا حب الدنيا رأس كل خطيئة. هم أطباء النفوس ومطهروها وقالعوا الشر من قلوب البشر هم زارعوا الإنسانية والأخلاق الفاضلة في قلب الإنسان. هم أساتذة الحب والمحبة لله وللإنسان. رحماء بالإنسان كالأم الحنون. عطفاء كالأب أعوان كالأخ. جاؤوا لاصلاح الإنسان. لم يأتوا لبناء الدنيا وحطامها. وماذا تغني دنيا عامرة إذا كان ساكنوها خراباً من الإنسانية. فبإصلاح الإنسان صلاح العالم وبفساده وخرابه خراب العالم. وبإصلاح الآخرة صلاح الدنيا وبصلاح ما بين المرء وخالقه صلاح لما بينه وبين الآخرين.

أجل هذا ما جاء به الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وكلمة

خاتمهم محمد ﷺ المشهورة «إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق» فالأخلاق هي ذروة الكمال وحلية الإنسان وهي التشبه بالله جل جلاله كقول الرسول ﷺ «تخلقوا بأخلاق الله». وهذا البناء الإنساني الضخم الذي جاء ﷺ لإتمامه. إنما هو بناء واحد اشترك به كل الأنبياء والرسل منذ أبينا آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ مروراً بنوح وإبراهيم وموسى وعيسى... إلخ.

وغيرهم من أنبياء ورسل كل واحد منهم وضع لبنة فوق لبنة حتى اكتمل البناء بمحمد ﷺ وبلغ الإنسان ذروة الكمال والنموذج الأمثل والدرجة التي ليس فوقها درجة. كقول النبي محمد ﷺ: ألا أدلكم على خير أخلاق الدنيا والآخرة؟ تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك. أو قوله ﷺ: أمرني ربي بمداراة الناس ما أمرني بأداء الفرائض. أو كقوله ﷺ: ما زال جبرائيل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه. وأي درجات في الأخلاق والإنسانية أرفع من هذا فأحاديث النبي ﷺ حول حسن الخلق كالعفو والحلم وكظم الغيظ والمداراة والصمت والرفق والتواضع والإنصاف وصلة الرحم والتراحم والتعاطف وحب الناس وادخال السرور عليهم... إلى غير ذلك من أحاديث حول مكارم الأخلاق يصل تعدادها الآلاف فلقد طهّر الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام الإنسان وعلى مرّ آلاف السنين من كثيرٍ من الشرور والآثام حتى بلغ كماله. كالكفر بالله، والشرك، وعبادة الأصنام، وذبح القرابين البشرية لها، وأكل لحوم البشر، واستعباد الإنسان، ودفن البنت حيّة، ونكاح المحارم، وأكل الخبائث وشرب المسكر، وارتكاب الزنى واللواط، وقتل النفس بغير الحق. وشهادة الزور والخيانة والسرقة والكذب والغيبة... إلخ. من شرور وآثام وذنوب ومساوىء الأخلاق. شرائع تحرم شرار الأفعال وتلجم شذوذ الغرائز. وتحلل الطيبات من الأفعال وتحيي العقول وتدفع الإنسان إلى الإرتقاء في سلم المكارم والكمال. هذا البناء الإنساني الضخم هو الصراط المستقيم الذي رسمه الله

والمنهاج القويم الذي شرّعه لخلقه وأمرهم أن يسيروا عليه وأرسل رسله إليهم ليرشدوهم ويدعوهم إليه وهو الصراط المستقيم المؤدي إلى رضى الله ورضوانه ودار السعادة والخلود في جنانه. وهو أيضاً السعادة والطمأنينة في الدنيا قبل الموت فهو صراط السعادة في الدنيا والآخرة. ولقد تحمل الأنبياء والرسل أشد العذاب في سبيل دعوة الناس إليه. فلقد كانوا ثواراً في أممهم ضد الشر والظلم والفساد ودعاة الخير والعدل والصلاح ولقد حاربهم ووقف في وجههم الطواغيت والفراعنة والنمارذة والجبابرة، لصدهم عن تحرير الإنسان بكل قوة وبكل إمكانياتهم العسكرية والمادية للفتك بهم أو سجنهم. صادين الناس عنهم ومتهمينهم بالسحر والكذب وغير ذلك من أكاذيب ومؤامرات باءت جميعها بالفشل. **﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متمّ نوره ولو كره المشركون﴾**. صدق الله العظيم. ووقف الأنبياء والرسل عليهم السلام في سبيل أداء الأمانة الإلهية وتبليغ والدعوة كالجبال الشامخة بصبر وعزم لا يتزلزل لا ترهبهم قوة مهما كانت كبيرة. ولا تغريهم بهارج الدنيا وزخارفها مهما بلغت. ومثال على العزم والاصرار في سبيل تبليغ الرسالة الإلهية موقف النبي محمد ﷺ من عظماء قريش عندما حاولوا معه استخدام المغريات المادية بعدما فشلوا وعجزوا معه عسكرياً للتنازل عن دعوته. فكان جوابه الخالد لهم: والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته.

فدعوة الله ورسالته وشرائعه دعوة كاملة وشاملة للروح والجسد وللآخرة وللدنيا معاً. فهي بالوقت التي ترتفع وتسمو بروح الإنسان سلّم الأخلاق ودرجات الكمال لا تهمل البدن ومتطلباته الدنيوية وإشباع غرائزه التي فطره الله عليها وتأمين حوائجه الأساسية من مأكل وملبس ومسكن وزواج... إلخ.

بل تعطيه ذلك ضمن منطق العقل والاعتدال فهي لا تهبط به إلى مستوى الحيوانية وبما لا يليق بكرامته كإنسان. أو أن يصبح مادياً يغوص

في الشهوات ويعيش من أجلها. فالتطرف والشذوذ شيءٌ مرفوض ومذموم وهو ضد العدل والصواب. فخير الأمور أوسطها. لا إفراط ولا تفريط. ولا إسراف ولا تبذير. ولا بخل ولا طمع. قال تعالى: **﴿إن المبذرين كانوا اخوان الشياطين﴾**.

وقال تعالى أيضاً: **﴿وكلوا واشربوا ولا تُسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾**. وكلنا يعلم كم يبذره بعض الأغنياء من أموال طائلة في لعب القمار والنوادي وغيرها فقط من أجل التسلية. بينما بنفس الوقت يوجد لهم اخوة في الإنسانية يموتون جوعاً وفقراً. وكم أيضاً من صاحب ثروة ومال لا يشبع ولا رحمة لديه يستغل الآخرين بشكل أو بآخر. والحقيقة هي أن هذا النوع من الأغنياء قد ماتت إنسانيتهم فمرضت أرواحهم. وما جاءت شريعة الله إلا لمعالجتهم وتطهيرهم.

قال تعالى: **﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم﴾**[1] وقال عيسى المسيح عليه السلام: الحق أقول لكم إنه يعسر أن يدخل غنيٌّ إلى ملكوت السماوات وأقول لكم أيضاً إن مرور جملٍ من ثقب إبرةٍ أيسر من أن يدخل غنيٌّ إلى ملكوت الله.

فشريعة الله بالوقت الذي تدين به التكنيز وتكديس الثروة والاسراف والتبذير. ترفض كذلك الكسل والعجز. قال الإمام عليٌّ عليه السلام: إن الأشياء لما ازدوجت ازدوج الكسل والعجز فنتج بينهما الفقر. فدعوة الله وإن لم تكن دنيوية الأهداف ولكنها دنيوية الوسيلة. فالدنيا مزرعة الآخرة وهي وسيلة وليست هدفًا وممر وليس مقر. فالآخرة بنظر الأنبياء والرسل هي الهدف والغاية ومحطّ الرحال ودار الخلود وإنما جاؤوا لدعوة الناس إليها باعداد العدة والتجهز لذلك الرحيل بفعل الصالحات.

بينما اعتبروا حب الدنيا والتمسك بها والحرص عليها من سلوك

---

(١) سورة التوبة آية ـ ٣٤.

الجهل وهو خلاف الحكمة والهدف الذي وجد الإنسان من أجله على هذه الأرض. هذا ناهيك عن تعذّر ذلك لما نعلم من قصر الحياة والعمر والذي ينتهي بالأتعاب والضعف والآلام فالموت. هذه حقيقة يقينية يصعب على كثيرٍ من البشر فهمها أو التصديق بها. فالعقول مخدرة بحب الدنيا والشهوات والأماني وطول الأمل والحرص... ولقد صدق الإمام علي عليه السلام بقوله: ما رأيت يقيناً هو أشبه بالشك من اليقين بالموت. فكلنا يُدرك ويعلم أنه حتماً سيموت لا محالة ولكن التصديق بذلك صعب جداً لذلك يبقى الإنسان يسعى دؤوبا في طلب الدنيا ولو كان على حافة قبره فهو يعتقد نفسه خالداً لا يموت. وإذا مرّ بجانب إحدى المقابر أو سمع بالموت مرّ عليه وهو غافل بلا إدراك فهو يعتبر نفسه بخلافهم. لذلك حذر الإمام علي عليه السلام من هذه الغفلة بقوله: ولا يغرنك سواد الناس من نفسك.

ومع هذا فإن الشريعة الإلهية تدعو الإنسان في هذه الحياة القصيرة إلى السعي من أجل تأمين متطلبات الحياة. ولكن سعياً في إجمال. لا كسل ولا طمع. ولا حرصٍ شديد. فساعة لله وللآخرة، وساعة للعمل وللدنيا، وساعة لقضاء لذة في غير محرّم. قال الإمام علي عليه السلام: لا تكن عبداً لأحد وقد خلقك الله حرّاً. وإذا كان مكروهاً للإنسان أن يكون عبداً لأحد. فهو كذلك مذموم ومكروه أن يكون عبداً للمال والشهوات.

ولقد ورد عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعن أهل بيته الكرام كثير من الأحاديث تدعو وتحث الإنسان على العمل من أجل تأمين المعاش. فالاقتصاد هو فرعٌ هام من فروع الإسلام وله جوانب متعددة لا مجال هنا للدخول فيها.

ـ قال رسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم: نِعم العون على طاعة الله الغنى.

ـ وعن الإمام جعفر الصادق أنه قال: ليس الزهد في إضاعة المال. ولا تحريم الحلال بل الزهد في الدنيا أن لا تكون بما في يدك أوثق منك

بما عند الله عز وجل.

ـ وقال الإمام عليه السلام: الزهد في الدنيا قصر الأمل وشكر كل نعمة والورع عن كل ما حرّم الله عز وجل.

ـ وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ملعون من ألقى كلّه على الناس.

ـ وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: لا خير في من لا يحب جمع المال من حلال يكفُّ به وجهه ويقضي به دينه ويصل به رحمه.

ـ وعنه أيضاً عليه السلام أنه قال: ليكن طلبك للمعيشة فوق كسب المضيّع ودون كسب الحريص الراضي بدنياه المطمئن إليها ولكن أنزل نفسك من ذلك بمنزلة المتعفف. ترفع نفسك عن منزلة الواهن الضعيف وتكتسب ما لا بد منه. إن الذين أُعطوا المال ثم لم يشكروا لا مال لهم.

ـ وعنه أيضاً عليه السلام: قال له رجلٌ: والله إنا لنحب الدنيا ونحب أن نؤتاها فقال عليه السلام: تحب أن تصنع بها ماذا؟ فقال: أعود بها على نفسي وعيالي وأصل بها وأحجّ وأعتمر. فقال عليه السلام ليس هذا طلب الدنيا هذا طلب الآخرة.

ـ وعن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: من طلب الرزق في الدنيا استعفافاً عن الناس وتوسيعاً على أهله وتعطّفاً على جاره لقي الله يوم القيامة ووجهه مثل القمر ليلة البدر.

ـ وعن الإمام علي الصادق عليه السلام: كثرة النوم مذهبة للدين والدنيا.

ـ وعن الإمام عليه السلام: إعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً فجميع هذه الأحاديث والتي وردت في «أصول الكافي» الجزء الثاني. تبين بوضوح مدى اهتمام الشريعة الإلهية بالجانب الاقتصادي والجسدي. إلى الجانب الروحي المعنوي.

فهي شريعة شاملة ومتكاملة ومتوازنة سواء كان في الأخلاق أم في

العبادات أم في الحلال والحرام أم في السياسة والاقتصاد أم في العلاقات... فما من شيء شرعته إلاّ وفيه فائدة للإنسان وما من حرام إلا وبه ضرر له. والله لا يريد ظلماً للبشر والعقل يشهد بذلك ويؤيد قال الرسول محمد ﷺ: لقد جئتكم بالشريعة السمحة السهلة. وهي حقاً كذلك ما إذا قارناها بما قبلها من شرائع إلهية. وهي شريعة مريحة ومرنة وليست فوق طاقة الإنسان وهي تتطرق إلى الأمور الأساسية والخطيرة والتي بها بقاء الإنسان أو فناؤه فلقد بينت الخطوط العريضة وترك الله لعقل الإنسان الواعي سائر الأمور التفصيلية والاجتهادية والمقررات. وشريعة الله هي بعكس الشرائع الوضعية المادية والتي ترفض شرائع الله ولا تعترف إلا بشرائع البشر والقائمة على تعدد الأكثرية. فهم يقولون بأن الإنسان واعٍ وعاقل وذكي وهو وحده قادر على حل مشاكله دون أي تدخل إلهي. ولكنّ الحقيقة هي ليست كذلك إذ ليس منطق العقل ومنطق الأكثرية على حدٍ سواء. إذ كثيراً من الأحيان ما تصدّت به الأكثرية بدافع الهوى والرغبات النفسية وتحت تأثير وسائل الإعلام والخاضعة في الغالب لأصحاب الأموال والشركات والنفوذ... فما أبعد الفرق بين العقل والهوى. فشرائع الحضارة المادية لا تعنيها القيم الإلهية ولا الروحانيات ولا الأخلاقيات. إذ ليس بنظرهم لهذه الأمور أي دور في تأمين السعادة والرفاهية للبشر. فقط العمل وزيادة الانتاج وتحسين وسائل العيش والاختراعات المختلفة وتطوير الزراعة والصناعة والتجارة والنقل والمواصلات والصحة ورفع مستوى الدخل الفردي والقومي وبناء المنتزهات وأماكن الترفيه.... إلخ.

وحدها الماديات كفيلة بتأمين السعادة لبني الإنسان. فلذلك فإن كل همهم وتشريعاتهم منصبّة على الجانب الجسدي للإنسان. فالعمل والمال أصبح دين تلك المجتمعات فهم ينظرون إلى الإنسان من هذه الزاوية ويقيّمونه بها. منتج أم مستهلك، صاحب ثروة أم مُعدم، صاحب مصنع وعمل أم عامل. ما هو حسابه المصرفي؟ وما هي أملاكه...؟ سبحان

الله. هل خلق الإنسان من أجل هذه الأمور السخيفة، لكي يقيّم ويُقاس بها. إلى هذا المستوى سقط قدر الإنسان وقيمته لكي يعمل كمسمار أو كعجلة في آلة ميكانيكية. إن هذا التيه والضياع في الأهداف والتزاحم جعل الإنسان يعاني من كثير من الآلام والمشاكل النفسية والأمراض المعنوية والأخلاقية. مما يدفع كثيرا من الناس إلى اللجوء إلى تعاطي المخدرات. كما أن محاولات الانتحار في تلك المجتمعات المادية تصل سنوياً إلى مئات الآلاف، بينما هي في المجتمعات الروحية شيءٌ نادر جداً. كما أن عدد القتلى بالأسلحة النارية والجرائم المختلفة وحرب العصابات يصل سنوياً فقط في الولايات المتحدة الأمريكية إلى عشرات الآلاف. هذا بالإضافة إلى المشاكل الناتجة عن إدمان الخمور والعنصرية إلى غير ذلك من مشاكل مختلفة. وهنا يحق لنا أن نتساءل لماذا أناس يتمتعون بصحة جيدة وبوضع مادي لا بأس به وفي بعض الأحيان ممتاز جداً لماذا يقدم هؤلاء على الانتحار؟ فإذا كانت الماديات تؤمن السعادة للبشر كما يقولون فلماذا هذا السلوك؟ والجواب هو أن الحضارة المادية قد فشلت في تأمين الرفاهية والسعادة الروحية والنفسية لمجتمعاتها وهذه حقيقة واضحة. بينما الشريعة الإلهية هي بعكس ذلك تماماً فهي لا تقصر نظرها على الجانب المادي الجسدي فحسب بل لها لروح الإنسان برنامج طويل عريض كفيل برفع معنوياته وكماله وسعادته إلى أعلى الدرجات فدعوة الله ذات أهداف عالية جداً تجعل الإنسان في كماله يزاحم الملائكة ويجاور رب العزّة ويتخلق بأخلاقه ويحيا حياة وسعادة أبدية خالدة..

هذه هي السعادة التي يريدها الله لخلقه عامةً والتي أشار إليها عيسى المسيح عليه السلام بقوله: ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان. أجل فالخبز غذاء الجسد وحب الله ومعرفته غذاء الروح. وليس كما تريدالحضارة المادية أن تجعل الإنسان كحيوان مربوط في زريبة يعمل ليأكل ويأكل ليعيش ويعيش ليعمل في عبث وضياع بلا أهداف. وربما هنا يتساءل الماديون بدورهم، فإذا كانت الروحانيات والأخلاق تؤمن السعادة والرفاهية لبني البشر فلماذا

تقاتل الأديان فيما بينهم على مدى القرون ولا زالوا لحد اليوم كذلك تسود بينهم العداوة والبغضاء؟ الجواب هذا صحيح لا أحد ينكره فلقد تقاتل الأديان فيما بينهم على مدى القرون وحتى كذلك في بعض الأحيان تقاتل أهل الدين الواحد والمذهب الواحد فيما بينهم. كما يحدث الآن في أفغانستان وفي إرلندة الشمالية وفي غيرها من أماكن... ولكن ليس الدين أو الله هو المسؤول عن ذلك بل الجهل والتعصب وعدم انضباط النفس في أخلاقها وسلوكها. ولو فتشنا عن أسباب تلك المصائب لوجدنا أسبابها. إما فتنة استعمارية وإما بسبب التعصب للقومية أو الوطنية وإما صراعاً على السلطة أو المنصب... إلخ من مسببات لا صلة لها بالدين. فدين موسى وعيسى ومحمد وغيرهم من أنبياء ورسل عليهم الصلاة والسلام هو دين واحد في جوهره ورسالة ودعوة واحدة في أبعادها وأهدافها لكافة بني البشر عامة والتي لا تريد سوى سعادتهم. وعندما أراد يوماً ما طائفة منهم احتكار دين الله ودعوته بقولهم نحن شعب الله المختار دون سوانا. أرسل الله رجلا منهم بثورة عملاقة ينقد قولهم واحتكارهم. فأرادوا به كيداً وشراً فرفعه الله إليه مطهراً مكرماً.

وأخيراً نقول فسواء كانت الشريعة إلهية أم وضعية بشريّة، لا بد لها من سلطة تنفيذية وقضائية وهذا ما يتطلب إنشاء وتأسيس حكومة. فالحكومة ليست في حد ذاتها هدفاً من أهداف الشريعة الإلهية، بل هي وسيلة فقط من أجل تطبيقها، ونشر العدل والأمن والسلام وتقديم الخدمات... إذ بدون حكومة ونظام فإن الفوضى ستعمّ، فيتقاتل الناس ويتظالموا وينهب بعضهم بعضاً...

إلى ما إلى ذلك من شرور وفساد. وهذا ما يؤدي إلى توقف نحو الحضارة وتفتح المواهب والبناء والتقدم. فيصبح المجتمع عندئذٍ كغابة يسود بها منطق القوة ويكون مصير المجتمع الفناء والضياع والخراب... إذاً فقيام الحكومة من وجهة النظر الدينية هي حكومة دنيوية مؤقتة. قيامها

واجب لسبب عدم بلوغ بني الإنسان بشكل عام درجات الكمال الخُلُقي بسبب اختلافهم في الأعمار والمطالب والعقائد والتفكير. فالدنيا حياة مختلطة يوجد بها الخير والشر معاً.

أما في عالم الآخرة في الجنة فإن أهلها وسكانها متفقون ومتشابهون، قد تم فرزهم بعد الحساب وهم أهل الكمال والأخلاق العالية الرفيعة. فهم ليسوا بحاجة هناك إلى وجود حكومة تنظم أوضاعهم. فالجنة دار الأمن والسعادة والسلام والكرامة. فأهل الجنة ليسوا بحاجة لا إلى وزارة دفاع ولا إلى شرطة ولا إلى قضاء ولا إلى صحة ولا إلى تعليم ولا إلى مالية ولا إلى زراعة ولا إلى صناعة ولا إلى تجارة ولا إلى خارجية... فالدنيا هي مزرعة الآخرة ومتجرها بالأعمال الصالحة وفعل الخيرات. وبقدر حسن الأعمال بها ونقائها وإخلاصها يكون قدر الجزاء في الآخرة قال النبي محمد ﷺ: إنما الأعمال بالنيات ولكل إمرىءٍ ما نوى. فشريعة الله تطهّر الإنسان وتعالجه من الداخل وتزرع به وتنمي القيم الإنسانية والروحانية والأخلاق الفاضلة. وهذا ما ينتج سلوكاً سليماً خالصاً خيراً وتجنباً للشر والفساد، بلا إجبار ولا رقابة من أحد. وذلك لأن الدافع للخير والرادع للشر هما موجودان معاً في داخل الإنسان. والله على كل شيء رقيب وشهيد وهو السميع البصير عالم الغيب والشهادة وما تخفي الصدور.

هذا ما يعتقد به المؤمنون. أما الشرائع الوضعية المادية فهي بعكس ذلك فهي لا تهتم إلاّ بالأمور المادية والخارجية فالإنسان المادي لا يفعل الخير إلاّ لمنفعة يحصل عليها. ولا يرتدع عن الشر إلاّ خوفاً من العدالة. فإذا سمحت له الفرصة والظروف في أن ينتهك القوانين دون أن يراه أحد لفعل ذلك. ولما لا يفعل ذلك؟ طالما لا يوجد لديه أي رادع داخلي عقائدي معنوي وما دام لا يعتقد بوجود إله يراقبه سيحاسبه يوماً ما. وبوجود جنةٍ ونار وحياة آخرة. فشرائع الله كاملة وليست ناقصة. وكذلك نعمه على الإنسان من موارد طبيعية وغيرها. الإنسان هو الناقص في كماله

وسلوكه والشريعة الإلهية جاءت رحمة من الله له فلا ازدهار ولا كمال له بدونها.

وفي الختام نقول كما هو واجب على الإنسان الاهتمام بروحه وجسده، بآخرته ودنياه، كذلك هو واجب على أفراد الأمة الاهتمام بكيان الدولة الإلهية بروحها وجسدها، والاهتمام بروحها هو بحفظ معنوياتها بقلع الفساد والفتن منها والضلالات المختلفة وتطهير حواسها بالتقوى. وإحيائها وزرعها بالقيم الإلهية والأخلاق. كذلك أيضاً يجب الاهتمام بجسدها بالعمل على تأمين ما تتطلبه من اقتصاد وزراعة وصناعة وتجارة وصحة ووسائل ودفاع وتدريب وتعلّم وحيطة وحذر ويقظة حتى يكون كيان الأمة بروحه وجسده كياناً معافى نشيطاً عالماً مؤمناً عاقلاً قوياً تقياً ذا عزم وإرادة وخُلُقٍ رفيع. قوي الجسد وبصحة تامة مدافعاً عن نفسه وقيمه ومبادئه وحريته وأرضه.

وبعد أداء هذا الواجب وهذه المسؤولية هنالك أيضاً واجب ومسؤولية أخرى وهي محاولة وعظ وإهداء الكيانات الأخرى ودعوتهم إلى شريعة الله لكي ينعموا بسعادتها والدعوة لهم تكون بالحكمة والموعظة الحسنة كما أمر الله. قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: كونوا دعاة الناس بغير ألسنتكم. والمقصود بهذا ليرى الناس أعمالكم الحسنة فإنها أبلغ من ألسنتكم في إهداء الآخرين. لأن من كان فعله مخالفاً لقوله فهو منافق لا يؤثر في الآخرين. فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم الأمور التي جاءت بها الشريعة الإلهية. والنهي عن المنكر يكون إما بالقلب وإما باللسان وإما باليد. وذلك بحسب درجة المنكر وبحسب الظروف... وهكذا يكون الإنسان قد أدى واجبه تجاه الله وتجاه روحه وجسده وعائلته وإخوانه ومجتمعه والعالم بأسره امتثالاً لشرع الله وأمره ورجاء لرضاه وإحسانه وفضله في الدنيا والآخرة.

ـ لمحة موجزة حول موضوع الجهاد:

بعدما علمنا أن الشريعة الإلهية كفيلة بتأمين السعادة للإنسانية. فما هو السبيل والوسيلة التي يجب أن تتخذ لتطبيقها ونشرها والعمل بها في أرجاء الأرض؟ والجواب هو ما جاءت به الشريعة نفسها من آيات تأمر بالتبليغ والهداية بالحكمة والموعظة الحسنة وبالبرهان. قال تعالى: ﴿**إنا أرسلناك بشيراً ونذيراً**﴾. وقال أيضاً: ﴿**لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغيّ**﴾. إلى غير ذلك من آيات كثيرة تدعو إلى الرفق والهداية والبلاغ. لا بالعنف ولا بالإجبار ولا بالتهديد.

إن دين الله دينٌ متين جداً وهو ليس بحاجة لفرضه بالقوّة. لأنه لا يمكن لأيّ دين أو عقيدة أو فلسفة أن تنمو وتستمر حتى ولو نُشرت بالقوّة. كما لا يمكن نشرها بالترغيب أو الترهيب لأن الطمع والخوف لا يرسخان الشيء في القلب. لأن ذلك يقود حتماً إلى النفاق. فلا أحد يستطيع أن يلصق ما لا يلتصق. فاستخدام القوّة يجب أن يكون فقط من أجل الدفاع عن النفس أو الدين والعقيدة إذا مُنع الإنسان من ممارستها. فإن ما تردده وسائل الاعلام والدعاية المعارضة من أن الإسلام قد انتشر بسبب استخدام القوّة فإن ذلك غير صحيح بتاتاً. فالنبي محمد ﷺ هو وأصحابه المؤمنين كانوا ضحيّة العنف والاضطهاد في فجر الدعوة حيث استخدمت ضدهم القوّة والتعذيب لمنعهم في مكة من ممارسة دينهم. كما عانوا من الحصار الاقتصادي والتشريد من ديارهم ووطنهم من أجل ذلك. والنبي يأمر أصحابه بالصبر على الأذى وعدم الردّ واستمر الأذى كذلك ضدهم حتى هاجر النبي وأصحابه المؤمنين معه من مكة إلى المدينة المنورة يثرب حيث أنصاره وإخوانه في العقيدة. ولم تكتفِ قريش وأهل مكة أن خرج النبي وهاجر منها بل جهزوا العساكر والجيوش وذهبوا لحربه والقضاء عليه وعلى أصحابه. وهنا لأول مرّة جاءه الأمر من الله بالدفاع عن

نفسه وعن أصحابه. في وجه المكيين.

وهذا الأمر بالدفاع عن النفس جاء بعد أكثر من عشر سنوات على بدء دعوته ورسالته التي كانت كلها هداية وتبليغ وسلم وسلام. ونشبت الحرب بينه وبين المكيين في حرب استمرت سنوات معدودة كانت أبرزها ثلاث وقائع بدر، وأُحُد، والخندق. وكانت في كل هذه الحروب قريش والمكيّون هم المهاجمين والنبي وأصحابه هم المدافعون.

وكانت نتائج تلك الحروب أن كان النصر حليفه هو وأصحابه بالرغم من قلة عددهم ومواردهم. واستتب له الأمر وفتحت مكة وعاد إليها منتصراً ونُشر الأمن والسلام والعدل في أرجاء شبه الجزيرة العربية. ثم كاتب النبي وبعث رسائل إلى ملوك امبرطوريتي الروم والفرس واللتين كانتا في ذلك العصر تتقاسمان العالم. كذلك أرسل النبي رسائل إلى عظيم مصر وإلى ملك الحبشة وإلى غيرهم من ملوك وأمراء ورؤساء قبائل... وكلها تدعوهم إلى الدخول في دين الله الجديد وتبلغهم رسالته. وكانت الردود مختلفة فمنهم من قبل الدعوة ومنهم من رفضها. عندها أمره الله بشن أول حرب هجوميّة ضد امبراطوريتي فارس والروم وذلك من أجل تحرير الإنسان الذي كان يعاني ظلم تلك الامبراطوريات والتي أنهكت شعوبهم الحروب الطويلة. لذلك استقبل الشعب الفارسي ومقاطعات الامبراطورية الرومية الشرقية الفاتحين المسلمين بفرح وسرور واعتنقوا الدين الجديد. وعندما شن الإسلام تلك الحروب الجهادية الهجومية لم تكن الأهداف ماديّة أبداً أو للتوسع والنفوذ كما كانت حروب الفرس والروم والبيزنطيين من أجل التوسع والسيطرة والذهب والموارد الطبيعية وغيرها من أهداف مادية... الإسلام غزا ليعطي لا ليأخذ. فلقد غزا القلوب والنفوس بمبادئه وأخلاقه وعدالته قبل أن يغزو الأراضي. وهذه فعلاً فلسفة جديدة جاء بها الإسلام وهو الجهاد المقدس. فإذا كان لا بد من الحرب، فلتكن إذاً حرباً من أجل المبادىء والقيم الإلهية والأخلاق

ـالمعنويات. لا حرباً من أجل الذهب والسيطرة والتسلّط والنهب والاستعباد. ولو سألنا أي إنسان على وجه الأرض لأيها من الأسباب تحب أن تقاتل وتموت؟ من أجل الماديات يستفيد منها حكامك الأغنياء وحاشيتهم. أم من أجل الروحانيات والقيم الإلهية والإنسانية... طبعاً الاختيار الثاني هو الأفضل وأعتقد أنه هذا هو رأي الأكثرية الساحقة من البشر. وحتى في عصرنا هذا أيضاً أكثر الحروب التي تقع أهدافها ماديّة اقتصادية ولا زالت دول عظمى تشن الحروب ويسقط خلالها مئات آلاف القتلى من أجل الماديات كالنفط أو غيرها من أسباب وموارد طبيعية... وكل ذلك من أجل أن ينال طائفة من أصحاب الثروات والأموال الطائلة منافع ذلك لإشباع شهواتهم الشاذة ونفوسهم المريضة وأجسادهم المعلوفة.

أما الجهاد الهجومي فهو جهاد لا يحق إلاّ لنبي أو وصي نبي وضمن شروط وأهداف دقيقة ومحددة. وذلك بعد عرض الحجج والبراهين على الطرف الآخر. فهو جهاد يكون مأذونا به من الله لمنفعة وإصلاح مؤكد الوقوع وكما ذكرت هو فقط حقٌ للنبي أو لوصيّه. ولا يحق لأحد سواهما من شن حرب جهادية هجومية، كما فعل الأمويون والعباسيون من أجل تحقيق مصالحهم المادية وللتربع على العروش والخوض في الشهوات، كالذين فتحوا اسبانيا وجنوب وفرنسا وغيرهما ثم تراجعوا وانهزموا لاحقاً. ولقد صدق النبي محمد ﷺ بقوله: «ما كان لله ينمو، وما لم يكن لله يزول ولا ينمو». بينما نجد ما حدث في إيران ومصر والشام وغيرها من أماكن عكس ذلك تماماً. حيث رسخ الدين بقوّة في قلوب الناس إلى يومنا هذا، وبعد مرور (١٤) أربعة عشر قرناً على ذلك الفتح. حتى أن الحاملين اليوم لراية الإسلام ودين محمد هم تلك الشعوب كالفرس والأتراك ومصر وغيرها من دول... أكثر من العرب أنفسهم. والسبب في هذا الرسوخ هو واضح تماماً لأن الذين فتحوا تلك البلاد كانت أهدافهم روحانية إلهية

صادقة لا كالذين فتحوا الأندلس واسبانيا وغيرها. . . كانت أهدافهم مادية دنيوية.

كما أن الإسلام قد انتشر في كثيرٍ من الأماكن في العالم بالتبليغ والتعامل التجاري والحكمة والموعظة الحسنة كبلاد أندونيسيا وماليزيا وحوض خليج البنغال وجزر المحيط الهندي حيث وصلها الإسلام بواسطة التجار العرب وتعاملهم مع تلك الشعوب. إذ الجهاد الهجومي هو اليوم مرفوض.

أولاً: لأن النبي أو الوصي غير موجودين لكي يمارسوا حقهما في الجهاد المشروع والمأذون به من قبل الله. وثانياً: لعدم وجود ضرورة إليه اليوم بسبب انتشار الديمقراطية وحرية التعبير والاعتقاد.

فالصراع اليوم هو صراع الأفكار وحرية التعبير والنقد يجب أن يكون حقّا للجميع. حتى للذين يريدون أن ينتقدوا الإسلام ومبادئه. شرط أن يكون نقداً مؤدبا وعلميا لا نقد تجريح لشعور الآخرين وشتائم، كما فعل سلمان رشدي. وعلى المسلمين أن لا يمتعظوا من النقد. فإن ذلك أمر كان شائعاً في فجر الإسلام حيث كان يأتي الأحبار والرهبان من اليهود والنصارى والهندوس والبوذيين وحتى الكفار كانوا يأتون إلى مكة والمدينة لمناظرة علماء الإسلام.

كما أن الغرب نفسه يعترف بأن الإسلام هو الذي أوصل الفلسفة اليونانية إليهم عبر الأندلس. فالوصول إلى الحقيقة هي غاية كل إنسان، ولا يمكن الوصول إليها بدون تبادل الأفكار والآراء. بل حتى الله نفسه يدعو إلى النقد في كتابه العزيز حيث يتحدى الإنس والجن على أن يأتوا بكتاب مثله أو كسورة من سوره أو كآية من آياته. . . وإذا كان الدين حقّ، فلا خوف عليه من أحد، فإن الله ينصره ويرفعه ويظهره بالبرهان الجلي والحجة الواضحة. مهما طُعن فيه وحاول أحد اطفاءه أو طمسه. والله عزيزٌ قدير.

ـ البلاء ـ

البلاء وهو في اللغة العربية اختبار وامتحان وهذا البلاء قد يكون في الخير وقد يكون في الشر وهو إما بحصول الإنسان على مزيد من النعم وإما يكون بسلب الإنسان ما يملكه من نعم وسواء بما يحب الإنسان أو بما يبغضه فكلا الحالتين تسمى بلاءً أي اختبارا من قبل الله سبحانه وتعالى لعبده. ولقد اختلفت الأديان والفلسفات في موضوع البلاءات والشرور التي تصيب الإنسان فمنهم من يعتبر أن الخير والشر والسعادة والشقاء ليس لله بهما من دخل بل ذلك بسبب سلوك الإنسان وتدبيره فالخير والسعادة بسبب حسن التدبير والشر والشقاوة بسبب سوء التدبير وإن كيفية التعامل مع عالم الأسباب وحده الذي ينتج الخير والشر أي أن السعادة والشقاء والخير والشر شيءٌ مكتسب والإنسان مسؤول عنه. ومنهم طائفة أخرى تنظر لوجود الشرور في العالم من زاوية أخرى وهم يعتبرون أن لهذا العالم إلهين إله خالق للخير وإله خالق للشر وهم أهل الديانة الهندية. وطائفة أخرى تنظر إلى وجود الشر في العالم على أساس أن الله غير عادل لأنه يسمح بحدوث ذلك كموت الأطفال والحرب وغير ذلك من شرور. وهو لا يفعل شيئاً لتغيير ذلك بل يسمح بحدوث الظلم ويترك الظالم ولا يأخذه بفعله. ومنهم طائفة تعتبر أن العالم غير كامل في خلقه وأن الله خلق الإنسان ليعذبه وأن هذه البلاءات والمصائب والشرور هي ظلم من جانبه لمخلوقاته.

فجميع هذه الفلسفات والنظريات والأديان مخطئة في تفسير هذه الظاهرة أما التفسير الإسلامي للبلاء فهو ليس كذلك قلنا سابقاً إن الله سبحانه وتعالى هو الخالق لهذا العالم. وقال تعالى **﴿وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون﴾**. وقلنا أن الإنسان فقير ذاتياً وأن الله هو الغني المطلق. والله (ج) وحده هو الفيّاض بالنعم على عباده. وبدءًا بالنعمة الكبرى وهي نعمة الوجود وخلق الإنسان ومنحه النعم الأساسية كصحة البدن ونعمة الحواس الخمس كالبصر والسمع. وأيضاً كذلك النعم المعنوية العظيمة كسلامة العقل ونعمة العافية والأمن والمواهب المختلفة والصفات الحسنة. وكذلك النعم المادية المختلفة.

فالله سبحانه وتعالى هو المتفضل بذلك على عباده والبادىء بدون أي استحقاق مسبق من طرف البشر.

وأن الله إنما خلق الخلق لكي يُعرف ويُعبد وتخشع له المخلوقات بأسرها. إذاً فكان لا بد من أن يصيب الله الإنسان بنقصٍ في تلك النعم وبسلبها. وذلك من أجل حكمة إلهية في ذلك وهي معرفة ردة الفعل من جانب العبد، قال تعالى **﴿ولنبلونكم حتى نعلم أيكم أحسن عملاً﴾** وقال تعالى **﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون﴾**. ولا يعني أن الله سبحانه لا يعلم ردة الفعل من عبده قبل اختباره. ولكن لكي تظهر الأفعال التي بها يستحق العبد الجزاء في الآخرة إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً. وقد يكون البلاء لمجرد مدة قصيرة ثم يعيد الله ما سلبه من عباده أضعافاً مضاعَفة.

فكثيراً من الناس يدّعون الإيمان بألسنتهم. وأما عندما يقع البلاء كثيراً ما يكفر فإذا ما فقد الإنسان ماله أو مات ولده أو أصيب في نفسه تراه يكفر ويتكلم ويفعل ما لا يليق. ومنهم من إذا أصابه البلاء وسلبت جميع أمواله وخسر ولده أو أصيب بنفسه تراه يحمد الله على كل حال ويسترجع ويصبر. ولهذا قيل إن الصبر نصف الإيمان وأنه من الإيمان بمنزلة الرأس

من الجسد. وأعلى من الصبر درجة هو الرضا بالقضاء على كل حال. وفي حديث عن الصبر والرضا. وهو أن العبد إذا صبر اصطفاه الله (ج) وإذا رضي بالقضاء اجتباه الله (ج).

إذاً فالله استعبد الخلق في النقص في النعم وذلك لأن الخلق يتوجهون إليه في الدعاء لمنحهم مزيداً من النعم أو لرد ما فقدوه من ذلك. أو لدفع ضرر ما أو خطرٍ أو خوفٍ ما. وبشكل عام تكون في أكثر الأحوال نتائج البلاء إيجابية على العبد. قال تعالى: **﴿إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى﴾** وقال أيضاً: **﴿لو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض﴾**.

فالله سبحانه وتعالى يقلب الأوضاع على عباده بالشدة تارة وبالرخاء تارة. وإنّ للبلاء والمصائب التي تصيب الإنسان حكما وفوائد ومنافع كثيرة جداً. وهي فوائد تكون على العبد نفسه وإن ظهرت بمظهر البلاء وإن كان شرب الدواء مراً فالبلاء هو في أكثر الأحيان علاج نفسي وروحي. وهي الروح المستهدف الأول منه وليس البدن وأعضائه.

بينما ترى الإنسان منعماً متمرداً عاصياً مستكبراً بينما تجده فيما بعد حامداً ذاكراً متواضعاً تقياً زاهداً. وكذلك العكس ممكن ومن البلاء ما هو كفارة للعبد.

ومنه ما يكون رفع درجة ومنزلة للعبد ومنه ما يكون لصرف العبد نحو عالم الآخرة وتزهيده في الدنيا. ومنه ما يدفع العبد للدعاء والتوجه نحو خالقه. ومنه للتذكير وإعادة العبد إلى الصراط المستقيم. فالبلاء دائماً يُحدث في النفس تغيراً جوهرياً في التفكير والسلوك تجاه الخالق واتجاه نفسه واتجاه الآخرين واتجاه الحياة الدنيا. فالله (ج) خلق الإنسان من أجل هدف عالٍ جداً فالبلاء يدفع الإنسان نحو عالم الآخرة والبلاء يبني الشخصيّة الإنسانية ويدفعها نحو التكامل ويخرجها من القوة إلى الفعل.

ولقد أثبت العلم الحديث أنه وبعد وقوع البلاء يحدث في الجهاز

العصبي للدماغ نشاط رهيب في الخلايا العصبية وإن مواجهة حادث ما يجعل الفكر ينشط في دقائق ما لم يفعله في سنوات من الرخاء. واعتقد أن الحياة المرفهة بدون أي مشكلة طيلة حياة الإنسان فإن إنساناً كهذا يقيناً سيكون ضعيفاً في فكره ونفسه ولقد شاهدت أناساً وصلوا إلى أعمار تناهز الثلاثين أو الأربعين ولكن عقولهم كعقول الأطفال من الضعف.

وفي بعض الناس من يقول لماذا البلاء؟ ولماذا الله (ج) يبتلي أولياءه ويجعلهم غرضاً لأعدائه في الدنيا؟ الجواب وهو أن الله يختبر عباده بالبلاء من أجل تكاملهم ولقد جاء في حديث أنه كلما زيد إيمان العبد كلما زيد في بلائه وذلك ككفتي الميزان وليهيىء الله (ج) لعباده المؤمنين أن يسكنوا إلى جواره بصفات إنسانية كاملة وليس بصفات حيوانية.

قال الرسول الأكرم ﷺ: «تخلقوا بأخلاق الله (ج)» لأن الجار لا بد وأن يكون كجاره في الصفات والأخلاق لكي يحلو لهم العيش.

ـ وهناك أيضاً أنواع مختلفة من البلاء هناك البلاء الذي يرد على الإنسان وروداً من الخارج ويكون بدون أي اختيار للعبد فيه. كالمرض أو موت الولد أو فقد صديق أو أخ أو حبيب أو فقد الإنسان ماله أو أحد أعضائه أو جوارحه.

ـ وهناك نوع آخر من البلاء وهو الذي يحدث للإنسان من جرّاء أحد التكاليف الدينية كالجهاد والجراح والأسر والتعذيب وأرفع هذا النوع من البلاء هو ما حصل لإبراهيم الخليل عليه السلام حينما رأى في المنام أنه يذبح ابنه الوحيد إسماعيل عليه السلام وباشر في فعل ذلك استسلاماً لأمر ربه ورضاً بقضائه ثم فداه الله بكبش بدل ذلك. وكذلك ولده إسماعيل عليه السلام عندما أجاب أباه بالقبول وقوله يا ابتي افعل ما تؤمر ستجدني صابراً إن شاء الله. فهذه حالة عالية جداً. وكما فعل الإمام الحسين عليه السلام واستشهاده دفاعاً عن الدين ومبادئه.

وكذلك الشهداء الأبرار الذين يقدمون على تفجير أنفسهم في سبيل

الله فيضحون بأنفسهم تطوعاً منهم وقربةً إليه وحباً له. بشرط أن لا يكون ذلك بدافع الغضب أو الانتقام أو الحماس أو العاطفة أو لاظهار الشجاعة. أو لهدف آخر غير الله (ج) ودينه وأوليائه.

ـ ومن البلاء أيضاً ما يصيب الإنسان عن طريق الجهل والذي يكون أكثر دوافعه النفس الأمارة بالسوء حيث يلقي الإنسان بنفسه في التهلكة من أجل المال أو الجاه أو الشهرة أو بسبب الغضب... إلخ وهنا يكون الإنسان هو الجاني على نفسه. ولكن النتيجة تكون إيجابية لتعلم الدروس وتصحيح المسار بالإضافة إلى الفوائد التي ذكرتها سابقاً.

فالبشر طوائف مختلفة: ـ طائفة منهم وهم الأكثر عدداً لا يعرفون الله (ج) ولا يتوجهون إليه إلا عندما يُحدث لهم نقصاً في النعم أو عدماً لبعضها. فعند ذلك يتضرعون إليه لإعادة ذلك إليهم. فإذا ما أغناهم من جديد طغوا ونسوا الفقر الذاتي. فهم كمثل فراخ في عشّ إذا جاعوا صاحوا وإذا شبعوا سكتوا. فالله يستعبدهم بالنقص في النعم. ومنهم ما إذا أشبعوا طبّلوا وزمّروا وإذا جاعوا جزعوا وبكوا.

ـ وطائفة ثانية: وهم أقل عدداً من الطائفة الأولى. لا يعرفون الله (ج) ولا يتوجهون إليه إلا في حال الغنى. فإذا ما أغناهم الله (ج) حمدوا وشكروا. وإذا ما أفقرهم وسلبهم النعم سخطوا وكفروا فالله يستعبدهم بالعطاء والنعم.

ولكن كِلا هاتين الطائفتين معرضتان للخطر في هذا الامتحان لأن السخط وعدم الصبر والرضا بالقضاء يؤدي إلى السقوط في الهاوية لما نعلم من قصّة إبليس (لع) وسخطه على القضاء الإلهي بعدما كان من المقربين وبعدما عبد الله (ج) ستة آلاف سنة لا يُدرى أمن سنين الدنيا أم من سنين الآخرة. سقط إلى الهاوية بسخطه وتمرده ورفض بلاء الله وامتحانه له بالسجود لآدم فأبى وعصى الله (ج) واستكبر. فغضب الله عليه وجعله ملعوناً في الدنيا والآخرة وأعد له نار جهنم ولمن فعل فعله وتمرّد.

ـ يوجد طائفة ثالثة وهم الأقل عدداً وهم الصابرون على كل حال في السراء والضراء.

وارفع منهم درجة الراضون بقضاء الله. وارفع من ذلك أيضاً هم المختارون لذلك كما اختار الرسول الأكرم ﷺ التواضع حينما عُرضت عليه مفاتيح خزائن الأرض فلم يقبلها.

ـ عن الإمام الصادق عليه السلام قال: خرج النبي ﷺ مخزونا فأتاه ملك ومعه مفاتيح خزائن الأرض فقال: يا محمد هذه مفاتيح خزائن الأرض يقول لك ربّك: افتح وخذ منها ما شئت من غير أن تنقص شيئاً عندي قال رسول الله ﷺ: الدنيا دار من لا دار له ولها يجمع من لا عقل له فقال الملك: والذي بعثك بالحقّ نبياً لقد سمعت هذا الكلام من ملك يقوله في السماء الرابعة حين أُعطيت المفاتيح[1].

فهذه الحالة كما نرى ليست مفروضة عليه ﷺ بل هذا اختيار منه ﷺ وهو تواضع منه لله (ج) وعبودية.

ـ ومن الدرجات العليا أيضاً وهو أن يبذل الرجل ماله ودمه في سبيل الله (ج).

فكما ذكرت فإن جميع ذلك بلاء من الله سبحانه لعباده. فهو البادي والمتفضل بالنعم عليهم أعطانا كل شيء بدون أي مقابل. كل ما يريده منا هو الإيمان به والإقرار بفضله علينا والخشوع والعبودية له. ولقد أمرنا تكليفاً منه لنا واختباراً أن نعطيه مما أعطانا لكي تظهر بذلك الأفعال منا ويرى من هو أحسن عملاً ويعلم ردة الفعل من عباده على بلاءه. وبعد الموت يكون الجزاء على قدر البلاء وعلى قدر ردّة الفعل من عباده فإن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً.

وبالمناسبة أذكر هنا ما قاله الإمام الخميني حول موضوع البلاء قال

---

(١) أصول الكافي ج ـ ٢ ـ ص ـ ١٢٩.

في تفسيره لآخر فقرة من حديث رسول الله ﷺ «ومن سخف دينه وضعف عقله قلّ بلاؤه» قال: إن البلية تعم الجسمانية والروحيّة، فإن الأشخاص الضعاف في عقولهم وإدراكهم في أمان من المعاناة الروحية والانزعاجات العقلية، على خلاف من يتمتع بالعقل الكامل والادراك الحذق، حيث تزداد معاناته ومصائبه ومن المحتمل أن يعود إلى هذا المعنى كلام الرسول ﷺ القائل: «ما أوذي نبيّ مثل ما أوذيت» لأن كل من يدرك جلال الرب وعظمته أكثر، ويقف على المقام المقدس للحق جل وعلا بشكل أعمق، يتألم ويتعذب من جرّاء عصيان العباد وهتكهم للحرمة أكثر. وأيضاً كل من كانت رحمته وعنايته وشفقته على عباد الله أكثر، تأذى من اعوجاج العباد وشقائهم أكثر.

وقطعاً كان خاتم النبيين ﷺ في كل هذه المقامات والمنازل الكمالية، أكمل من جميع النبيين والأولياء وبني الإنسان فتكون محنه وآلامه أعمق[1].

وأخيراً نقول إن النفس إذا أحرزت قوّتها وبلغت درجات عالية من الكمال، تنال الحرية. وتصبح قلعة صامدة لا تؤثر بها الأحداث ولا تنفعل منها ولا تنهزم ولا تنهار في وجه الصعاب ويصبح البلاء والرخاء بالنسبة لها على حدٍ سواء.

قال تعالى ﴿**لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم**﴾. صدق الله العظيم. وقال أمير المؤمنين عليه السلام عن أصحابه المخلصين بأنهم لا يُبشرون بالأحياء ولا يُعَزَونَ عن الموت.

أما إذا كان لا بدّ من الحزن والألم فإن ذلك يجب أن لا يظهر لأحد. كما قال الإمام علي عليه السلام: يعز عليّ أن يُرى بي كآبة، فيشمت عاد ويُساء حبيب. وكما قال أيضاً عليه السلام: الصبر على المصيبة، مصيبة

---

(١) الأربعون حديثاً ـ ص ـ ٢٨٣.

للشامت بها.

أما الأنفس الضعيفة، والمعلقة بالشهوات والحطام وحب الدنيا، فإنها تنهار عند أول بلاء أو مكروه يعرض لها. فيظهر عليها الذل والضعف، فيسقط بذلك الإنسان من أعين الناس، وتشمت به الأعداء.

ـ هذه بعض الأحاديث التي وردت عن النبي الأكرم محمد عليه وعلى أهل بيته الصلاة والسلام.

ـ عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: ما أفلت المؤمن من واحدة من ثلاث ولربما اجتمعت الثلاث عليه. إمّا بغض من يكون معه في الدار يغلق عليه بابه يؤذيه. أو جار يؤذيه أو من في طريقه إلى حوائجه يؤذيه. ولو أن مؤمناً على قلّة جبل لبعث الله عز وجل إليه شيطاناً يؤذيه ويجعل الله له من إيمانه أُنساً لا يستوحش معه إلى أحد[1].

ـ وعنه أيضاً عليه السلام قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وآله من أشد الناس بلاء في الدنيا فقال: النبيون ثم الأمثل فالأمثل ويبتلي المؤمن بعد على قدر إيمانه وحسن أعماله فمن صحّ أيمانه وحسن عمله اشتد بلاؤه ومن سخف إيمانه وضعف عمله قلّ بلاؤه[2].

ـ وعن الصادق عليه السلام قال: إن عظيم الأجر لمع عظيم البلاء وما أحب الله قوماً إلا ابتلاهم[3].

ـ عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: إن الله عز وجل ليتعاهد المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل أهله بالهدية من الغيبة ويحميه الدنيا كما يحمي الطبيب المريض[4].

---

(١) أصول الكافي ج ـ ٢ ـ ص ـ ٢٤٩.
(٢) أصول الكافي ج ـ ٢ ـ ص ـ ٢٥٢.
(٣) أصول الكافي ج ـ ٢ ـ ص ـ ٢٥٢.
(٤) أصول الكافي ج ـ ٢ ـ ص ـ ٢٥٥.

وهذا لا يعني من كل هذه الطائفة من الأحاديث أنه يجب على الإنسان الاستسلام وعدم مواجهة الأحداث والأخذ بالأسباب والعمل بها فإن موضوع التوكّل والقضاء والقدر إذا فهما بشكل خاطىء فهو شيءٌ خطير جداً ويضر بمصالح الفرد والمجتمع وينتج الخمول والجمود وتخدير القوى الفكرية والابداعية مما يفسح المجال أمام الأعداء ويشكل خطرا على الأمة. ولكن المقصود والواجب على الإنسان أداء المسؤولية وعمل الواجب والتدبير على أكمل وجه إلى جانب الدعاء والطلب من الله في التوفيق لاختيار السبب الأنسب والرأي الأصوب والحيلة الناجحة باستخدام العقل والقوى الفكرية والأسباب المادية والعلم بالقوانين والسنن والعلوم الطبيعية.

فإن من يعتقد أو يتوهّم أنه بإيمانه يستطيع أو يمكنه أن يخترق السنن الطبيعية وقوانينها وعالم الأسباب فإنه مخطىء تماماً ويلقي بنفسه في التهلكة. وهو مخالف لما أمر الله به من العمل واعداد العدة والأخذ بالأسباب.

ـ قال أمير المؤمنين عليه السلام: التدبير قبل العمل يؤمنك من الندم.

ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: اعقلها وتوكّل.

ـ وأخيراً نقول أنه ليس كل ما ظهر أنه بلاء هو كذلك. فقد يصيب الإنسان بلايا في الدنيا ولكنها تكون نقمة وبلاء في الآخرة وتكون من باب الاستدراج.

ـ عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: إن الله إذا أراد بعبد خيراً فأذنب ذنباً أتبعه بنقمة ويذكره الاستغفار، وإذا أراد بعبد شراً فأذنب ذنباً أتبعه بنعمة لينسيه الاستغفار، ويتمادى بها، وهو قول الله عز وجلَّ: ﴿**سنستدرجهم من حيث لا يعلمون**﴾ بالنعم عند المعاصي[1].

---

(١) أصول الكافي ج ـ ٢ ـ ص ـ ٤٥٢.

ثم إنه يجب أن لا يقصّر الإنسان نظره فقط على النعم المادية. فلله أيضاً نِعم معنوية عظيمة يمن بها على من يشاء من عباده. أكبرها نعمة الإيمان بالله ومعرفة أنبيائه وأوصيائه وأوليائه ونعمة الأخلاق الحسنة والعقل السليم والعلوم المختلفة والآداب والأمن والعافية... وغيرها من نِعم معنوية.

ـ عن الصادق عليه السلام قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: قال الله عز وجل: وعزتي وجلالي لا أُخرج عبداً من الدنيا وأنا أريد أن أرحمه حتى أستوفي منه كل خطيئة عملها، إما بسقم في جسده وإما بضيق في رزقه وإما بخوف في دنياه فإن بقيت عليه بقيّة شددت عليه عند الموت؛ وعزتي وجلالي لا أُخرج عبداً من الدنيا. وأنا أريد أن أعذبه حتى أوفّيه كل حسنة عملها إما بسعة في رزقه وإما بصحة في جسمه وإما بأمن في دنياه فإن بقيت عليه بقيّة هونت عليه بها الموت[1].

(١) أصول الكافي ج ـ ٢ ـ ص ـ ٤٤٤.

ـ الشيخ والسفينة ـ

كنت أحد الأيام أشاهد برنامجاً تلفزيونياً عن البحار وسكان الجزر، وبالتحديد عن بلاد أندونيسيا التي تضم حوالي ثلاثة عشر ألف جزيرة، وهي تعتبر أكبر دولة إسلاميّة من حيث عدد السكان. وتنتشر هذه الجزر على آلاف الكيلومترات بين المحيط الهندي والمحيط الهادي. وسكان ذلك الجزء يستخدمون السفن ومنها الشراعية القديمة في تنقلاتهم وأسفارهم، فهم يُعتبرون من البحارة الماهرين منذ أزمان بعيدة، حيث يهتدون بالنجوم والشمس في أسفارهم ومعرفة المكان الجغرافي والطرق البحرية، وأماكن الجزر.

وكان البرنامج يتكلم عن سفينة متوجهة إلى بعض الجزر المعزولة، والتي يحتاج الوصول إليها أيام عديدة من الملاحة.

كانت السفينة خشبيّة وعتيقة، تدفعها عدة شراعات، تمخر بها المياه، وكان طاقمها مؤلفا من بضعة شبّان يرافقهم شيخ متقدم في السن قد بدت على وجهه علامات الزمن والشمس والبحار، وكان قبطان تلك السفينة شاباً في أول شبابه ذو خبرة محدودة في الملاحة. وبعد مرور بضعة أيام على تلك الرحلة اقتربوا من المكان الذي يريدون الوصول إليه.

كان الجو سيئاً، والرؤية ضعيفة والقبطان لا يدري موقعه بالتحديد

من تلك الجزيرة، فلا يدري هل هو على يسارها أم هل هو على يمينها، وكان منهمكاً بالخارطة والشمس والأدوات. بينما الشيخ الكبير كان على ظهر السفينة يصلي بكل هدوء وطمأنينة، يراوح بين الركوع والسجود متوجهاً نحو الكعبة، والتي تقع على بعد آلاف الكيلومترات من ذلك المكان البعيد خلف البحار. وهذا ما لفت انتباهي وهو وسط كل تلك الحيرة لدى القبطان لمعرفة مكانه على الخارطة. هذا الشيخ الكبير بصلاته يعرف موقعه جيداً، حيث عرف وقت الصلاة والمكان والاتجاه. وحدد موقعه في الزمان والمكان والعالم، وعرف القبلة والتوحيد وإلى من يوجّه وجهه، ومن يعبد.

ونحن في هذا الجو وهذا العصر المليء بعواصف الفتن وأمواج الضلال وضباب الجهل وهيجان الكفر وتلاطم الحضارات. يجب علينا أن نحدد موقعنا، ونعرف وجهتنا، وأن نسلك الصراط الذي هدانا الله وأرشدنا إليه، المؤيد بنور العقل، والموصل إلى شواطىء الأمن وأرض السعادة والسرور. ونقول وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ولا الكافرين.

ـ في قصار الكلمات ـ

ـ العمر كيوم أشرقت به الشمس صباحاً ثم غربت مساء فانتهى.
وسن الولادة به كوقت الفجر.
وسن الشباب به كوقت الصبح.
وسن الشيخوخة به كوقت العصر.
وسن الهرم به كوقت المغرب.
وحلول الموت وقت العشاء.
وكانت الدنيا كيومٍ مضى.

ـ الخير يأتي من خمسة أشياء والشر يأتي من خمسة أشياء.
الخير يأتي من الله إذا أطعته.
ومن الشيطان إذا عصيته.
ومن الهوى إذا قمعته.
ومن العدو إذا حذرته.
ومن التدبير والتوكل إذا أحسنته.

والشر يأتي من الله إذا عصيته.
ومن الشيطان إذا أطعته.
ومن العدو إذا أغفلته.

ومن التدبير والتوكل إذا أسأته.

ـ الصامت عندما يتكلم كلامه مسموع ومؤثر، أما الذي يلغو كثيراً كلامه غير مسموع وغير مؤثر حتى ولو كان حكمه.

ـ عزمٌ بلا أدوات كأدوات بلا عزمٍ لا يُحدثا شيئاً.

ـ من عبد الشهوات فهو خادم الحيوان.

ـ يجب أن تُقاد النفس بعصا العقل.

ـ قلب العالم كالعالم وقلب الجاهل كالقبر.

ـ أخرج من الدنيا خروج الأحرار قبل أن تخرجك الدنيا من حضنها مستكرهاً ذليلاً.

ـ التفكر منبع النور.

ـ التفكر منجم العلوم والمعارف.

ـ من أسير البدن إلى أسير الهوى، أقول لك جاهد نفسك لتحرر عقلك.

ـ الامور ترى من خلال أعين: عين العاطفة، وعين العقل، وعين الله.

شعر

ليس السجينُ من هو خلف القضبانِ ... إنما السجينُ من أسرته الشهوات

وليس الحرّ من يسرحُ ويمرح في الأرضِ ... ولكن الحرّ من علا بأجنحة الفكرِ

والفرجُ مرغوبٌ فهو مجمعُ الأنسِ ... بأرواحٍ وقلوبٍ نسخة العقلِ

اللهم فصبراً ورضاً لك على المحنِ ... أنت العون والرجاء والسند

وكما قال حبيبي عليٌ لكميلِ ... أنت نور المستوحشين في الظُلَمِ

أنرت قلبي بمعرفةٍ فلا ندم ... فلك الحمد على البلاء والنعمِ

ـ الفهرس ـ

الموضوع	الصفحة
ـ أين الحقيقة	٧
ـ الغيب والشهادة	١٥
ـ مصادر المعرفة وحصولها في النفس	٢٠
ـ فضل العلم وطلبه وأقسامه والعمل به وفضل التفكر عليه	٢٨
ـ نشوء الكون	٣٨
ـ البحر المسجور	٥٠
ـ المادة	٥٢
ـ دور المادة وحركتها على الأرض	٥٨
ـ الضوء	٦٢
ـ ظهور الحياة على الأرض	٦٩
ـ نظرية تطوّر الأجناس، وظهور الإنسان على الأرض	٧٦
ـ أبعاد الجسم	٩٧
ـ أبعاد النبات	١٠١
ـ أبعاد الحيوان	١٠٩

ـ أبعاد الإنسان ١٢٠
ـ الله ١٥٨
ـ الأنبياء ودعوة الإنسان إلى عالم الآخرة ١٦٩
ـ البلاء ١٨٥
ـ الشيخ والسفينة ١٩٥
ـ قصار الكلمات ١٩٧
ـ الفهرس ١٩٩